
كتابي
الجزء الأول
مدام بوفاري
جوستاف فلوبير
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

جوستاف فلوبير

دراسة تحليلية لحياته ، وادبه

للمحرر

المراجع

Flaubert par lui-même (par : La Varende)

Gustave Flaubert (par : Edouard Maynial)

Sept Visages De l'Amour (par : André Maurois)

Flaubert and « Madame Bovary »
(by : Somerset Maugham)

Gustave Flaubert (by : Henry Thomas)

جميل .. كآلهة الإغريق !

● فى سنة ١٨٤٠ هبط باريس ، ليدرس القانون ، فتى فى الثامنة عشرة ، غريب الأطوار : فهو وسيم الخلقة ، خجول الطبع ، رث الهندام ، مرهف الاحساس، لاذع اللسان، ظاهر الخشونة والفظاظة .. او بعبارة اخرى : كتلة من المتناقضات!

وكان مظهره اشبه بإله من آلهة الإغريق ، يرتدى قميصا من قماش الفانلة الاحمر ، وسترة زرقاء ! .. وكان قليل الكلام ، ولكن « إذا ما فتح فمه ليتكلم فكأنما غمس لسانه فى إناء من الخل ! » .. وكان يظهر احتقارا شديدا للتقاليد ، وينظر إلى كل إنسان ــ بما فى ذلك نفسه ــ نظرته إلى احمق غبى .. وهو يقول فى هذا : « ان اول ابله اراه كل يوم هو شخصى ، حين اقف امام المرآة فى الصباح كى احلق لحيتى !.. وآخر ابله هو اى إنسان يصادف ان اتحدث إليه قبل أن آوى إلى فراشى ! » .

من يكون هذا الفتى الشاذ ؟ .. اراد زملاؤه من تلاميذ مدرسته ان يعرفوا .. وقيل لهم : « إنه فلوبير .. جوستاف فلوبير .. ابن كبير جراحى مستشفى (روان) » .

وسأل واحد من التلاميذ فلوبير : « لابد انه أمر شائق ان تكون ابن رجل مشهور مثل ابيك ! » .

فأجابه الفتى فى عدم مبالاة : « وما هو الأمر الشائق فى ذلك ؟ » .

ــ يا للعجب ، فكر فى عدد الارواح التى ينقذها ابوك !

نزنر الفتى من انفه وقال ساخرا : **« نعم .. ان ابى ينقذ الغبى كى يواصل غباءه فى المستقبل ! »** .

* * *

● وقد نشأ فلوبير غريب الأطوار منذ البداية ، يهتم دائما بالجانب المعتل المختل من الحياة .. فقد كان أول ما تفتحت عليه عيناه فى دنياه مشاهد العراك مع الموت ، بين جدران مستشفى أبيه .. أو على حد وصفه : « كان مدرج المستشفى يشرف على حديقتنا ، وكم من مرة تسلقنا — إخوتى وأنا — تكعيبة الكروم ، كى نتأمل الجثث الممددة تحتنا ، والشمس تحرقها بنارها ، والذباب ينهشها فى غير رحمة .. الذباب عينه الذى يحوم حولنا نحن ويطن فوق هامات الأزهار ! » .

ويؤثر المنظر عقل « فلوبير » الباطن .. حتى يكبر ويغدو رجلا ، فيكتب إلى خليلته « لويز كوليه » يوما رسالة يقول فيها : « ان منظر المرأة العارية يجعلنى اتخيل هيكلها العظمى ! » .

وقد ولد دقيق الملاحظة ، شغوفا بمراقبة البشر ، حتى انه بدأ يسجل ملاحظاته عن مسلك الناس بمجرد أن اتقن الكتابة .. وكان يجد متعة خاصة فى تأمل المجاذيب والبلهاء ، ويتصور أنهم بدورهم يجدون متعة خاصة فى تأمله هو ! .. وبقدر ما كان ابوه ولوعا بتشريح الاجسام البشرية ، صار هو ولوعا بتشريح « النفوس » البشرية ، والتعمق إلى باطنها ، وتأمل « الهيكل العظمى » للأفكار الشريرة التى تختبىء فى أعماق أنقى الناس سيرة ، فى الظاهر ! .. فاذا

الخطاب الأول الذى يكتبه الصبى وهو فى سن التاسعة ، إلى أحد أصدقائه ، يتضمن هذه العبارات : « يا صديقى ، انك محق فى ملاحظتك سخف الاحتفال برأس السنة .. إن اكثر تصرفات الناس تبدو لى سخيفة غبية ! » .

وحياة فلوبير هى فى الواقع ثورة عنيفة طويلة الأمد ضد غباء بنى البشر ! .. فقد شب ساخطا حانقا على اولئك الرجال « الذين تستغرق حياتهم عاطفتان : جمع المال ، والحياة من اجل ذواتهم فقط ! » .

نشأ متشائما .. فى اسرة سعيدة !

● ولد « جوستاف فلوبير » فى مدينة (روان) فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ — وكان ابوه « اشيل كيلوفاس فلوبير » يومئذ فى السابعة والثلاثين ، وأمه « كارولين فلوبير » فى السابعة والعشرين — ورغم أن الصبى نشأ فى كنف اسرة سعيدة ، رفيعة المكانة ، فإن حسه المرهف وخياله الجامح أضفيا على نفسيته ذلك الشعور بالوحدة ، او الوحشة الداخلية ، الذى يلازم ذوى الاحساس المرهف طيلة حياتهم ! .. كما قد يعزى «تشاؤمه» منذ شبابه الباكر إلى ان «الرومانتيكية» كانت يومئذ فى عهد ازدهارها ، والتشاؤم كان « موضة » العصر ! .. لكن هذا الاعتبار وحده لا يكفى فى الواقع لتبرير شعور الفتى بسخف الحياة ونفوره من الناس ، وهو الذى كان ينعم ببيت سعيد وابوين عطوفين ، وشقيقة تدلله ، واصدقاء يحبونه .. وينعم فوق ذلك كله بصحة سابغة !

وقد ادخل الصبى المدرسة ، لاول مرة ، متأخرا عن

الوقت المناسب بسنوات ــ إذ كان قد جاوز العاشرة بشهور حين التحق بمدرسة « الليسية » فى (روان) ! ــ ولعل ذلك كان المنبع الأول لنزعة الخجل التى لازمته بعد ذلك ــ ربما لانه وجد نفسه بين زملاء متفوقين عليه فى الدراسة . بحكم الأسبقية ــ فكانت تلك بذرة من بذور « مركب النقص » الذى عانى منه طويلا !

وقد ساهمت فى تغذية مخيلة الصبى « فلوبير » قبل إدخاله المدرسة ، خادمة الاسرة الوفية « جولى » ــ التى ظلت فى خدمتها ٥٨ عاما ! ــ فقد دأبت على اشباع خياله بطوفان من الحكايات والأقاصيص .. فلما التحق بالمدرسة بدا ميله الواضح إلى دراسة التاريخ ، وشغف بقصصه ، حتى لقد اصدر وهو بعد فى الرابعة عشرة صحيفة مدرسية نشر فيها الكثير من القصص والموضوعات التاريخية والادبية ، التى كان منها : وفاة مرجريت دى بورجونى . صور من حياة لورد بيرون ، يدان فوق التاج ، سر الملك فيليب الحذر ، قصة نورماندية من القرن العاشر ، اليد الحديدية ، احلام الجحيم .. الخ .. ثم تقدم خطوة أخرى حين نشرت له إحدى صحف المدينة المحلية بحثا فى « التاريخ الطبيعى » !

غرامه الأول !

● وفى تلك الفترة ، بدأ الغلام يرتاد مجاهل الحب ، لأول مرة ! .. كانت فاتنته الأولى فتاة إنجليزية تدعى «هنرييت كوليبه» ، كان أبوها ملحقا بحريا لبلاده فى فرنسا ، وقد أسرت قلبه بعذوبتها وعاطفيتها .. لكن تعلقه بها لم يجاوز الإعجاب البرىء ، الذى لم يبلغ حتى درجة الغزل ! .. وكان

هو يومئذ على نصيب « صارخ » من الوسامة ، بل الجمال ! .. ذا قسمات دقيقة منتظمة ، وبشرة شقراء وردية ، وعينين زرقاوين ، وشعر ناعم .. كان جماله يبهر البصر ويسلب اللب ! وصفته « مدام ألفونس دوديه » ــ زوجة الكاتب الكبير ــ فقالت : « كان شابا غير عادى .. ذا نظرة صافية ، نظرة زرقاء ، عاشقة و .. مرهفة ! » .. وقال فيه « موريس دريفوس » : « كانت له عينان فيهما زرقة عذبة . عينان طيبتان بالغتا الرقة ، ومفرطتان فى القوة ! » .. وقال « اميل برجيرا » : « كانت فى عينيه عذوبة خارقة للطبيعة .. عينان واسعتان زرقاوان ، تحف بهما أهداب طويلة « مذهبة » ! » .

واقبل الصيف ، صيف عامه الخامس عشر ، وبدأت التجربة الاولى « الجدية » فى حياة الفتى العاطفية .. التجربة التى تعتبر بحق « حبه الأول » ! .. كانت اسرته قد ذهبت للاصطياف فى (تروفيل) ، التى كانت يومئذ « قرية » متواضعة محاذية للبحر ، ليس فيها غير فندق واحد ! .. وهناك التقى الفتى بشخص يعمل ناشرا للنوتات الموسيقية، يدعى «موريس شليسنجر » ، كان يقضى الصيف مع زوجته وطفله . وقد وصف فلوبير الزوجة فيما بعد بقوله : « كانت طويلة ، سمراء ، ذات شعر أسود « فاخر » ، تنسدل خصلات منه على كتفيها . وكان انفها اغريقيا ، وعيناها تشعان نارا ، وحاجباها عاليين مقوسين ، وبشرتها متوهجة كما لو كانت « مغبشة » بالذهب ! .. وكانت رشيقة ، فاتنة ، تشف رقبتها الارجوانية عن شرايينها الزرقاء ، وترتسم على شفتها العليا سمة نشاط متوثب .. وبالاختصار، كان سحرها يخسف

حسن اجمل شقراء ! .. وكانت تتكلم فى أنـاة ، بصـوت موسيقى ، ناعم ، دافىء ! » .

كانت « اليزا شليسنجر » يومئذ فى السادسة والعشرين .. وكان فلوبير خجولا ، بحيث ما كان ليجد الجرأة على مجرد التحدث إليها ، لو لم يكن زوجها رجلا مرحا طيب القلب ، يسهل على المرء ان يرفع الكلفة معه .. فصار يستصحب الفتى معه فى نزهات ركوب الخيل ، وفى مناسبة ما خرج ثلاثتهم — والزوجة بينهم — فى نزهة نهرية بالقارب ، فجلس فلوبير و « اليزا » جنبا إلى جنب ، وقد تلامس كتفاهما ، كما لمس طرف ثوبها يده .. وكانت تتكلم بصوت عذب ، خفيض ، لكنه كان فى دوامة من الانفعال لم تترك فى ذاكرته كلمة مما قالته ساعتئذ !

وانتهى الصيف .. وغادرت اسرة « شليسنجر » البلدة ، وعادت اسرة فلوبير إلى روان .. واستأنف الفتى الدراسة ، وقد تمكنت من قلبه اقوى عاطفة صادفته فى حياته !

ولم يتح لفلوبير ان يعود إلى (تروفيل) إلا بعد عامين كاملين ، وعند وصوله علم ان « اليزا » رحلت من البلدة قبل ايام ! .. كان هو يومئذ فى السابعة عشرة ، واحس ان حبه قد داخله تطور هام : صار يحبها كرجل ، تعتمل فى نفسه الرغبة فى المرأة! وضاعف غيابها من حدة عاطفته، وضرامها.. فلما عاد إلى بلدته ، استأنف كتابة قصة كان قد بداها منذ حين ثم اهملها زمنا ، وكان عنوانها : « مذكرات مجنون » ، فروى فيها مغامرة حبه لاليزا فى ذلك الصيف المشهود ..

يقرا .. ويلاحظ .. ويكتب !

● ولنعد إلى ميول الفتى الأدبية ، وشغفه بالقراءة والكتابة .. فقد أولع منذ يفاعته بقراءة«هوجو» و«شكسبير» ، و « بيرون » و « روسو » .. لكن « هوجو » كان احبهم إليه . وحين قدر له يوما ان يزوره فى بيته ، كتب يقول : « لقد استمتعت برؤيته عن قرب .. فحدقت فيه مشدوها ، كما احدق فى إناء مملوء بملايين الجواهر الكريمة ، متأملا كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذى جلس بجوارى على مقعد صغير ، مدققا النظر فى يده اليمنى التى كتبت كل تلك الروائع الجميلة ، قائلا لنفسى : « هذا هو الرجل الذى جعل قلبى ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت ، والذى احببته اكثر من جميع من لم اعرف ! » .

والكاتب الثانى الذى كان له تأثير ادبى كبير على فلوبير هو «جيته» ، فقد قرأ قصته «فاوست» فى شارع (كورلارين) الجميل بمدينة روان ، الذى تحف به الأشجار العالية من جانب ويحف به من الجانب الآخر نهر السين .. وفى مواجهته على الضفة الأخرى تدق أجراس الكنائس التى يختلط رنينها فى الوعى بشعر « جيته » الرائع .. فكان راسه يدور ، ويعود إلى بيته كالمأخوذ !

وقبل ان يشب عن الطوق ، الف الفتى روايات مسرحية ، وقام بتمثيل دور البطولة فيها مع اخته على مسرح البيت ، الذى لم يكن سوى مائدة الطعام ! .. وكان من بين تلك المسرحيات واحدة من خمسة فصول ، عن لويس الحادى

عشر . غير أن هذه التمثيليات جميعا لم تعجبه وتظفر برضائه، فترك ميدانها إلى كتابة القصص والموضوعات غير التمثيلية ، التى انتج منها فى تلك الفترة : الشهوة والفضيلة ، افكار فى التشكك ، رقصة الموتى ، النزع ، واخيرا « مذكرات مجنون » التى اشرت إليها آنفا . . وفيما كان يدرس للبكالوريا، (فى عام ١٨٣٩ — ١٨٤٠) ، كتب ابحاثا ومقالات عن : روما والقياصرة ، ادب « رابليه » ، جنازة الطبيب « ماتوران » ، ادب الشاعر : « كورنى » . . بل إنه كتب بحثا علميا عن « الامساك » !!

وهكذا قضى فلوبير الاعوام الثمانية السابقة لحصوله على البكالوريا — اى الأعوام بين سن العاشرة والثامنة عشرة — يحلم ، ويلاحظ ، ويكتب ، ويسخر من زملائه الطلبة، وينشىء معهم صداقات . . فانه — مثل اكثر الساخرين — كانت تكمن فى أعماقه نفس رقيقة !

على انه كان يضطر إلى إخفاء نفسه عن انظار ابيه حين يكتب . . فان « الدكتور فلوبير » كان مصرا على الحيلولة بين ابنه وبين المستقبل الادبى المظلم ! وحين حاول الابن يوما ان يقرا على ابيه إحدى « درره » ، غلب على الأب النعاس ! . . كان الطبيب المشهور يتوق إلى ان يجعل من ابنه جوستاف جراحا بارعا مثله ، ومثل ابنه الآخر « اشيل » . . وله فى هذا الصدد قول مأثور : « نحن آل فلوبير اسرة محترمة ، ولا نريد بيننا متشردين او شعراء ! » .

وحصل الفتى على البكالوريا ، فى سن التاسعة عشرة ، وإذ ذاك صارح اباه بانه « لن » يصير طبيبا ! . . وكان أبوه

قد يئس من إقناعه أو الضغط عليه ، فقال له : « حسنا ، إذا لم تشأ أن تكون طبيبا ، فينبغى اذن ان تصير محاميا » . . وهكذا تقرر أن « يشحنه » إلى باريس فى بداية العام الدراسى ليدرس القانون !

مغامرة غرامية جديدة !

● وكى يغريه ابوه على قبول هذا الوضع ، أرسله فى العطلة الصيفية مع طبيب صديق فى رحلة إلى جزيرة كورسيكا وجبال « البيرينيز » ، وكان يومئذ شابا مكتمل النمو، عريض الكتفين ، يصفه عارفوه — ويصف نفسه — بانه « عملاق » ، رغم ان قامته لم تكن تصل إلى الستة اقدام . لكن الفرنسيين كانوا فى ذلك العصر اقصر قامة منهم اليوم ، فكان هذا الطول فى نظرهم « فارعا » ، غير عادى . وكان الفتى رشيق القد ، مهيب الطلعة ، تظلل اهدابه السوداء عينين واسعتين ، فى لون مياه البحر ، ويتهدل شعره الطويل الجميل حتى كتفيه . . حتى لقد وصفته ، بعد اربعين سنة من ذلك التاريخ ، امراة عرفته فى شبابه ، بأنه كان يومئذ فى جمال إله من آلهة الإغريق !

وفى طريق عودة فلوبير ومرافقه من جزيرة كورسيكا ، توقفا فى مدينة مارسيليا . وذات صباح عاد فلوبير إلى الفندق بعد حمام فى البحر ، فصادف فى الردهة شابة حسناء ، جذبته فتنتها ، فباداها بالحديث . . وامتد بينهما حبل الكلام . علم منها انها تدعى «اولالى فوكو» ، وانها فى انتظار باخرة تقلها إلى حيث يقيم زوجها ، الموظف فى اقليم (غيانا الفرنسية) .

وقضى فلوبير و « اولالى » تلك الليلة معا ! . . وكانت

ليلة وصفها هو بأنها انطوت على « تلك العاطفة الملتهبة التى تشبه فى جمالها غروب الشمس فوق الجليد » ! .. ورغم أنه غادر مارسيليا على أثر ذلك ، ولم ير المرأة بعد ذلك قط ، فإن تلك المغامرة تركت فى نفسه أثرا عميقا بعيد الغور !

المرأة التى استعصت عليه .. فى باريس !

● ورحل الفتى إلى باريس ، ليدرس القانون .. لكنه لم يلبث أن ضاق بحياته فى الجامعة ، وضاق بكتب القانون ، بل ضاق بباريس ذاتها ! .. كان يحتقر زملاءه من الطلاب ، لتفاهتهم ، وتكلفهم ، وأذواقهم السوقية ! .. وفى تلك الأيام كتب قصة متوسطة الطول سماها « نوفمبر » ، ووصف فيها مغامرته مع « أولالى فوكو » .. لكنه منحها بعض سمات محبوبته السابقة « اليزا شليسنجر » : الرقبة الجميلة ، والشفة العليا ، والحاجبين المقوسين العاليين ..

وكان قد اتصل بأسرة « شليسنجر » من جديد ، إذ زار الزوج فى مقر عمله ، فدعاه هذا إلى تناول الطعام معه ومع زوجته ! .. وكانت « اليزا » كالعهد بها فاتنة . إنه حين رآها فى المرة الأخيرة السابقة كان يافعا ، ما يزال يترنح على عتبة الرجولة .. أما الآن فقد غدا رجلا ، ملتهب العاطفة والشوق ، وسيم الطلعة ، رشيق القوام .

وسرعان ما اتصلت بينه وبين الزوجين الأسباب ، مرة أخرى ، فعاد إلى سابق ألفته معهما ، واختلاطه بهما ، ومصاحبته إياهما فى النزهات والرحلات ووجبات الطعام .. لكنه لم يكن قد تخلص بعد من خجله القديم ، فظل زمنا لا يجرؤ على مفاتحة « اليزا » بحبه .. وحين جرؤ آخر الأمر ، أدهشه

أنها لم تغضب ، وإن كانت أفهمته بوضوح أنها ليست على استعداد لأن تغدو بالنسبة له أكثر من «صديقة» ! .. وكانت للمرأة قصة عجيبة شاذة : فحين تعرف فلوبير إليها لأول مرة — فى عام ١٨٣٦ — ظن ، كما كان الجميع يعتقدون ، أنها زوجة « موريس شليسنجر » .. لكنها لم تكن كذلك فى الواقع، فقد كانت متزوجة من رجل يدعى « أميل جوديا » . وكان زوجها هذا قد تورط ، بسبب افتقاره إلى الأمانة ، فى متاعب ومشكلات خطيرة .. وإذ ذاك تقدم إليه « شليسنجر » معربا عن استعداده لامداده بالمال الكافى لانقاذه من المحاكمة ، فى نظير أن يغادر فرنسا من فوره ويترك زوجته ! وقبل الرجل الشرط ، فعاش شليسنجر واليزا منذ ذلك اليوم تحت سقف واحد — ولم يكن فى فرنسا طلاق يومئذ — إلى أن مات الزوج « جوديا » فى سنة ١٨٤٠ ، فتزوجا . لكن اليزا ظلت تكن لزوجها الأول المتوفى حبها الحقيقى . وقد يكون هذا السبب، مضافا إليه شعور بالولاء والعرفان بجميل الرجل الثانى الذى آواها وأنجبت منه طفلها الوحيد ، اعتبارين تضافرا ليجعلا المرأة تتردد فى الاستجابة لغزل الشاب فلوبير ورغباته!

لكن الفتى كان حارا فى عواطفه ، كما لعل المرأة شاقها غرامه الصبيانى .. فاستجابت أخيرا لالحاحه ووعدته بموافاته فى مسكنه ! وانتظرها فلوبير فى انفعال محموم ، لكنها لم تأت ! ويميل مؤرخو حياته إلى تصديق هذه الرواية ، استنادا إلى ما اشتموه من سياق كتابه المشهور « التربية العاطفية » .. وعلى أية حال ، فالذى يمكن الجزم به أن « اليزا » لم تصبح يوما خليلته !

الحادث الذى غير مجرى حياته !

● فى تلك الاثناء كان فلوبير قد هجر دراسته ، ليحترف الادب .. فنفض أبوه يده منه ، باعتباره فتى ميئوسا منه !.. وقابل جوستاف ذلك بالارتياح ، فلقد كان عنيدا ، أو على حد قوله : « أنا بربرى ، املك عناد البرابرة وصلابة رأيهم ».. والواقع انه كان يملك أيضا حب البرابرة للمغامرات : « اننى انحدر من سلالة قراصنة صقلية ، وسوف أصير قرصانا ، اهيم فى محيطات الروح ، واغوص فيها ، باحثا عن العبارة الذهبية الخلابة .. إننى اعتزم ان اكون كاتبا ، ليس غير ! ».

وترك فلوبير كتب القانون ، وحول وجهه شطر كتاب « دون كيشوت » ــ « توراة » الحماقة البشرية ، على حد تعبيره ! ــ وصار هذا الكتاب المنبع الاول لفلسفته ، والاساس الاول لمبادىء ايمانه .. « ان مشكلة البشر ليست انهم انذال ، بل حمقى اغبياء ! » .. وتحت تاثير هذه الفلسفة كتب فلوبير عددا من التمثيليات والروايات الطويلة التى تدور حول النواحى القاتمة من الحياة : مثل قصة رجل فقد نفسه ، ومأساة رجل مصاب بالصرع دفن حيا ، ومغامرات مخلوق أمه بشر وأبوه قرد ! .. إلى غير ذلك من القصص الخرافية التى ينقصها النضوج ، والتى كتبها لمجرد تسلية نفسه واصدقائه .

وكان اصدقاء فلوبير هؤلاء أكثر منه ميلا إلى فلسفة التشاؤم .. « كنا جماعة من الشبان غريبى الاطوار ، نعيش فى عالم غريب .. نتارجح فى طريق مالوف ، بين الجنون والموت .. بعضنا قتل نفسه ، وآخرون ماتوا فى فراشهم ..

وواحد خنق نفسه برباط رقبته .. وكثيرون ادمنوا الشراب كى يبددوا افكارهم المتسلطة عليهم ! » .

ثم وقع حادث ، فى سنة ١٨٤٤ ، قدر له ان يغير مجرى حياة فلوبير ، ويؤثر فى إنتاجه الادبى . فذات ليلة مشئومة كان عائدا بالعربة إلى روان بصحبة اخيه ، على اثر زيارتهما لمزرعة كانت تملكها أمهما . وكان اخوه ، الذى يكبره بتسعة اعوام ، قد خلف اباه فى مهنة الطب .. وفجاة ، وبغير مقدمات ، احس فلوبير بنفسه « يحمل بعيدا فى شبه إعصار من اللهب ، ثم يسقط كالحجر على أرض العربة ! » .. وحين افاق من اغمائه كان يسبح فى دمه ، فحمله اخوه إلى دار قريبة حيث تولى فصده . ثم نقل إلى (روان) حيث فصده أبوه مرة أخرى ، ومنعه من التدخين ومن شرب الخمر أو تناول اللحوم.

وظلت تلك النوبات تعاوده بعنف ، فترة من الزمن . وفى كل مرة كانت أعصابه المرهقة تظل اياما فى حالة توتر جنونى !.. واحاط الغموض الشديد بهذا المرض الغريب الذى حير الاطباء ، فقال بعضهم : إنه صرع ، وايد أصدقاء الشاب هذا التشخيص .. ورجح آخرون انه المرض المعروف باسم « صرع هستيرى » . وأيا كان التشخيص فقد كان العلاج واحدا لا يتغير ، إذ عاش فلوبير بعد ذلك سنوات يتعاطى جرعات كبيرة من « سلفات الكينين » ، كما ظل طيلة حياته بعد ذلك مثابرا على تناول « بروميد البوتاسيوم » .

وأغلب الظن ان تلك النوبة الأولى لم تكن مفاجئة لأسرة فلوبير ، إذ قيل إنه كان قد صارح « جى دى موباسان » ــ الروائى الكبير الذى تتلمذ عليه فيما بعد ــ بانه اصيب بأول

نوبة من التهوس عندما كان فى الثانية عشرة .. كما قيل إن ذلك كان سر ارساله بصحبة طبيب فى رحلته إلى كورسيكا بعد ذلك التاريخ بتسع سنوات .. ثم أن تغيير الجو والمناظر كان جزءا من العلاج الذى وضعه له ابوه الطبيب ، ولولا ذلك لما فكرت الأسرة فى ارساله إلى تلك الرحلة الباهظة النفقات ، فانها رغم ثرائها كانت من الاسرات ذات العقلية الريفية ، البليدة ، التى تميل إلى الاقتصاد .

وقد تكون نوبات ذلك الصرع الغامض من بين بواعث التشاؤم القاتم الذى لازم فلوبير منذ صباه ، والذى لابد قد احدث تأثيره فى جهازه العصبى حتى من قبل ان تظهر اعراضه فى صورة تلك النوبات . اما بعد ظهور هذه النوبات فقد صار المسكين يواجه حالة مفزعة تنتابه فى اى وقت ، دون مقدمات ، فأحس بضرورة تغيير اسلوب حياته تغييرا يتفق مع هذه الظروف . وكان فى مقدمة نتائج هذا الإدراك انه عقد العزم على الا يتزوج قط ! .. بل قد يكون مرضه من الأسباب التى اغرته على هجر دراسة القانون !

راهب الفكر فى صومعته ..

● وفى العام التالى — ١٨٤٥ — مات ابوه .. ثم تبعته بعد شهرين أو ثلاثة اخته الوحيدة « كارولين » التى كان يكن لها حبا مفرطا ، والتى كانت رفيقة صباه الأثيرة ، وصديقته الملازمة إلى ما قبل زواجها . وقد ماتت على اثر وضع طفلة لها . وكان الدكتور فلوبير — الاب — قد ابتاع قبل وفاته ضيعة على ضفة السين يطلق عليها (كرواسيه) ، يتوسطها منزل

حجرى جميل يرجع عهده إلى ما قبل مائتى سنة ، وبه شرفة وجناح صغير يطلان على النهر .. فكان ان استقرت ارملته بابنها « جوستاف » وحفيدتها اليتيمة فى تلك الدار .

اما الابن الاكبر « اشيل » فكان قد تزوج وخلف اباه فى عمله بمستشفى روان .

وقدر لضيعة (كرواسيه) ان تظل المقر الدائم لفلوبير حتى نهاية حياته . وكان مرضه الذى اعجزه عن ان يحيا حياة طبيعية ، احد العوامل التى قوت من عزمه على اختيار الأدب حرفة له ، فالأدب انسب مهنة لمن ينشد العزلة ويعزف عن ارتياد المجتمعات .. وقد اختار الشاب لنفسه غرفة متسعة بالطابق الأرضى ، تطل نوافذها على الحديقة والنهر . واتخذ لنفسه نظاما وعادات صارمة : كان ينهض من فراشه فى نحو العاشرة صباحا ، فيطالع البريد والصحف ، ثم يتناول غداء خفيفا فى الحادية عشرة ، ويقضى الساعتين التاليتين متكاسلا فى الشرفة ، أو جالسا فى جناحه يقرأ .. حتى إذا كانت الساعة الواحدة اكب على الكتابة حتى السابعة ، وعندئذ كان يتناول عشاءه ثم يخرج ليقوم بجولة فى الحديقة ، يعود بعدها كى يستأنف الكتابة إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولم يكن فى عزلته تلك يرى او يقابل احدا ، عدا بضعة الأصدقاء القلائل الذين كان يدعوهم بين حين وآخر كى يقضوا اياما فى ضيافته ، ليتناقش وإياهم فيما يكتب . وكانوا ثلاثة ، من اكثر اصدقائه محافظة على التقاليد ، واكرمهم عونا له على مواجهة نوبات تشاؤمه النفسية ، ونوبات صرعه المرضية ..

بحيث يمكن القول أن فلوبير عاش مدينا لهم باحتفاظه بتوازنه — العقلى والنفسى — بين الهاويتين المروعتين اللتين كانتا تهددانه ، وتفغرا فوهتيهما عن يمينه ويساره : هاويتى الجنون ؛ والانتحار ! .. إذ بينما كان هو يهتم اهتماما مريضا بالأدب و « الموت » كانوا هم يبدون اهتماما سليما بالأدب والحياة !

وهؤلاء الأصدقاء الثلاثة كانوا : « لويس بوييه » ، و « ألفريد بواتفان » و « مكسيم دوكامب » .. وكانوا ثلاثتهم شغوفين بالأدب : كان أولهم يكسب عيشه الضئيل من اعطاء دروس فى اللاتينية والفرنسية فى روان .. أما الثانى « لو بواتفان » فكان ابن رجل ناجح من رجال الأعمال ، تدل الدلائل على أنه سيغدو بدوره ناجحا مثل أبيه . وكان يكبر فلوبير فى السن ، وتربطه بالأسرة صلة صداقة وثيقة ، (وقد كانت شقيقته هى أم القاص الفذ « جى دى موباسان » ؛ .. أما ثالث الأصدقاء « دوكامب » فكان محرر « صحيفة باريس »، وكان قد تعرف به وهو يدرس القانون فى العاصمة ، فلم يلبث أن جعل نفسه بمثابة المرشد الناصح لفلوبير ، ليس فقط فى عالم الخيال بل وفى دنيا الواقع ومسالك الحياة أيضا .. وقد أفلح فى اخراج « تلميذه » من صومعته وعزلته ، واغراه على أن يعاشر الناس ، وفى سنة ١٨٤٩ أخذه معه فى رحلة إلى الشرق ، كما سنرى .

وكان فلوبير بطبعه عاطفيا شديد التعلق والإخلاص لأصدقائه ، لكنه من الناحية الأخرى كان ذا نزعة إلى « امتلاكهم » والسيطرة عليهم ، ومطالبتهم بأكثر مما تحتمل

الصداقات ، (فحين تزوج ثانيهم مثلا ، وكان ذا تأثير كبير على فلوبير ، انتابه هذا حنق شديد ، عبر عنه فيما بعد بقوله : « كان الأمر يعنى بالنسبة لى مثل ما يعنيه بالنسبة لمؤمن متدين سماعه بنبأ فضيحة شائنة تلوث سمعة الأسقف الذى يحترمه ! ») .

الشاعرة التى عشقته !

● وكان فلوبير ، حين ماتت شقيقته « كارولين » ، قد أخذ قالبا لوجهها ويديها .. وبعد شهور — فى يونية سنة ١٨٤٦ — ذهب إلى باريس ، فمضى إلى المثال المشهور « براديه » ليكلفه بصنع تمثال نصفى لها . وهناك التقى بشاعرة تدعى « لويز كوليه » ، كانت قد ظفرت بمكانة مرموقة فى الأوساط الأدبية بفضل جمالها ، أكثر من موهبتها الأدبية .. فلقد كانت لها موهبة ضئيلة فى الشعر ، وموهبة عظيمة فى السحر ! فظلت أضواء باريس وعبقرياتها الأدبية مغضية عن جمال شعرها ، لكنها لم تستطع الاغضاء عن شعر جمالها ! .. ومن طريف النوادر المأثورة عنها أن الشاعر الكبير فيكتور هيجو أبدى ذات يوم أمامها أسفه وحزنه على بتر ذراع تمثال «فينوس دى ميلو » الموجود فى متحف اللوفر، فقالت له : إن الذراعين المبتورين قد ردتا إلى التمثال الخالد ! .. والتفت إليها فيكتور هيجو متسائلا فى دهشة : « حقا .. اين هما ! » .. فأجابت لويز كوليه : « داخل كمى ! » .

وكان لها «صالون» أدبى يؤمه عدد كبير من الشخصيات البارزة فى مجتمع ذلك العصر ، وقد أطلقوا عليه اسم muse

(نسبة إلى الربات التسع للفنون من بنات « جوبيتر » ، فيما تقول أساطير القدماء) . وكان زوج «لويز» أستاذا للموسيقى يدعى « هيبوليت كوليه » ، وعشيقها ووالد طفلها هو الفيلسوف والسياسى « فيكتور كوزان » . وكانت هى وقتئذ فى الثامنة والثلاثين — وان زعمت انها فى الثلاثين ! — وفلوبير فى الخامسة والعشرين .. فلم تمض على لقائهما ٤٨ ساعة حتى صار عشيقها .. وبعد ثلاثة ايام تركها تذرف دموعها وعاد إلى داره فى (كرواسيه) ! وفى الليلة ذاتها كتب إليها الرسالة الاولى من سلسلة رسائل حبه التى لعل عاشقا لم يكتب أغرب منها إلى عشيقته ! .. فلقد طلبت إليه أن ينتقل ليعيش بالقرب منها فى باريس ، فاعتذر بانه لا يستطيع ترك امه المكلومة الفؤاد بتاثير حزنها على زوجها وابنتها . وعندئذ سألته ان يكثر على الاقل من التردد على العاصمة لرؤيتها ، فاجاب بانه لا يستطيع ذلك إلا إذا كانت لديه أسباب قوية تبرر السفر .. وعند هذا كتبت إليه غاضبة : « هل تعنى انك موضوع تحت المراقبة ، كالفتيات ؟ » .

الغيرة تحتدم ، بين الخليلة .. والأم !

● وقد كثرت الروايات عن شدة تعلق أم فلوبير به ، وقيل إنها صرحت مرة لإحدى صديقاتها بقولها : « لن أدع امرأة أخرى تشاركنى فيه ، حتى لو كانت ملاكا من السماء ! » وإذا صحت هذه الرواية ، فلعل من سخرية القدر ان تلك المرأة قد شاركتها فى ابنها — فى الخفاء ، كما سترى — سنوات عديدة !

على ان المؤرخين المدققين ينصفون الام من هذه التهمة ، فالواقع أن نوبات الصرع التى كانت تنتاب فلوبير كانت تخلفه فريسة للضعف والاعياء والانقباض ، لعدة أيام ، فكان طبيعيا ان تحوطه امه بسياج من الرعاية والقلق ، وتخشى عليه من أن يسافر بمفرده ، أو يسبح فى النهر ، أو يستقل زورقا بغير مرافق يسهر على سلامته .. فكتب إلى لويز يجيبها على لومها وسخريتها بأن أمه لا تمانع فى سفره كلما أراد ، لكنه يشفق عليها من الانزعاج الموجع الذى كانت تعانيه فى تلك الظروف . على ان مسلكه ذاك كانت له أيضا تعليلات أخرى إلى جانب العذر السابق إيضاحه : من ذلك ان حدة خياله كانت تجعله يشعر نحو لويز بمزيد من الحب وهو بعيد عنها ، اكثر منه وهو معها ! .. كما ان المسكنات القوية التى كان يتعاطاها للوقاية من نوبات الصرع ، كانت تضعف من إلحاح غريزته الجنسية بصورة ملحوظة !

وكتبت إليه لويز معاتبة : « ان حبك ليس حبا ! .. ولا يحتل فى حياتك مكانا عزيزا » .. فاجابها : « أو تريدين ان تعرفى إذا كنت احبك ؟ نعم ، احبك بقدر ما أستطيع ان احب .. فالحب عندى ليس فى المكان الأول من الحياة ، وإنما فى المكان الثانى ! » .. وقد كان فلوبير يغبط نفسه على صراحته ، لكن هذه الصراحة كانت قاسية فى الواقع . وكان افتقاره إلى اللباقة عجيبا ، من ذلك انه فى إحدى المناسبات طلب إلى لويز ان تستفسر من صديقة لها كانت تعيش فى نفس البلدة التى تقطنها « أولالى فوكو » ، عن مصير هذه المرأة التى كانت بطلة مغامرته القديمة فى مارسيليا .. بل انه سأل

لويز ان تحمل رسالة موجهة إلى « أولالى » لتوصيلها إليها ، ودهش حين ابدت استياءها من هذه المهمة ، رغم انها قبلت القيام بها !

بل انه ذهب فى الصراحة إلى ابعد من هذا الحد ، فقص على لويزو قصص مغامراته مع العاهرات ، متباهيا بكفاءته الجنسية فى إشباع رغباتهن . وكان يعاملها هى بترفع ظاهر ، ويضن عليها باللقاء الطويل ! من ذلك انه استجاب يوما لالحاحها فواعدها على اللقاء فى احد فنادق (نانت) ، على ان تغادر هى باريس ويغادر هو (روان) فى الصباح الباكر ، فيلتقيا فى الفندق ليقضيا سويعات العصر معا ، ثم يعود فى الليلة ذاتها إلى داره ! .. وادهشه ان اثار الاقتراح حنقها وسخطها . وعلى هذا النمط لم يزد عدد المرات التى التقيا فيها خلال العامين اللذين استمرت فيهما علاقتهما عن ست مرات ! .. واخيرا كانت هى التى بدات بالقطيعة فهجرته !

قصته الفاشلة .. ورحلته إلى مصر

● فى تلك الأثناء كان فلوبير منهمكا فى كتابة كتاب له كان قد اختمر طويلا فى راسه ، هو « غواية القديس انطوان » . وكان مقررا ان يسافر فى رحلته إلى الشرق الأدنى بصحبة صديقه « مكسيم دو كامب » بمجرد فراغه من ذلك الكتاب . وكانت أمه قد وافقت على فكرة الرحلة بعد استشارة ابنها الاكبر ، الطبيب ، وزميله الطبيب الآخر الذى رافق فلوبير فى رحلته إلى كورسيكا قبل سنوات ، إذ رجح كلاهما ان تفيد صحة الشاب تلك الرحلة المزمعة إلى بلاد الشرق الادنى

الدائبة .. فلما انتهى فلوبير من الكتاب ارسل يستدعى صديقيه « دو كامب » و « بوييه » إلى (كرواسيه) كى يتلوه عليهما .. واستغرقت التلاوة اربعة أيام ، كان يقرا لهما خلالها طيلة اربع ساعات ، بعد الظهر ، واربع أخرى فى المساء ! .. وفى منتصف ليل اليوم الرابع فرغ المؤلف من التلاوة ، فدق المنضدة بقبضته وقال يسال صديقيه : «والآن ، ما رايكما؟!» . فاجابه أحدهما : « راينا انك ينبغى ان تلقى بالكتاب إلى النار ، ولا تعود تتحدث فى شانه إلى احد ! » .

وكانت ضربة قاصمة ! .. فاحتدم الجدل والمناقشة بين الأصدقاء الثلاثة طوال الليل ، وفى النهاية رضخ فلوبير للحكم المفجع . وعندئذ اقترح عليه « بوييه » ان يحذو حذو « بلزاك » فيكتب قصة من الأدب الواقعى . وكانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحا ، فاوي الثلاثة إلى مضاجعهم .. وحين استيقظوا خلال النهار استأنفوا النقاش ، ويقول « دوكامب » فى كتابه « ذكريات ادبية » إن زميله « بوييه » اقترح على فلوبير فى تلك الجلسة فكرة القصة التى قدر لها ان تعرف بعد ذلك فى العالم باسم « مدام بوفارى » .. ولكن اغلب الظن ان « دوكامب » كان مخطئا فى هذا القول ، فان رسائل فلوبير التى كتبها إلى اهله واصدقائه فى الفترة التالية — خلال رحلته إلى الشرق — تضمنت الاشارة إلى كثير من افكار القصص التى كان يديرها فى ذهنه وقتئذ ، ولم تكن بينها فكرة « مدام بوفارى » !

وقد كانت رحلة فلوبير إلى الشرق بصحبة صديقه « دوكامب » — التى استغرقت اكثر من عام — من المراحل

الشائقة فى حياته . . « لن أنسى يوما الألوان التى رأيتها والأصداء التى سمعتها فى مصر ، على ضفاف النيل ، وفى سوريا ، وفلسطين ، ومالطة ، والقسطنطينية ، واليونان . . ولقد لمست فى « الأهرام » سحرا خاصا ، فلم نكد نبلغ سفح التل الذى تنهض فوقه تلك الأهرام الهائلة حتى تركت جوادى يطوف بى حولها وأنا كالمذهول . . وحذا « دوكامب » حذوى . . فلقد دار رأسى حين رأيت ذلك المجد الشامخ ، وبدت لى الأهرام الثلاثة ساعة الغروب وردية اللون ، غارقة كلها فى الضياء . . » .

المأساة الواقعية التى كانت نواة « مدام بوفارى »

● ثم عاد الصديقان إلى وطنهما ، فى سنة ١٨٥١ ، ولم يكن فلوبير قد استقر بعد على فكرة القصة التالية التى سيشرع فى كتابتها . وفى الفترة « التالية » — وليس قبل ذلك — يغلب أن يكون صديقه « بوييه » قد روى له مأساة الطبيب « يوجين ديلامار » ، التى كانت نواة عمله الأدبى التالى ، الضخم : « مدام بوفارى » : كان « ديلامار » طبيبا نوبتجيا بمستشفى (روان) ، متزوجا من أرملة تكبره فى السن . . فلما ماتت ، تزوج من ابنة حسناء لأحد المزارعين فى قرية قريبة ، وانتقل ليمارس مهنته فى تلك القرية . . لكن الزوجة الشابة كانت ذات طموح ، ونزوات ، فقد ألفت منذ صباها أن تعيش فى الخيال ، « وراء الأفق » ، واعتنقت فكرة أن « ثمار الحقل المجاور أشهى مذاقا من ثمار الحقل الذى تملكه ! » . . فلم تكد تطرح بهجة الزواج الأولى وراء ظهرها حتى ضاقت بحياتها الراكدة ، المحدودة الأفق ، فى كنف زوجها

« الغبى » وازداد بمرور الأيام نفورها من حياة الريف ، وخوار أبقار المزرعة ، ورائحة حظائر الماشية . . فتطلعت إلى « فارس الأحلام » الذى ينقلها من تلك البيئة الكريهة إلى عالمها الخيالى المرموق ، ومن ثم ألقت بنفسها فى أحضان أول عاشق لاح فى أفق حياتها . . لكنه هجرها ، فارتمت بين ذراعى آخر ! . . وظلت تتلقفها أحضان الرجال ، وتتقاذفها رغباتهم العابرة ، ثم ينبذونها ، فتهوى من مذلة إلى مذلة ، ومن ضعة إلى ضعة . . وهى أثناء ذلك كله تبدد أموال زوجها ، وتقترض ، ويطاردها الدائنون ! . . حتى تمسى حياتها خليطا بشعا من اليأس ، والاضطراب ، والجزع ! ولا تخلصها من عذابها غير النهاية المفجعة التى اختارتها الأقدار لها ، ولزوجها !

تلك كانت الخيوط الواقعية الأولى التى سنرى كيف نسج منها « فلوبير » قصته الخالدة « مدام بوفارى » .

المرأة الوحيدة التى أحبته !

● على أثر عودة فلوبير إلى فرنسا ، التقى ، « لويز كوليه » مرة أخرى وكانت أحوالها قد ساءت أثناء غيابه ، فمات زوجها ، وكف عاشقها و « ممولها » فيكتور كوزان عن الإنفاق عليها . . كما لم تجد مخرجا يقبل منها مسرحية كانت قد ألفتها ! . . فلما علمت بعودة فلوبير كتبت إليه تنبئه بأنها سوف تمر بمدينة (روان) فى طريق عودتها من سياحة لها بانجلترا .

والتقيا ، وتجدد تراسلهما . وبعد فترة ذهب فلوبير إلى باريس لأمر ما ، فاتخذها خليلة له مرة أخرى ، رغم أنها كانت

قد جاوزت الاربعين، ورغم ان تقاليد العصر كانت تابى على المراة التى تحترم نفسـها ان تتزين بالمساحيق التى تعين على إخفاء بصمات الزمن على وجهها ! .. ولعل فلوبير قد تاثر بشـعورها نحوه ، فقد كانت المراة الوحيدة التى احبته ! .. ثم لعل عدم وثوقه من نفسـه فيما يتصل بالناحية الجنسية ، قد جعله يحس وهو معها – فى المرات القليلة التى اتصل بها فيها اتصالا جنسـيا – بانه بمنجـاة من انفعـالات القلق والانزعاج ، بهذا الصدد .

وإذا كانت جميع رسائل لويز إليه قد فقدت ، فان رسـائله هو إليها باقية . ومن هذه الرسـائل يبدو جليا انها لم تتعظ بعبر الماضى، بل ظلت كالعهد بها لحوحة، مستبدة «متعبة»!.. فقد استمرت تلح عليه كى ينتقل إلى باريس ، أو يدعها تاتى لتقيم معه فى (كرواسيه) ! .. لكنه استمر يتعلل بالمعاذير كى يمتنع عن الامر الاول ، ويمنعها من الثانى ! .. وكانت خطاباته تكاد تقتصر على التعليقات الادبية، وإن انتهت ببعض العبارات العاطفية « المتكلفة » ! .. وكان الموضوع الادبى الرئيسى الذى يخصه باهتمامه هو تقدمه « البطىء » فى كتابة قصـته الطويلة التى كان مستغرقا فيها يومئذ : « مدام بوفارى » .. وبين الحين والآخر كانت ترسل إليه قصيدة شعرية كتبتها ، فكان ينقدها فى رده نقدا لاذعا بحيث كان لا بد من أن تنتهى العلاقة بينهما إلى قطيعة محتومة !

وقد عجلت لويز بهذه القطيعة ، بتصرفاتها الطائشة : فلقد عرض عليها « فيكتور كوزان » – عاشقها القديم ووالد ابنتها – ان يتزوج منها ، من اجل تلك الابنة .. لكنها رفضته،

وافهمت فلوبير انها إنما فعلت ذلك بسببه ! .. والواقع انهـا كانت قد عقدت العزم على الزواج من فلوبير ، وصرحت لبعض اصدقائها بذلك ، فى تهور طائش .. فلما بلغه الامر ، اذهله – وهـو الذى كان خالى الذهن ، منصرف النيـة عن كل ما يتصل بالزواج – فابدى لها استياءه الشديد من سـقطة لسانها ، ثم تكررت بينهما المشاهد العنيفة الصاخبة ، التى شعر خلالها بمزيج من الفزع والمذلة .. حتى انتهى به الامر إلى مصارحتها بالقطيعة بصفة نهائية !

لكنها لم ترتدع ، بل ذهبت إليه يوما فى كرواسيه لتثير مشهدا جديدا ، فطردها فى خشونة قاسـية ، احنقت امـه ذاتها ! .. واخيرا ، ورغم المأثور عن بنات جنسها من الاصرار العنيد على عدم تصديق ما لا يروقهن ، فقد وجدت التعسة نفسها تواجه فى النهاية الحقيقة المريرة : القطيعة !

وكان الانتقام الوحيد الذى وجدته فى متناولها ، أن كتبت قصة طويلة – فاشلة – صورت فلوبير فيها فى صورة الحبيب الغادر .. الشرير !

الصداقة التى ذهبت .. مع الريح !

● فى تلك الأثناء كان صديق فلوبير المدعو : « دوكامب » قد استقر فى باريس منذ عودته من رحلتهما إلى الشرق ، ولم يلبث ان ابتاع اسـهما فى « مجلة باريس » الادبية – « ريفـو دى بارى » – وصار واحدا من مديرى تحريرها ، فراح يلح على كل من فلوبير و « بوييه » كى يوافياه بانتاجهما الادبى . وكان يعتقد أن الأول يرتكب خطأ جسيما « بدفن نفسـه » فى صومعته بـ (كرواسيه) ، وفى إحدى زياراته العديدة له

راح يستحثه على الانتقال إلى باريس ، حيث يستطيع ان يندمج فى محيط الحياة الذهنية بالعاصمة ويتبادل الآراء مع زملائه الكتاب ، فيوسع بذلك افقه الادبى .. فالكاتب ينبغى ان يعيش فى وسط « مادته الاولية » ولا ينتظر التجارب حتى تأتى إليه ، بل يذهب هو إليها ، ويمضى يبحث وينقب عنها . وقد كان فلوبير يعيش حياة « ضيقة الأفق » ، محدودة التجارب ، فهو لم يعرف عن الحياة غير النذر اليسير .. ولم يخبر من النساء ــ خبرة متعمقة ــ سوى امه ، و « اليزا شليسنجر » ــ المراة الوحيدة التى احبها ــ ثم « لويز كوليه » ، المراة الوحيدة التى احبته هى ! .. وفيما عدا ذلك كان فلوبير يعيش منطويا على نفسه ، داخل قوقعة عبقريته ، فى شبه عزلة تامة عن الناس والمجتمع ، الأمر الذى دفع صديقه « دوكامب » إلى مصارحته ذات يوم ـ فى خطاب كتبه إليه من باريس ـ بانه إذا واصل حياته المحدودة على ذلك المنوال ، فسوف تنتهى به الحال إلى ان يفقد عقله !

واثارت النصيحة ثائرة فلوبير ، الذى اعتبرها اهانة وتحديا له ، والذى كان بطبعه ضيق الصدر لا يطيق الانتقاد او المعارضة .. وزاد الطين بلة ان الملاحظة لمست من نفسه وترا حساسا ، إذ كانت نوبات الصرع التى تنتابه تهدده على الدوام بهذا المصير ــ حتى لقد صارح « لويز كوليه » فى إحدى رسائله إليها بانه فى خلال اربع سنوات سوف يصاب بالبلاهة ! ــ ومن هنا اجاب على خطاب « دوكامب » برسالة تفيض بالحنق والغضب ، قال فيها : إنه إنما يعيش الحياة التى تلائمه ، وانه يحتقر «الخيول العجفاء» التى يتالف منها المجتمع

الادبى فى باريس ! .. إلى آخر ما تضمنته تلك الرسالة من العبارات السليطة اللاذعة ، التى كانت بداية الجفاء بين الصديقين ، بل القطيعة .. وكانت آخر عبارة وجهها فلوبير إلى دوكامب فى نهاية مراسلاتهما : « اننا لم نعد نسير فى الطريق ذاتها ، انت وانا .. لم نعد نبحر على ظهر سفينة واحدة .. فليهد الله كلينا سواء السبيل ، إلى حيث يريد ان يذهب : انت إلى مرفا امين ، وانا إلى عرض البحر ! » .

وهكذا هجر فلوبير صديقه ، بعد عشيقته ، ونشر الشراع متجها نحو البحر العريض .. نحو المستقبل الأدبى الذى لا يعرف انصاف النتائج : فهو يفضى إما إلى نجاح كامل ، وإما إلى فشل ذريع !

وانقضت ثلاث او اربع سنوات ، لم يكن فلوبير يورد فيها اسم دوكامب على لسانه إلا بلهجة الاحتقار البالغ ، والغض من شانه ومن موهبته الأدبية .. ورغم ان «الصديقين» عادا فاستانفا شيئا من صلتهما بعد اعوام ، فان الود لم يرجع بينهما سيرته الاولى ! .. وإن كان ذلك لم يمنع دوكامب ، حين فرغ فلوبير من كتابة « مدام بوفارى » ، من أن يعرض عليه نشرها مسلسلة فى مجلته « ريفو دى بارى » ــ كما لم يمنع الجفاء السابق فلوبير من ان يقبل العرض .

يكتب « مدام بوفارى » فى ٥٥ شهرا !

● وظل « لويس بوييه » الصديق الحميم الأوحد لفلوبير ، وكان هذا يعتبره شاعرا عظيما ــ وقد اثبتت الأيام خطاه ! ــ كما كان يثق بحكمه وصواب آرائه الادبية . ولا شك ان فلوبير

يدين لـ « بوييه » بالفعل بفضل لا ينسى ، فلولاه لما كتب
« مدام بوفارى » فى أغلب الظن — أو فى القليل لما جاءت بهذه
الروعة — فلقد كان هو الذى اوحى لفلوبير بفكرتها كما
اشرت .. وهو الذى راح يلح عليه ويحثه ، حتى اقنعه بعد
مناقشات طويلة بان يكتب ملخصا قصيرا لها . فلما اطلع عليه
اعجبه ، فشجع فلوبير على ان يلقى بنفسه فى « المعمعة »!..
وكان هذا فى الثلاثين من عمره حين بدا قصته الخالدة : عام
١٨٥١ .

اقول حين « بداها » ، لان كتابة القصة استغرقت،
مرحلة كاملة من حياته .. خمس سنوات ! .. او إن شئت
الدقة خمسة وخمسين شهرا ! .. فلقد كان فلوبير مثالا للفنان
« المجود » ، الذى يصقل ويعيد صقل عباراته ، بلا ملل ، حتى
ليقضى احيانا يوما كاملا فى الكتابة ، يخرج منه بمحصول لا يزيد
على سطرين ! .. سطرين يرضى عنهما ، فيبقى عليهما . كان
فى أسلوبه يحذو حذو أساتذة البيان من أسلافه ، وعلى الاخص
« لابروبير » و « مونتسكيو » . كان يؤمن بان النثر ينبغى ان
يكون مصقولا ، ناعما ، موسيقيا ، موزونا — كالشعر — وفى
الوقت نفسه منطقيا ، يلتزم المعانى فى دقة وامانة كاملتين .
كان من رايه ان ليس هناك طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد،
وإنما طريقة واحدة ، فان اللفظ ينبغى ان يطابق المعنى مثلما
يطابق القفاز اليد ! .. كما ان مجموعة الالفاظ التى تتالف منها
الفقرة الواحدة او الصفحة من الكتاب ينبغى ان تكون وحدة
موسيقية بالغة حد الكمال ! .. لم تكن الكلمة فى نظره مجرد
رسول ينقل الفكرة إلى القارىء ، وإنما كانت « كيانا حيا » له

صوت ، ورائحة ، وشخصية ، وروح ! .. وكان يحرص جهد
طاقته على أن لا يستعمل الكلمة الواحدة مرتين فى الصفحة
الواحدة : « فانه من الخطا ان يتحدى الكاتب « اذن » قراءه،
كما ان من الخطا أن يتحدى قلبهم ! » .. أو على حد تعبيره
فى مناسبة اخرى : « عندما اجد تكرارا فى إحدى عباراتى ،
اشعر انى قد وقعت فى شرك ، وارتكبت زيفا ! » .. وفى
سبيل تجنب لفظ مكرر ، او الاهتداء إلى لفظ اقوى واجمل ، لم
يكن فلوبير يحجم عن مواصلة التفكير والبحث ، ولو اقتضاه
ذلك أن ينفق فيه اسبوعا كاملا ! ..

(ولعل « اوسكار وايلد » لم يكن مغاليا إذن حين وصف
نفسه ، ومبلغ تأنقه فى الكتابة، فقال: إنه توقف مرة عند عبارة
واحدة يوما كاملا ، يتردد بين وضع علامة «شولة» فى وسطها
او حذفها ، فوضعها فى بداية النهار ، ورفعها فى نهاية الليل!) .

وكان فلوبير يستخدم كل براعته فى « التاليف » بين
الكلمات والعبارات ، كى يوحى بما كان يستشعره احد ابطال
القصة مثلا من حالة نفسية : من لهفة او تراخ ، من تعب او
راحة ، من انفعال او بلادة .. الخ .. بل إن براعته تبلغ
الذروة حين يصف الملل او الضجر الذى كانت تعانى منه
« مدام بوفارى » بطلة القصة ، فى عشرات الصفحات ، دون
ان يجعل الملل يتطرق إليك وانت تقرا وصفه التفصيلى له !..
فهو يسرد سلسلة طويلة من الوقائع التافهة الضئيلة القيمة،
لما تفعله « ايما بوفارى » ، وتشعر به ، أو تراه ، او تفكر
فيه .. حتى يبلغ من فرط تفاهة هذه السفاسف المتوالية انك

تحس إحساسا صادقا عارما بمبلغ الضجر الذى كانت المراة تعانيه !

وقد كانت طريقة فلوبير فى الكتابة أن يكتب مسودة لكل ما يعن له من افكار بصدد الموقف الذى يصوره ، ثم يعود فيحذف ويؤخر أو يقدم فى العبارات ، او يعيد كتابتها ، حتى يحصل على النتيجة التى ينشدها . . وعندئذ يخرج إلى الشرفة فيروح يتلو ما كتب بصوت مسموع ، فاذا وجد فيه شيئا من « النشاز » عاد إلى مكتبه فانكب عليه ينقحه ويهذبه .

وكان صديقه « بوييه » يحضر إلى (كرواسيه) فى بعض ايام الآحاد ، فيقرا عليه فلوبير ما كتبه خلال الأسبوع ، ويأخذ هذا فى انتقاده ، فيثور الكاتب ويجادل ، لكن الناقد يصمد له ، حتى يقنعه باجراء شيء من التعديل فى سياق الحوادث ، أو حذف او اضافة بعض التوافه والتفصيلات . . ومن ثم لم يكن عجيبا أن تستغرق كتابة احد الفصول — وهو الفصل الأخير من هذا الجزء الذى بين يديك — شهرين كاملين ، مع أن صفحاته لا تزيد على العشرين ! . . بل لقد كتب فلوبير فى إحدى رسائله يقول : « انقضى يوما الاثنين والثلاثاء باكملهما فى كتابة سطرين اثنين ! » . وهذا لا يعنى انه لم يكتب سوى ذينك السطرين ، فقد يكون كتب عشر صفحات ، ثم مزقها فلم يبق على غير السطرين اللذين رضى عنهما ! . . وبفضل هذا المجهود الشاق ، وذلك النقد الصارم من جانب « بوييه » ، و — قبل ذلك — بفضل حدة ملاحظة فلوبير لأتفه التوافه التى تمر تحت سمعه وبصره ، خرج على العالم فى نهاية الخمسة

والخمسين شهرا بهذه التحفة الخالدة التى رفعته إلى الصف الأول من ادباء العالم فى جميع العصور !

بل ان هذه الدقة الهائلة ، والصبر العجيب ، والخيال القدير على تصور — وتصوير — اضأل التفصيلات والتوافه ، هى سر طابع الصدق و « الواقعية » الذى تتسم به القصة ، والذى يجعلنا لا نكاد نلتقى باشخاصها حتى نحس انهم «احياء» يعيشون فى عالمنا ، ونشاركهم مشاعرهم . . بل ونتعرف فيهم على بعض من نعرف فى مجتمعاتنا ، حتى لننسى بل نكذب انهم ابطال وهميون فى قصة مؤلفة ! . . وإذا كنت تذكر من شخصيات « ديكنز » شخصية « مستر ميكاوبر » الفكهة مثلا ، فانك واجد هنا فى شخصية الصيدلى « هوميه » مخلوقا طريفا يفوق صداه فى نفوس الفرنسيين صدى الشخصية الأولى فى نفوس الإنجليز .

ابطال القصة جميعهم انذال !

● وقصة « مدام بوفارى » هى — مثل ملحمة « جيته » المشهورة « فاوست » — قصة حياة نفس خاطئة ، مع فارق هام : هو أن بطل قصة « جيته » تقوده غريزته فى النهاية إلى الطريق الصائب ، بينما بطلة قصة فلوبير تقودها غريزتها إلى الطريق الخاطىء ، رغم تخبط الأول فى حياته ، وتدبر الثانية لأمر مستقبلها . . وما ذلك الطريق الخاطىء غير طريق الضجر ، فالخطيئة ، فالهلاك ! . . والملاحظ ان جميع الشخصيات الرئيسية فى القصة تغلب عليهم الضعة ، والنذالة ، والغباء ، والسوقية ، والتفاهة . . وهنا يبدو الانعكاس المباشر لنفسية

فلوبير على القصة ، فان تشاؤمه التى تحدثنا عنه ، وحنقه على الذين يتصفون بتلك الصفات ، والمذلة التى عاش يستشعرها بسبب نوبات مرضه واعتلال مزاجه واعصابه .. كل ذلك جعل معين الرحمة والبر ينضب من نفسه ، فلما أكب على كتابة قصة هذه المراة الخاطئة ، فعل ذلك بقسوة الرجل الذى يخوض فى الوحل كى ينتقم لنفسه من الحياة التى لم تحقق تطلعه إلى المثل العليا !

محاكمة فلوبير .. وتبرئته

● وقد نشرت « مدام بوفارى » مسلسلة على صفحات « ريفو دى بارى » ، فى سنة ١٨٥٧ ، فاقبل عليها القراء بحماسة هائلة ، وحين طبعت فى كتاب لقيت من فورها رواجا لا مزيد عليه .. ولكن بقدر إعجاب الجماهير بها ، كانت حملة النقاد عليها ، فقد اتهموا مؤلفها بانه مريض « بالجذام الخلقى » ! .. ثم القت السلطات القبض عليه بتهمة « نشر ادب الدعارة على الناس » ! وبعد محاكمة صاخبة — كما سترى عند مطالعة محاضر جلسات المحاكمة ومرافعاتها فى ختام الجزء الثانى من الكتاب — اخلى سبيله وحكم ببراءته ، وإن شفعت المحكمة حكمها بكلمة لوم وتأنيب شفوية القاها عليه القاضى ! على ان الراى العام تكفل باقناع النقاد والسلطات بأن « مدام بوفارى » إنما هى صورة امينة للحياة .. وانها فى تصويرها الدقيق ، ومطابقتها للواقع ، ليست اكثر انحرافا عن مبادىء الاخلاق من الوصف الصادق لاية كارثة من الكوارث التى تصيب الناس !

وبقى فلوبير قابعا فى عقر داره ، كراهب فى صومعة ، غير آبه سواء بعواصف التصفيق او حملات التقريع ! .. وبين حين وآخر كان يطلع على الناس برواية جديدة تشغلهم وتسليهم — او على حد قوله : « أنا ساخر ، والسخرية هى الملح الذى يمكن الإنسانية من هضم تفاهة الحياة ! » — وهكذا كتب على التوالى : « سالامبو » (١٨٥٨ — ١٨٦٢) ، التى تجرى حوادثها فى (قرطاجنة) القديمة ، وقد سافر من أجلها خصيصا إلى تونس ، كى يدرس الجو الذى يمكنه من كتابتها .. لكنها جاءت قصة فاشلة . ثم اعقبتها « التربية العاطفية » (١٨٦٣ — ١٨٦٩) ، التى صور فيها حبه لاليزا شلبسنجر ، والتى يعتبرها الكثيرون من اروع آياته ..

انتقاله إلى باريس

● وتتابعت الأعوام ، وتزوجت ابنة اخته كارولين ، التى كانت تعيش مع امه ومعه فى البيت .. وفى سنة ١٨٧٢ ماتت امه ، فاتخذ له مسكنا فى باريس ، حيث قضى اكثر وقته خلال الأعوام التالية ، ولكن فى مثل العزلة التى التزمها فى (كرواسيه)، فيما عدا مرة او مرتين فى الشهر كان يلتقى فيهما مع بعض الأدباء ليتعشوا معا فى مطعم « مانييس » .. ونفر قليل من الاصدقاء كانوا يترددون عليه بين الفينة والفينة . ويصفه احدهم ، وهو « ادمون دى جونكور » احد صاحبى الجائزة الادبية المعروفة بهذا الاسم ، بانه ظل ريفيا فى عاداته حتى بعدانتقاله إلى باريس ، فكان يحرص حين يتعشى فى مطعم على الجلوس فى إحدى مقصورات المطعم الخاصة ، إذ لم يكن

يحتمل ان يسمع ضجيجا او يجلس بالقرب من غرباء . وكان لا يشعر بالارتياح أثناء الأكل إلا إذا خلع سترته وحذاءيه !

وفى تلك الأثناء أصيب زوج ابنة شقيقته كارولين بأزمة مالية هددته بالإفلاس ، فاضطر فلوبير كى ينقذه إلى التنازل له عن ثروته كلها ! فلم تبق له غير داره فى (كرواسيه) وغير إيراد ضئيل ، سيما وان المسرحية التى كتبها فى عام ١٨٧٢ واطلق عليها اسم « المرشح » ، منيت بالفشل عند تمثيلها فى العام التالى . . فكان من نتيجة هذه الظروف السيئة ان عاودته نوبات الصرع التى كانت قد انقطعت عنه خلال السنوات السابقة . . فصار « جى دى موباسان » — الذى تتلمذ عليه — يوصله إلى مسكنه كلما تمشى فى الخارج . ورغم ازدياد توتر اعصابه وسرعة غضبه ، فقد وصفه « جونكور » بانه كان شخصا مرحا له ضحكة الأطفال « المعدية » وودهم الجذاب ، ووصفه « دوكامب » بأنه كان — رغم عصبيته — « الطف ابن يمكن ان تحلم به امراة ! . . ويكفى أن تقرا رسائله الشائقة إلى ابنة اخته كى ترى اى معين من الرقة كان فى اعماقه ! » . . وهكذا ، لو علم جيرانه أن هذا الكاره للجنس البشرى ، الذى اطلقوا عليه انه « رجل نكد يبغض الناس » ، قد انفق اكثر امواله على اقارب له معوزين يعيشون فى مناطق نائية ، وانه عاش يهب إحسانه دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا . . لكان رايهم فيه غير ما قالوا وما اشاعوا !

يقرا ١٥٠٠ كتاب .. ليؤلف كتابا !

● وفى سنواته الاخيرة عاد فلوبير إلى عزلته الموحشة فى (كرواسيه) ، حيث صار يقضى أكثر العام ، فلا يذهب إلى

باريس إلا فيما ندر ، كى يثرثر مع جورج صاند او يتناول العشاء مع فيكتور هوجو . . وصار يفرط فى الطعام والشراب والتدخين ، وتضاءلت موارده المالية ، فحصل له اصدقاؤه على وظيفة بلا عمل ، تكفل له ٣ آلاف فرنك فى العام . ورغم أن فكرة قبض مرتب بغير عمل قد أذلته، فانه اضطر إلى قبولها — وان لم يمتد به الأجل فينتفع بها طويلا !

وكان آخر عمل أدبى أصدره فلوبير فى حياته ، (عام ١٨٧٧) ، كتابا باسم « ثلاث قصص » ، تضمن قصته القصيرة الممتازة « قلب بسيط » . . وفى تلك الأثناء كان يعد العدة لكتابة قصته الطويلة الأخيرة « بوفار وبيكوشيه » ، التى اعتزم أن يحمل فيها حملة جديدة على غباء الجنس البشرى . ولكى يزود نفسه بالمادة الأولية لكتابة القصة ، طالع — بدقته المعهودة — نحو ألف وخمسمائة كتاب (كذا !) . وكان يقدر أنه سيصدر القصة فى جزاين ، لكنه لم يكن قد فرغ إلا من كتابة الجزء الأول ، حين دخلت الخادم حجرة مكتبه ، فى الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم ٨ مايو سنة ١٨٨٠ ، كى تقدم إليه طعام الغداء . . فوجدته ملقى على الأريكة ، يتمتم بكلمات متقطعة غير مفهومة ! وهرعت من فورها إلى الطبيب فاحضرته ، لكنه لم يستطع ان يفعل شيئا . . وبعد اقل من ساعة كان « جوستاف فلوبير » قد لفظ آخر أنفاسه !

خليلات .. اخريات

● وقد اصدرت إحدى دور النشر الفرنسية فى الشهور الأخيرة كتابا حديثا عن فلوبير ، بقلم « لامارتيند » ، اشار إلى

اسماء عدد من النساء الاخريات اللواتى كانت لفلوبير معهن صلات عشق عابرة ، عدا من ذكرنا .. ومن هؤلاء : « جين دى توربى » ، التى صارت تدعى فيما بعد : « الكونتة دى ليون » ، أو « غادة البنفسج » .. ثم « ابولونى ساباتييه » ، او « الرئيسة » .. و « الاميرة ماتيلد » .. فضلا عن امراتين اقتصرت صلتهما به على تبادل المراسلات ، هما « اميلى بوسكيه » و « مدام دى جينيت » . وقد وصفته اولاهما بانه لم يكن يحب غير .. عمله ! .. وفيما عداه كانت غرامياته الأخرى محض « تسلية » ! .. اما آخر امراة ارتبط معها فلوبير برباط الصداقة فكانت « جورج صاند » ، التى كانت فى اخريات ايامها ، وقد ماتت قبله باربعة اعوام .

على انه يمكن القول ان المراة « الوحيدة » التى احبها فلوبير — حبا خالصا ، بتفان وتكريس — هى المراة التى لم ينلها : « اليزا شليسنجر » ! .. وقد صرح ذات ليلة وهو يتعشى مع « تيوفيل جوتييه » و « تين » و « دى جونكور » فى مطعم « مانييس » ، تصريحا غريبا . قال إنه لم ينل امراة فى حياته نيلا كاملا ، وانه ما يزال بكرا ، وان جميع اللواتى نالهن لم يكن اكثر من « حشايا » لامراة اخرى ، هى امراة احلامه ! (يعنى اليزا) .

وقد مات زوج اليزا فى عام ١٨٧١ ، بعد ان عادت عليه مضارباته المالية بالخراب والافلاس ، فاخذ زوجته واطفاله وذهب ليعيش فى مدينة (بادن) . وبعد موته كتب فلوبير إلى اليزا ، التى احبها طوال ٣٥ عاما ، رسالة الحب الاولى منه اليها .. فبدلا من ان يستهلها بعبارته المالوفة « سيدتى

العزيزة»، كتب : «يا حبيبتى الأولى، يا حبيبتى الوحيدة»!.. ووافته فى (كرواسيه) . كان كلاهما قد تغير تغيرا كبيرا منذ لقائهما الاخير : ترهل هو وصار بدينا ، تملأ « البقع » وجهه الاحمر ويتوسطه شارب كثيف ، ويغطى راسه الاصلع بقلنسوة سوداء .. بينما جف عود اليزا فنحنت ، وفقدت بشرتها لونها الوردى ، وابيض شعرها ! .. وقد وصف فلوبير فى كتاب « التربية العاطفية » هذا اللقاء التاريخى ، الذى لم يتكرر بعد ذلك سوى مرتين او ثلاث مرات ، فكان ذلك الوصف امتع فصول الكتاب .

وبعد وفاة فلوبير بنحو عام ، قضى « مكسيم دوكامب » الصيف فى (بادن) . وذات يوم خرج للصيد ، بجوار مصحة « ايناو » للأمراض العقلية ، وفتحت بوابة المصحة كى تقوم المريضات بنزهتهن اليومية ، بإشراف الحراس .. فخرجن اثنتين اثنتين ، وإذا إحداهن تنحنى له محيية .

ولم تكن سوى « اليزا شليسنجر » ، المراة التى احبها فلوبير طيلة حياته .. حبا بلا امل !

* * *

اهداء المؤلف

إلى

مارى انتوان جول سينار

عضو نقابة المحامين بباريس ، والرئيس السابق للجمعية الوطنية ، والوزير السابق للداخلية

ايها الصديق العزيز النابه :

اسمح لى بان اسجل اسمك فى صدر هذا الكتاب ، وان اتوج به الإهداء ، إذ اننى مدين لك — قبل اى إنسان آخر — بنشره . فبفضل دفاعك المجيد ، اكتسب كتابى هذا فى نظرى الخاص من الاهمية فوق ما كنت ارجو واتوقع .

فتقبل هنا تحية اعترافى بالجميل .. تحية لن تبلغ قط — مهما تكن — مستوى بلاغتك وإخلاصك .

جوستاف فلوبير

باريس فى ١٢ ابريل سنة ١٨٥٧

الجزء الأول

– ١ –

الفصل الأول

● كنا فى حجرة الدراسة ، عندما دخل الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدى الزى المدرسى ، وفراش يحمل قمطرا كبيرا ، فاستيقظ من كان نائما ، وانتصب كل منا واقفا ، وكأنه فوجىء على حين غرة برقيب على عمله !

واشار إلينا الناظر بالعودة إلى الجلوس ، ثم التفت إلى المدرس قائلا فى صوت خفيض : « مسيو روجيه .. هــذا تلميذ اوصيك به . لقد التحق بالسنة الخامسة ، ولكن إذا بدا عمله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل إلى الفرق العليا التى تناسب سنه » .

وفى الزاوية الواقعة خلف الباب ، حيث لا يكاد يرى ، لاح التلميذ الجديد . كان عملاقا ريفيا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، اطول قامة منا جميعا . وكان شعره منسقا ومستويا فوق جبهته ، كمغنى القــرية ، وقد ظهــر عليــه التحفظ والارتباك . وبالرغم من انه لم يكن عريض المنكبين ، فان سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق حركاته ، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين الفا العرى .. كما كانت قدماه ــ اللتان يكسوهما جوربان أزرقان ــ تبرزان من بنطلون اصفر ، تشده الحمالة شدا قويا .. وفى طرفيهما حذاءان سيئا التلميع ، تنتشر فيه المسامير بكثرة ملحوظة .

وبدا اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس ، فاخذ التلميذ الجديد ينصت إليهم بكل جوارحه ، وكأنه يصغى إلى موعظة فى الكنيسة : دون ان يجسر حتى على ان يضع ساقا على ساق ، او ان يتكىء بمرفقيه على القمطر ! .. وعندما دق الجرس فى الساعة الثانية ، اضطر المدرس إلى أن ينبهه كى يتخذ مكانه فى الصف !

وكان من عادتنا ، إذ ما دخلنا حجرة الدرس ، ان نلقى بقلنسواتنا أرضا ، كى تتحرر أيدينا لأداء الصلاة .. فكنـــا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب ، وبقوة تجعلها تصطدم بالحائط فتثير كثيرا من الغبار .. وكانت هذه الحركة من « الاصول المرعية » التى نتباهى بها !

غير أن التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة ، او لعله لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتيانها .. فانتهت الصلاة وقلنسوته ما تزال على ركبتيه . وكانت قلنسوة من طراز معقد ، تجمع بين « الطاقية » ذات الوبر ، و «اللبدة» ، والقبعة المستديرة ، وقلنسوة الفراء ، والطاقية القطنية ! .. وبالجملة ، كانت من تلك الأشياء المزرية التى يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله ! .. كانت بيضاوية ، يرفع جوانبها هيكل مضلع فى داخلها يكسبها الشكل المنتفخ ، وتبدا بثلاث كريات صغيرة ، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل « المعين » الهندسى ، يفصل بينها شريط أحمر .. ويعقب ذلك شىء يشبه الكيس ، ينتهى بقطعة من الورق المقوى متعددة الاضلاع ، تكسوها رقعة مطرزة باشرطة معقـــدة

الاشكال ، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع ، فى نهايته
صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه « الشرابة » !

.. كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقة !

وقال الأستاذ للفتى : « قف ! » ، فوقف . وسقطت
القلنسوة ، فانفجر التلاميذ جميعا ضاحكين ، بينما انحنى هو
فالتقطها ، ولكن جاره اسقطها مرة اخرى بضربة من مرفقه ،
فعاد الفتى إلى التقاطها من جديد . وكان المدرس حاضر
النكتة ، فقال له : « تخلص يا اخى من خوذتك ! » .

وانطلق التلاميذ فى ثورة من الضحك المجلجل ، اربكت
الفتى المسكين ، حتى لم يعد يدرى أيحتفظ بقلنسوته فى يده ،
ام يلقيها على الأرض ، ام يضعها على راسه .. واخيرا ،
جلس ووضعها على ركبتيه .

وعاد الاستاذ يقول له : « قف .. ما اسمك ؟ » ..
وتمتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم ، فهتف الاستاذ :
« أعد ! » .. وكرر التلميذ المقاطع ذاتها ، فى تمتمة طغت
عليها قهقهة زملائه جميعا .. فصاح الاستاذ : « ارفع
صوتك ! .. ارفع صوتك ! » .

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته ، وفغر فاها مترامى
الأبعاد ، وعبأ رئتيه ثم قذف باسم « شار بوفارى » وكانه
ينادى شخصا !

وانفجر التلاميذ فى ضجيج صاخب ، حاد ، مضطرد ..
فاخذوا يصيحون ، وينبحون ، ويدقون الارض باقدامهم
مرددين : « شار بوفارى .. شار بوفارى ! » فى نغمات

مسترسلة ، لم تكن تهدأ ــ بعد مشقة بالغة ــ إلا لتعود فى
ناحية من حجرة الدراسة ، أو فى صف باكمله من صفوف
التلاميذ ، تتخللها ــ هنا وهناك ــ ضحكة مكتومة ، كصاروخ
لم يخمد بعد تماما .

واخيرا ، عاد الهدوء إلى حجرة الدراسة رويدا ، بعد
وابل من العتاب ، وتمكن الأستاذ من التقاط اسم « شارل
بوفارى » ، بعد ان طلب إلى صاحبه ان يوضحه كتابة ،
وهجاء ، وتلاوة ! .. ثم أمر المسكين بان يذهب فيجلس على
« مقعد الكسالى » تحت حافة المنصة مباشرة ، فشرع صاحبنا
يتحرك . بيد انه تردد قبل ان يبرح مكانه ، فسأله الاستاذ :
« عم تبحث ؟ » .

واجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة :
« قلنسو .. » ! .. ولم يتم كلمته ، إذ انفجرت العاصفة من
جديد ، فصاح الأستاذ فى غضب هادر : « على كل منكم ان
ينسخ خمسمائة بيت من الشعر » . وكانت صرخته اشبه
بصيحة « نبتون » ــ إله البحار ــ التى أطلقها متوعدا الرياح
إذ ثارت دون أمر منه ، على ما جاء فى الاساطير ! .. وما لبث
أن اضاف وهو يجفف جبينه بمنديل اخرجه من بين ثنايا ردائه
المهلهل : « كفى ! .. الزموا السكون ! » .. ثم التفت إلى
التلميذ الجديد قائلا : « اما انت ، فعليك ان تنسخ لى عبارة
« انا مضحك » عشرين مرة » .. ثم اردف فى صوت اكثر
رقة : « لسوف تجد قلنسوتك ، فان احدا لم يسرقها » !

وعاد كل شىء إلى هدوئه ، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق
الأدراج ، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين فى جلسة مثالية ،

وإن أخذت تنطلق — بين وقت وآخر — كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهه . وكان يمسح المداد بيده ، ويستـــأنف جلسته بغير حراك ، وهو منكس البصر !

وفى حجرة الاستذكار — فى المساء — أخرج من درجـه الكمين الأسودين اللذين يلبسان لصيانة كمى السترة وقت العمل ، ورتب أدواته البسيطة ، وأنجز فى عناية كتابة العبارة التى فرضها عليه الأستاذ كعقاب ، ثم عكف على عمله فى إخلاص، باحثا فى القاموس عن جميع الكلمات، غير مدخر جهدا . ولا شك أن هذه الإرادة الطيبة هى التى حالت دون نقله إلى فرقة دراسية أدنى من التى ألحق بها ! .. ومع أنه كان ملما بقواعد اللغة إلى حد ما ، إلا أنه لم يؤت رشاقة التعبير ، فقد كان قس قريته هو الذى بدأ تلقينه اللاتينية ، إذ أرجأ أهله إرساله إلى المدرسة أطول فترة ممكنة ، اقتصاداً للنفقات !

❊ ❊ ❊

● كان أبوه « شارل دنى بارتلومى بوفارى » مساعد جراح سابق فى الجيش ، تورط فى بعض المســائل المتصلة بالتجنيد فى سنة ١٨١٢ ، واضطر إلى ترك الخدمة . بيد أنه كان قد وفق فى استغلال مواهبه الشخصية ، فظفر بصداق — « دوطة » — قدره ستون ألفا من الفرنكات ، حملته إليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت هيئته! .. فقد كان فارع القوام، يحسن التهريج والشنشنة بمهمازيه ، وقد أرسل لحية متصلة بشاربيه ، واعتاد أن يزين أصابعه دائما بالخواتم ، وأن يتخير لملابسه الألوان الصارخة ! .. وكان له مظهر الرجل الشجاع، مع خفة المندوب الكثير الأسفار . وقد ظل يعيش — بعـد

الزواج — عامين أو ثلاثة على ثروة زوجته ، ينعم بالغـذاء الطيب ، ويستيقظ متأخرا ، ويدخن فى غلايين كبيرة من الخزف، ويتردد على المقاهى ، ولا يعود إلى منزله فى كل مساء إلا بعد أن تغلق المقاهى أبوابها . حتى إذا مات والد زوجته ، أحنقه أن الرجل لم يخلف ثروة تذكـر ، فحاول أن يدير المصـنع من بعده ، لكنه خسر بعض المال ، فآثر الانسحاب إلى الريف حيث حاول أن يعمل فى الإنتاج الزراعى .. غير أنه لم يكن أكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة .. وكان يمتطى الخيل بدلا من أن يرسلها للحرث ، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلا من أن يبيعه بالبرميل ، ويأكل خير ما فى حظيرته من دواجن ، ويؤثر حذاء الصيد بشحم خنازيره ، فلم يلبث أن تبين أن من الخير له أن يتخلى عن استثمار ما بقى له من مال !

واستطاع أن يجد فى إحدى القرى المتاخمة لمقاطعتى (كو) و (بيكاردى) ، مسكنا — يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة — مقابل مائتى فرنك فى العام ، فاحتبس فيه نفسه منذ كان فى الخامسة والأربعين من عمره ، وقد استبد به الغم، وأخذ الندم ينهشه ، وراح يسب القدر ، ويحسد الناس ، ويعلن أنه قد سئم البشر أجمعين .. وقرر أن يعيش فى هدوء !

وكانت زوجته فى البداية مدلهة فى هواه ، فأبدت له من مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفورا ! .. وكانت فى فجر شبابها مرحة ، منطلقة ، تفيض نفسها حبا، فأمست بمضى الأعوام عصبية المزاج ، كثيرة الصياح ، ثائرة .. وكأنها النبيذ الذى تخلخل غطاء دنه فاستحال إلى خل !

كانت قد تحملت أشد الآلام فى بادىء الأمر ، دون أن تشكو من جريه وراء عاهرات القرية ، ليعود إليها فى المساء ــ بعد أن تلفظه عشرات المواخير ــ وريح الخمر تهب منه! . . فلما ثارت كبرياؤها، لم تملك سوى أن تكتم الغضب فى صدرها، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفى لازمها حتى المـوت ! . . وكانت دائمة الحركة ، تذهب إلى موثقى العقود ، وتسعى إلى العمدة ، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لارجاء دفعها واستمهال الدائنين . . أما فى البيت ، فكانت تنهمك فى الكى والحياكة والغسيل ، وتراقب العمـال ، وتنقدهم أجورهم . . فى حين لم يكن السـيد يعبـأ بشىء ، بل كان يستغرق فى إغفاء عابس واجم ، لا يفيق منه إلا ليوجه إليها عبارات جارحة، ثم ينصرف إلى التدخين بجوار المدفأة، باصقا بين الفينة والفينة على رمادها !

وعندما أنجبت طفلا ، اضطرت إلى أن تعهد به إلى مرضعة . . حتى إذا عاد « المحروس » إلى أبويه ، أسرفا فى تدليله كما لو كان أميرا ، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربى . . وكان الأب يتركه يرتع حافى القدمين ، ويتعلل ــ متفلسفا ! ــ بأن طفله قادر على أن يظل عاريا كصغار الحيوانات ! . . وكان الأب ــ على العكس من اتجاهات الأم ــ يتخيل فى ذهنه صورة لما ينبغى أن تكون عليه رجولة الطفل، فحاول ــ لتحقيقها ــ أن ينشىء ابنه نشأة خشنة، على غرار الطريقة «الاسبرطية» . . فكان يرسـل الطفل إلى الفراش دون ما نار تدفىء حجرته ، ليقوى بنيته! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من «الروم»،

ويلقنه السخرية من الطقوس الدينية ! . . بيد أن الطفـل كان هادئا بفطرته ، فلم يستجب لهذه التوجيهات .

وكانت أمه تجره خلفها دائما، وتصنع له من الورق المقوى لعبا ، وتروى له القصص ، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها ، يمتزج فيها المرح بالكآبة والمناجاة والتدليل . وفى تلك العزلة التى كانت تعيش فيها ، صبت فى مخيلة الطفـل كل ما كان يخالج نفسها من طموح مشتت ، كانت تطمع فى أن ترضى به كبرياءها المحطمة . . كانت تحلم له بأرفع المناصب ، وتتصوره وقد كبر ، وغدا جميلا ، حاضر البديهة ، متربعا فى إحـدى مناصب مصلحة الطرق والجسور ، أو فى أحد مراكز القضاء . ومن ثم تولت تعليمه القراءة ، ولقنته أغنيتين أو ثلاثا ، كانت تعزف له ألحانها على معزف قديم تملكه .

على أن مسيو «بوفارى» لم يكن يحفل كثيرا بالثقافة ، فلم ير فى كل هذه الجهود شيئا ذا قيمة . . كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما إذا كان سيقدر لهما يوما أن يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل فى مدارس الحكومة ، أو ما يمكنهما من أن يبتاعا له مكتبا أو متجرا . وكان ــ فوق ذلك ــ يعتقد أن الإنسان يستطيع أن ينجح فى الحياة . . بالصفاقة ! . . أما مدام «بوفارى» فكانت تعض شفتيها حنقا ، وهى ترى ابنها يتسكع فى القرية . . إذ كان يحلو للطفل أن يتبع المزارعين فى حرثهم ، وأن يطارد الغربان بالطوب ، وأن يقتطف التوت من فوق الأشـجار ، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتـولى ، فى أوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ، ويرتع فى الغـابة ، ويلعب «الحجلة» فى فناء الكنيسة فى الأيام المطيرة ! . . وكان يتوسل

إلى خادم الكنيسة ليتركه يدق الاجراس فى الأعياد الكبيرة ، فيتملق كل جسمه بالحبل الضخم ، وينعم بالاحساس بنفسه محمولا على الهواء والحبل يتأرجح به !

وهكذا نشأ الصبى نشأة طبيعية ، كشجرة البلوط .. فاوتى يدين قويتين ، ولونا بديعا !

وإذ بلغ الثانية عشرة من عمره ، الحت امه فى ان يبدأ دراسته ، فتعهده قس القرية ، غير ان الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير .. فقد كان القس يلقنه هذه الدروس فى مخزن الكنيسة، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جناز !.. وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه .. بل إن القس كان يرسل فى استدعاء تلميذه — فى بعض الأيام — عقب فراغه من صلاة الغروب ، إذا لم يكن لديه ما يدعوه للخروج .. فكانا يصعدان إلى حجرة القس ، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل .. وكان الجو الحار يغرى الصبى بالنوم ، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه ، فلا يلبث ان ينبعث الغطيط من فمه المفتوح ! .. كذلك كان القس اثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى فى قرية مجاورة يلتقى احيانا بشارل وهو يتسكع فى الحقول ، فيدعوه إليه ، ويقضى ربع الساعة فى وعظه تحت شجرة ، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذى كلفه باستذكاره .. وكثيرا ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر ، او مرور احد المعارف . وكان القس — بعد ذلك — يبدى رضاءه عن الصبى .. بل انه كان يقول إن له ذاكرة قوية !



ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتولى فى أوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ..

ولم يكن لشارل أن يكتفى بهذا القدر من الدراسة ، إذ كانت امه قوية فى إصرارها على تعليمه .. ولم يشأ الوالد ان يقاوم ، إذ غلبه الخزى ، أو — بالأحرى — التعب . ولكنهما تريثا عاما آخر ، ريثما يتاح للصبى أن يتناول « القربان المقدس » الأول فى حياته . وما إن انقضت ستة أشهر على ذلك ، حتى تقرر نهائيا ارساله إلى مدرسة (روان) ، وصحبه أبوه بنفسه فى أواخر شهر اكتوبر ، ابان موسم « القديس رومان » .

❊ ❊ ❊

● يستحيل على احد منا أن يتذكر الآن شيئا عن «شارل بوفارى» .. على انه كان عادى المزاج والطباع ، يلعب فى فترات الفراغ ، ويستذكر فى الحجرة المخصصة لذلك ، ويصغى بانتباه فى حجرة الدرس ، ويأكل فى المطعم ، وينام فى « العنبر » .. شأن أى تلميذ آخر ! .. وكان ولى امره فى (روان) تاجرا يبيع الحديد الخردة بالجملة ، فى شارع (جانتيرى) . وقد اعتاد ان يسمح له بالخروج من المدرسة فى يوم واحد من ايام الآحاد فى كل شهر . فكان يفد — بعد أن يغلق متجره — ليصحبه إلى النزهة ومشاهدة السفن فى الميناء ، ثم يعود به إلى المدرسة فى الساعة السابعة ، قبيل موعد العشاء . وفى مساء كل يوم خميس ، كان الصبى يكتب لأمه خطابا طويلا بالمداد الأحمر ، يغلفه جيدا ، ثم يستذكر دروس التاريخ ، أو يقرأ فى كتاب قديم — عن رحلة « انا كارسيس » — يعثر به مهملا فى غرفة الدرس . كما كان يحلو له — اثناء « الفسحة » — أن يتحدث إلى الخادم الذى كان من ابناء الريف مثله !

واستطاع بفضل اجتهاده ان يحتفظ دائما بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة . بل إنه وفق مرة إلى الحصول على جائزة فى التاريخ الطبيعى. بيد ان والديه ما لبثا ان سحباه من المدرسة ، وهو لم يزل بعد فى الفرقة الثالثة ، ليحملاه على دراسة الطب فقط ، إذ كانا يؤمنان بقدرته على ان يستكمل دراسته دون ما معونة !

واختارت له امه حجرة فى الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك) ، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة . وبعد أن دبرت أمر إقامته ، حصلت له على بعض أثاث تمثل فى منضدة ومقعدين ، كما احضرت من دارها سريرا قديما من خشب الكريز ، وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر ، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين ! .. ثم رحلت فى نهاية الأسبوع ، بعد أن أزجت إليه مئات الوصايا بأن يحسن السلوك ، بعد ان غدا طليقا بغير رقيب .

على أن «شارل» كاد يصعق ، حين رأى برنامج الدراسة فى لوحة الاعلان .. كانت هناك دروس فى التشريح ، ودروس فى علم الأمراض (الباثالوجيا) ، ودروس فى علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، ودروس فى الصيدلة (الفارماكوبيا) ، ودروس فى الكيمياء .. وفى النبات .. وفى التشخيص ، والعلاج .. عدا علم الصحة ، وعلم الطب .. أسماء كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعا ، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات !

ولم يفهم من هذه الدروس شيئا ! .. بل انه لم يستطع

– رغم إصغائه فى انتباه تام – أن يدرك لها مغزى ! .. وكانت لديه كراسات مجلدة واظب على تدوين دروسه فيها باجتهاد ؛ ولم يتخلف يوما عن الطواف بأسرة المرضى فى المستشفى .. كما كان يؤدى واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة ، إذ يدور فى مكانه وهو معصوب العينين ، لا يعرف عن نوع الحبوب التى يسخر لطحنها شيئا !

وكانت أمه ترسل إليه فى كل أسبوع قطعة من اللحم المشوى ، فكان يتناول منها غداءه – إذا ما عاد من المستشفى – وهو جالس ينقر الحائط بحذائه .. ثم لا يلبث أن يعود إلى الدروس فى قاعة الجراحات أو «عنابر» المستشفى . حتى إذا أفل النهار ، عاد إلى داره سالكا الطريق الطويل عبر البلدة ، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء هزيل ، ثم يصعد إلى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام المدفأة ، والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة .

وفى أمسيات الصيف الجميلة ، حين تقفر الطرقات الحارة من المارة ، وتلهو الخادمات بكرات من الفلين أمام الدور ، كان « شارل » يفتح نافذته ، ويتكىء بمرفقيه على حافتها ، ليطل على الترعة، التى تجعل من هذا الحى من أحياء (روان) ما يشبه مدينة (بندقية) صغيرة ، متواضعة . وكانت الترعة تنساب تحت بصره بين القناطر والأسوار ، تنعكس على صفحتها الألوان الصفراء ، والبنفسجية ، والزرقاء .. وقد جثا العمال على حافتها يغسلون أذرعهم بمائها .

وعلى أسطح المنازل المقابلة، كان يرى ضفائر غزل القطن وقد علقت إلى عصى طويلة لتجف . وخلف تلك الأسطح ،

كانت السماء الصافية تمتد ، والشمس تجرر أذيالها نحو الغروب .. لكم كان الجو يبدو له جميلا ، والهواء منعشا ، فى ظلال الأشجار .. فكان يفتح طاقتى أنفه بشدة ، ليجتذب على البعد روائح الريف التى لم تكن تترامى إليه !

وأخذ جسمه ينحف ، وقده يستطيل .. واكتسى وجهه وجوما ساجيا أضفى عليه شيئا من الجاذبية !.. وبدأ حماسه للدرس يفتر ، فكان من الطبيعى أن يتحلل من العهود التى قطعها على نفسه .. وكان أن تقاعس يوما عن المرور لتفقد المرضى بالمستشفى .. وفى اليوم التالى تخلف عن إحدى المحاضرات .. وشيئا فشيئا ، استساغ الكسل حتى انتهى به الأمر إلى الانقطاع عن الدروس تماما ! .. وأدمن ارتياد المقاهى ، وشغف بلعب « الدومينو » .. وخيل له أن فى احتباس نفسه هكذا ، كل مساء ، فى حانة قذرة ، حيث يقرع رخام المناضد بقطع « الدومينو » المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء .. خيل إليه أن فى هذا العمل مظهرا للحرية يرفع من تقديره لنفسه ! .. كان هذا – فى نظره – مقدمة للحياة الدنيا، وسبيلا إلى اللذات المحظورة !.. فكان يشعر عندما يضع يده على مقبض الباب – بعد عودته إلى غرفته فى المساء – بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية !

وتفتحت نفسه عن أشياء كثيرة كانت مكبوتة ، فحفظ عن ظهر قلب بعض الأغنيات التى كان يستقبل بها الزائرات ، وتحمس لبيرانجيه ، مؤلف الأشعار الغنائية .. وتعلم كيف يمزج أنواع الكحول .. وأخيرا ، عرف الحب !

وبفضل هذه الأعمال التحضيرية، كان رسوبه فى الامتحان

شنيعا ، بينما كان والداه يرتقبانه فى دارهما ليحتفلا بنجاحه !

* * *

● وعاد «شارل» سائرا على قدميه، حتى إذا بلغ مدخل القرية ، توقف وارسل فى طلب امه ، وقص عليها ما اصابه . فالتمست له الاعذار ، وعزت رســوبه إلى ظلم الممتحنين ، وأولته بعض التشجيع ، آخذة على عاتقها تدبير الأمور ! .. ولم يعلم مسيو « بوفارى » بالحقيقة إلا بعد خمس سنوات .. وكانت قد نفدت جدتها ، فتقبلها فى تسليم ، وان لم يتصــور ان من الممكن ان يكون فى سلالته ابن خائب !

على ان « شارل » تحول إلى الجد مرة اخرى ، فاقبل يراجع دروسه بغير توان ، واستظهر جميع المواد ، ففاز فى الامتحان النهائى بدرجة لا بأس بها .. وما كان اسعد امه يوم نجاحه ! .. فلقد اولمت يومذاك وليمة كبيرة !

والآن .. ترى اين يباشر مهنته ؟ .. أفى (توست)؟ .. لقد كان هناك طبيب طاعن فى السن تتوقع مدام «بوفارى» موته منذ أمد طويل ، فلم يتريث « شـــارل » حتى يودع الشـيخ الحياة ، بل استقر فى مواجهته كخليفة له !

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن ، وتعليمه الطب، واتخاذ (توست) مقرا يزاول فيه مهنته .. إذ كان لا بــد له من امرأة ! .. ووجدت له امه الزوجة المنشودة .. ارملة احـد محضرى (دييب) .. لها من العمر خمس واربعون سنة ، ومن الدخل الف ومئتا فرنك !

ومع ان مدام «دوبيك» هذه كانت دميمة ، عجفاء كالوتد، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم فى الاشجار فى فصل الربيع ، إلا ان فرص اختيار الزوج كانت واسعة أمامها ،

مما حدا بالأم «بوفارى» إلى أن تجاهد كى تتغلب على الساعين للفوز بيدها ! .. وبالفعل ، اســتطاعت ان تحبط الاعيب قصاب كان رجال الدين يؤازرونه !

وكان « شارل » يخال ان الزواج سيمكنه من تحســين حاله ، فيغدو اكثر حرية وقدرة على التصرف فى شـئونه الشخصية والمالية . بيد ان زوجته لم تلبث ان غدت صاحبة الأمر والسلطان ، حتى لقد كانت تملى عليه ما ينبغى ان يقول أمام الناس وما يجب أن يمتنع عن قوله ! .. وفرضت عليه ان يصوم ايام الجمعة ، وأن يرتدى من الثياب ما تحب هى.. وان يلح فى مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعابا ! .. بل إنها كانت تفتح خطاباته ، وتراقب حـركاته ، وتسـترق السمع خـلال ثقوب الباب ، إذا ما حضرت إلى العيادة بعض السيدات لاستشارته !

وفضلا عن هذا ، كانت فى حاجة إلى كوب من «الكاكاو» كل صــباح ، وإلى انواع من الرعاية لا حصر لها .. وكانت دائمة الشكوى من أعصابها ، وصـدرها ، ومفاصلها ! .. يؤذيها وقع الأقدام .. وتثقل عليها الوحدة إذا غادرها .. فاذا سعى احد إلى جوارها ، ظنت انه لم يأت إلا ليشـهد احتضارها ! .. وكانت إذا ما عاد « شـارل » فى المسـاء ، تخرج من تحت اغطيــة الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبته .. وما إن يجلس على حافة الفراش ، حتى تنطلق تبث همومها : فهو ينساها ، ويحب غيرها ! .. ولقد تنبئوا لها بأنها ستشقى ! .. ثم تنتهى من فيض الهموم والهـواجس إلى أن تسأله زجاجة من دواء يقوى صحتها .. وقدرا اكبر من الحب !!

———— ● ————

الفصل الثانى

● حوالى الساعة الحادية عشرة من إحـــدى الليالى ، استيقظ « شارل » وزوجته وخادمهما على وقع حوافر جواد مسرع ، لم يلبث ان وقف أمام باب دارهم . وفتحت الخادم نافذة المخزن ، وتبادلت حديثا قصـــيرا مع رجل كان تحت النافذة .. وإذ انباها بانه حضر لاستدعاء الطبيب ، وأنه يحمل رسالة إليه ، هبطت درجات السلم وهى ترتجف من البرد ، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تباعا .

وترك الرجل جواده ، وسار خلف الخادم مقتحما المخدع دون انتظار ، ثم اخرج من قلنسوته الصوفية ذات «الشرابات» الرمادية ، رسالة ملفوفة فى اطواء قطعة خلقة من القماش ، وقدمها بأدب إلى « شارل » الذى اتكا بمرفقيه على الوسادة ليقراها ، بينما وقفت « نستازى » ــ الخادم ــ إلى جـــوار السرير تحمل الضوء .. ودفع الحياء زوجة الطبيب إلى ان تظل مولية وجهها نحو الحائط ، وظهرها إليهم .

وتضمن الخطاب ــ الذى كان مغلقا بخاتم صغير من الشمع الأزرق ــ رجاء ضارعا إلى السيد «بوفارى» كى يبادر فورا إلى مزرعة (برتو) ليجبر ساقا مكســـورة .. وكانت المسافة بين (توست) و (برتو) تزيد على ستة فراسخ ، فى طريق زراعى تمر بكل من (لنجفيل) و (سانتا فيكتور) .. وكان الليل حالكا ، والسيدة الزوجة تخشى ان يحل بزوجها اى

مكروه . لذلك استقر الراى على ان يرحل الرسول ، ثم يتبعه « شارل » بعد ثلاث ساعات ــ حين يشرق القمر ــ على أن يوفد الرجل غلاما للقائه فيرشده إلى المزرعة ، ويرفع ما قد يكون فى طريقه من حواجز .

وفى نحو الساعة الرابعة صباحا ، بدأ « شارل » رحلته إلى (برتو) ، متدثرا بمعطفه . ولم يكن قد تخلص تمامـــا من سلطان الكرى ودفء السرير ، فترك دابته تحمله فى خطوات هادئة تؤرجحه .. حتى إذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالأشواك ــ التى كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع ــ استيقظ من اغفائه منتفضا ، وتذكر صاحب الساق المكسورة ، فأخذ فى استعراض كافة أنواع الكسور التى عرفها .

وما لبث المطر ان كف عن السقوط ، واخذ النهار يدنو .. وعلى غصون اشجار التفاح العارية ، وقفت العصافير جامدة ، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة .. وكان الريف يمتد على مرمى البصر ، ومجموعات الأشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادى الشاسع الذى كان يختلط عند الأفق بظلمة السماء .

وكان « شارل » يفتح عينيه بين الفينة والفينة ، فلا يلبث النعاس ان يغلبه ، ويستسلم لسنة حالمة يختلط فيها حاضره بذكرياته .. حتى لقد خال لنفسه شخصيتين فى وقت واحد : فهو طالب ، وزوج ، معا .. وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة ، ثم هو يجوس فى قاعةالجراحات كما كان يفعل ايام

الدراسة .. واختلطت فى رأسه رائحة العقاقير باريج الخضرة الندية ، وبحفيف حلقات الستائر وهى تنزلق على قضبان السرير ، وزوجته تغط فى نومها !

وإذ بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صـــغيرا يجلس على العشب ، عند حافة حفرة ..

وهتف الغلام إذ رآه : « أانت الطبيب ؟ » .

وإذ اجابه « شارل » ، خلع الغلام نعليه وأمسك بهما بين يديه ، وانطلق يعدو أمامه ليرشده إلى الطريق .

وأدرك الطبيب من دليله أثناء سيرهما ، أن ساق مسيو « روو » — الذى كان ولا بد من أثرياء المزارعين — قد كسرت مساء اليوم السابق ، وهو عائد من حفل لدى أحد جيرانه ، وأن زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين ، وليس له إلا ابنة تساعده فى شئون المنزل .

وتخللت الطريق آثار عجلات اخذت تزداد عمقا إذ اقتربا من (برتو) . وما لبث الغلام أن اختفى خلال فرجة فى سياج المزرعة ، ليعود بعد هنيهة إلى الظهور عند نهاية السياج ، فيفتح الباب .. وسار الحصان وحوافره تنزلق على العشب المبتل .. واحنى « شارل » راسه ليتجنب الاغصان .. وإذ دخل الضيعة ، اخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التى تربطها إلى مآويها ، فاجفل الجواد فى فزع شديد .

كانت ضيعة بديعة .. ومن خلال الأبواب المفتوحة ، كانت ثمة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة فى مذاود جديدة ..

بينما تكدست على طول الجدران اكوام السماد التى تتصاعد منها الابخرة .. وبين الدجاج والديكة الرومية ، بدت خمسة طواويس او ستة تلتقط الحبوب ، وينم مظهرها على انها حقيقة مفخرة حظائر مقاطعة (كو) .

اما حظيرة الأغنام فكانت طويلة ، والمخزن عاليا مصقول الجـــدران .. وتحت المظلة ، كانت ثمـــة عربتـــان كبيرتان ، واربعة محاريث كاملة باسواطها ، واطواقها ، وسروجها التى اتسخ كساؤها الصوفى الأزرق ، لفرط ما كان يتساقط عليها من غبار المخازن .. وكان الفناء يرتفع تدريجا ، وقد تخللته اشجار غرست على ابعاد منتظمة .. ومن ناحية البحيرة ، انبعثت اصوات الأوز .

ولاحت لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة فى ثوب من الصوف محلى بثلاثة أفواف (كرانيش) ، فاستقبلت السيد « بوفارى » وقادته إلى المطبخ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلى فوقها طعام الفطور ، فى قدور من جميع الأحجام .. وإلى احد جانبى المدفأة ، كانت ثمـــة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج .. وبدت المجرفة وقابضـــة الجمر والمنفاخ ضـــخمة الحجم ، تلمع كالصلب المصقول ، بينما رصـــت على طول الجدار ادوات للطهو كثيرة العدد ، انعكس عليها لهب الموقد ، تخالطه طلائع اشعة الشمس التى اخذت تنساب خلال زجاج النوافذ .

وما لبث « شارل » أن صعد إلى الطابق الأول من الدار، ليرى المريض ، فالفاه فى فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء ، وقد القى طاقيته القطنية جانبا .

كان رجلا بدينا ، قصيرا ، فى الخمسين من عمره ، ابيض البشرة ، ازرق العينين ، أصلع مقدم الرأس ، ويزين اذنيه بقرطين ! .. وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر اخذ يرفعها إلى فمه بين الفينة والفينة ، ليشد من عزمه ، ويرفع من روحه المعنوية !

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه .. وبدلا من أن يمضى فى سيل الشتائم التى كان يطلقهــا بسخاء منذ اثنتى عشرة ساعة ، تحول يئن أنينا خافتا .

وكان الكسر بسيطا ، لم تصحبه اية مضاعفات .. بل إن « شارل » لم يكن يطمع فى كسر اسهل منه ! .. وتذكر لفوره مسلك أساتذته بجوار اسرة الجرحى ، فاخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة .. وبما تعلمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذى يدهنون به مباضعهم (مشارطهم) !

واخذ اهل المريض يبحثون فى المخزن حتى جمعوا حزمة من السدابات الخشبية ليتخذوا منها جبائر ، فتناول شارل واحدة منها شقها إلى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها اربطة .. والآنسة « ايما » ــ ابنــة الرجــل ــ تحيك وسادات صغيرة .. وكانت قد اضاعت وقتا طويلا فى البحث عن صندوق أدوات الحياكة ، فلما استحثها والدها لم تجبه بنت شفة ، وإنما اقبلت على الحياكة .. وكانت ، كلما شكت الابرة اصابعها ، ترفع هذه الاصابع إلى فمها وتمصها! .. واعجب « شارل » ببياض اظافرها اللامعة ، الدقيقة الاطراف .. كانت

اكثر نصوعا من عاج (ديبب) ، وقد قصــت على شــكل اللوز ! .. على ان يدها لم تكن ــ رغم ذلك ــ جميلة ، ولعل بشرتها كانت اقل صفاء مما ينبغى ، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الأصابع .. كانت يدا مسرفة فى الطول ، يعوزها شىء من ليونة التثنى ! .. ولكن جمال الفتاة كان يتركز فى عينيها العسليتين اللتين كانت أهدابهما تضفى عليهما صبغة السواد .. واللتين كانت تنبعث منهما نظرات توحى للمــرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة !

وإذ انتهت عملية التجبير ، دعا مسيو « روو » الطبيب إلى بعض الطعام قبل رحيله ، فهبط « شارل » إلى بهو الطابق الارضى ، حيث الفى المائدة معدة لشخصين ، إلى جوار سرير كبير ذى غطاء من قماش محلى برسوم تمثل أشــخاصا من الأتراك . وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن ، وقــد بدت بعض الملاءات النظيفة فى صوان من خشــب البلوط فى مواجهة النافذة .. وفى الأركان ، رصت جوالات الحنطة التى ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية .

وكان يزين البهو رأس لمنيرفا(١) رسم بالقلم الأسود ، واحيط باطار مذهب كتب تحته بالحروف القوطية : « إلى ابى العزيز » .. وقد علقت الصورة إلى مسمار فى وســط الحائط الذى تساقط طلاؤه الاخضر بفعل الرطوبة .

* * *

(١) كتابى : « منيرفا » كانت آلهة الحكمة عند القدماء .

● وجلست الفتاة إلى المائدة مع « شارل » .. وجرى الحديث : عن المريض — أولا — ثم عن الجو وموجات البرد القارس ، والذئاب التى تعدو خلال الحقول فى الليل ، وكانت الآنسة « روو » لا تستطيب الإقامة فى الريف ، لا سيما بعد أن غدت تضطلع وحدها — تقريبا — برعاية شئون المزرعة .. وكانت ترتجف أثناء تناول الطعام ، لفرط رطوبة الصالة ، مما كشف قليلا عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت أن تعضهما فى أويقات الصمت .

كانت رقبتها تظهر خلال ياقة مزدوجة ، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان تبدوان — لفرط نعومتهما — قطعة واحدة ، تنشق إلى شعبتين — عند منتصف الرأس — بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس ، ثم تعود الشعبتان إلى الالتقاء خلف الرأس فى كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ ، لا تكاد أذنا الفتاة تبينان خلالهما .. وكانت هذه أول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعرا منسقا بهذا الشكل ! .. أما وجنتا الفتاة فكانتا متوردتين .. وكانت ثمة عوينة فى إطار من الصدف تتدلى من زرين فى صدارها ، على نحو ما يفعل الرجال !

وصعد « شارل » ليودع الأب — « روو » — ثم هبط إلى البهو ثانية ، فاذا الفتاة واقفة إلى النافذة ، وقد أسندت إليها جبهتها ، وأخذت تتأمل الحديقة ، حيث أطاحت الريح بالعصى الخشبية الصغيرة التى كانت تسند شجيرات الفاصوليا .. وحين شعرت به ، التفتت إليه متسائلة : « أتبحث عن شىء ؟ » .. فأجاب : « سوطى من فضلك ! » .

وراح يبحث فوق السرير ، وخلف الأبواب ، وتحت المقاعد .. غير أن السوط كان قد سقط على الأرض بين الجدار والجوالات . وما لبثت « ايما » أن لمحته ، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه .. ودفعت الشهامة « شارل » إلى أن يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها ، فاذا به يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه .. وبادرت هى إلى الاعتدال وقد تضرج وجهها ، ثم التفتت إليه من فوق كتفها وهى تناوله سوطه المصنوع من عصب الثور .

وبدلا من أن يعود « شارل » إلى (برتو) بعد ثلاثة أيام كما وعد ، جاء فى اليوم التالى مباشرة ، ثم أخذ يتردد على الضيعة مرتين فى الأسبوع بانتظام ، عدا الزيارات غير المتوقعة التى كان يقوم بها من آن إلى آخر ، وكأنها محض مصادفات !

وسارت الأمور على ما يرام ، وتم شفاء المريض .. وعندما رؤى الأب « روو » — بعد ستة وأربعين يوما — يحاول السير وحده فى بيته العتيق ، اعتبر الناس مسيو « بوفارى » نطاسيا بارعا ، لا سيما حين أخذ الأب « روو » يردد أنه ما كان من الممكن أن يحظى بعلاج من أكبر أطباء (ايفتو) — أو (رووان) — يفوق العلاج الذى حظى به على يدى مسيو « بوفارى » !

ولم يفكر « شارل » فى أن يسأل نفسه عن سر المتعة التى يستشعرها فى التردد على (برتو) .. ولو أنه حاول التساؤل لما كان ثمة شك فى أن يعزو هذا الإسراف إلى خطورة

حال المريض ، أو إلى الكسب الذى كان يرتقبه . ولكن ، احقا كان هذا هو السبب فى أن زياراته لتلك الضيعة كانت تبدو — خلال شواغل حياته — كأحداث غير عادية ذات جاذبية وفتنة ؟

* * *

● كان فى أيام تلك الزيارات يستيقظ مبكرا ، ويرحل فى عجلة ، مستحثا دابته .. حتى إذا ترجل امام الدار ، مسح نعليه بالحشائش ، ولبس قفازيه الأسودين قبل أن يلج .. وكان يحس بالنشوة ، إذا ما بلغ الفناء ، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل ، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار ، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله ! .. واحب الأب « روو » الذى كان يربت يده ويدعوه بمنقذه ! .. كما احب وقع حذاءى « ايما » على أرض المطبخ النظيفة .. كان كعباها العاليان يضيفان طولا إلى طولها .. وكان النعل الخشبى يرتفع — إذا ما سارت أمامه — ليصطك بجلد الحذاءين فى صوت مكتوم .

وكانت الفتاة ترافقه دائما عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجى ، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده .. وكانا يظلان صامتين — إذ يكونان عادة قد تبادلا تحية الوداع من قبل — والهواء الطلق يهب حولهما فيعبث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة ، ويهز طرفى حزام مرولتها على ردفيها فيرفرفان كما ترفرف الاعلام .

وحدث فى إحدى المرات ان ذاب الجليد — وهى تقف عند مدخل الدار — فبلل الماء المنساب جذوع الأشجار ، واخذ

يتساقط من اسطح مبانى الضيعة ، فتحولت « ايما » إلى الداخل واحضرت مظلتها ففتحتها .. وكانت المظلة من الحرير المموج المتعدد الالوان ، المعروف باسم « رقبة الحمامة » ، فلما نفذت خلاله اشعة الشمس ، عكست على بشرة الفتاة الناصعة أطيافا متارجحة من الضوء .. وانبسطت أسارير وجهها وهى تستمرىء الدفء الذى بعثته الشمس فى جسمها ، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود ، محدثة طرقات متتابعة .

وكانت زوجة «شارل» لا تغفل — فى الفترات الاولى لتردده على (برتو) — السؤال عن المريض .. بل إنها افردت لمسيو « روو » صفحة بيضاء ، بديعة ، فى مفكرة الحسابات التى كانت تحتفظ بها . بيد انها لم تكد تعرف أن له ابنة حتى أخذت تتحرى ، فعلمت أن الآنسة « ايما » ، التى نشأت فى رعاية راهبات «الأورسلين»، قد حظيت بما يسمونه «تربية راقية»، ومن ثم فهى على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم ، كما تحذق التطريز والعزف على « البيانو » .. وتلك كانت الطامة !

واخذت الزوجة تردد لنفسها : « هذا اذن مبعث كل هذا الاشراق الذى يتجلى على وجهه كلما ذهب لزيارتها ! .. وهو السبب فى حرصه على ارتداء صداره الجديد ، مجازفا بتعريضه للمطر الذى قد يتلفه ! .. آه .. هذه المراة ! .. هذه المراة ! » .. وكرهتها بالغريزة !

وقد كانت فى بداية الأمر تسرى عن نفسها بتلميحات لم

يفهمها « شارل » ، ثم بإشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة ، ثم — أخيرا — باستجوابات مباغتة لم يكن يدرى كيف يجيب عليها .. « لماذا يتردد على (برتو) مادام مسيو « روو » قد شفى ، وما دام القوم لم ينقدوه بعد أتعابا ؟ .. آه ! .. لابد أن ذلك يرجع إلى وجود شخص هناك .. شخص يحسن الحديث ويحذق تنميقه .. شخص لبق حاضر البديهة .. وهذا هو ما يجتذبه .. انه يتوق إلى فتيات المدن ! » .

وتمضى فى مساجلتها قائلة : « وهل ابنة الأب « روو » من فتيات المدن ؟ .. هذا غير معقول ! .. لقد كان جدهم راعى غنم .. ولهم ابن عم أوشك أن يقدم إلى المحاكمة لاشتراكه فى نزاع مشين .. ففيم اذن التعالى ، وفيم اذن ارتداء الحرير للذهاب إلى الكنيسة فى أيام الآحاد ، وكأنها كونتة ؟ .. لولا محصول اللفت لعجز أبوها المسكين عن سداد ديونه فى العام الماضى ! » .

وسئم « شارل » هذه النغمة البغيضة ، فكف عن التردد على (برتو) ، لا سيما بعد إذ حملته « هلويز » — زوجته — على أن يقسم بالكتاب المقدس على أن لا يعود إلى تلك الزيارات ، وبعد أن غمرته بفيض من النحيب والقبلات فى ثورة عاتية من الحب ! .. بيد أن الرغبة القوية لم تلبث أن تمردت على استكانته وخنوعه .. وفى نوع من الرياء الساذج ، أخذ يؤول قسمه .. فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق فى أن يحبها .. لا سيما وأن زوجته عجفاء ، كبيرة الأسنان ،

لا تتخلى قط — وفى جميع فصول السنة — عن الشال الأسود الصغير ، الذى كانت أطرافه تتدلى بين لوحى كتفيها .. وكان قدها محشورا دائما فى ثوبها وكأنه مغيب فى غمد ! .. ثم أن أثوابها كانت قصيرة ، تكشف عن ساقين معروقتين . غاب قدماها فى جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيها .

وكانت أم « شارل » تفد لزيارتهما بين آن وآخر ، ولكنها لم تلبث أن أحست — بعد زمن — أن زوجة ابنها أخذت تستثيرها ضده ، إذ أصبحت المرأتان كسكينين تنحرانه بملاحظاتهما وتأنيباتهما .. فهو مخطىء إذ يلتهم كل هذا الطعام ! .. ثم ، لماذا يقدم الشراب لكل وافد ؟ .. ولماذا يركب رأسه ويرفض بإصرار ارتداء « الفانلات » ؟ !

* * *

● وحدث فى مستهل الربيع ، أن هرب أحد وكلاء الأعمال من (انجوفيل) ، حاملا معه كل ما كان مودعا فى مكتبه من أموال ، ومن بينها جل ثروة الأرملة «دوبيك» على أن «هلويز» وإن ظلت تمتلك دارها الخاصة فى شارع (سان فرانسوا) ، فضلا عن حصة فى إحدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك ، إلا أن هذه الثروة المزعومة — التى كان لها دوى عال — لم يبد من آثارها فى بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة .

ولم يكن بد من مناقشة هذا الأمر واستجلائه ، بعد هرب وكيل الأعمال .. فإذا بالمنزل قد استغرقته الرهن ، وإذا مصير ما كان مودعا لدى وكيل الأعمال قد بات لا يعلمه إلا الله وحده،

وإذا نصيبها فى السفينة لا يعدو ــ فى الحقيقة ــ ألف فرنك ! . .
إذن فقد كذبت السيدة الفاضلة ! . . وفى سورة الغضب ،
هشم مسيو « بوفارى » الأب مقعدا على البلاط ، واتهم زوجته
بأنها كانت السبب فى شقاء ابنهما ، إذ ربطته إلى تلك الفرس
العجفاء التى لا يفضل سرجها جلدها ! . . وكان الأبوان قد
وفدا على (توست) لبحث هذا الموضوع ، فدارت معارك
ارتمت « هلويز » خلالها على صدر زوجها وهى منهمرة الدمع ،
تناشده أن يحميها من أبويه . . فلما أراد « شارل » أن يدافع
عنها ، غضب والداه ورحلا . .

غير أن الصدمة كانت قد أحدثت أثرها . . فبينما كانت
« هلويز » تنشر الغسيل فى صحن الدار ــ بعد ثمانية أيام ــ
أصابتها نوبة جعلتها تبصق دما . . وفيما كان « شارل » منهمكا
فى أسدال الستار على النافذة ــ فى اليوم التالى ــ وظهره
نحوها ، هتفت : « آه يا الهى ! » ، وأرسلت زفرة غابت
بعدها عن الوعى . . وماتت ! . . ويا للعجب !

وإذ انتهت كل مراسم الدفن ، عاد «شارل» إلى المنزل . .
ولم يجد أحدا بالطابق الأرضى ، فصعد إلى الطابق الأول ،
وولج غرفة النوم، حيث رأى ثوب زوجته الراحلة معلقا بجانب
الفراش . . وأسند رأسه إلى مكتبه مستغرقا فى حلم حزين
حتى المساء . . فلقد كانت تحبه على أية حال !!

الفصل الثالث

● أقبل الأب « روو » ذات صباح يحمل إلى « شارل » أجر
علاج ساقه : خمسة وسبعين فرنكا من القطع فئة الأربعين
سنتا ، وديكا روميا ! . . وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه
ما وسعه ، قائلا وهو يربت كتفه : « أننى أدرك مدى مصابك،
فقد مرت بى نفس التجربة . . لقد كنت أنطلق فى الحقول
ــ بعد أن فقدت زوجتى المسكينة ــ لأخلو إلى نفسى ، فأجثو
عند ساق احدى الأشجار أبكى وأنادى الله ، وأهرف له بأقوال
سخيفة ! . . وكم وددت لو أننى أصبحت مثل آكل الحشرات
المعروف باسم « الخلد » ، الذى أراه على الأغصان والديدان
تتلوى فى بطنه ! . . بل لقد ذهبت إلى حد أن تمنيت لو أننى
نفقت كالدابة ! . . وكنت إذا ما ذكرت أن سواى من الأزواج
يضمون بين أذرعهم ــ فى تلك اللحظة ــ زوجات لطيفات
صالحات ، أدق الأرض بعصاى فى عنف ! . . كنت شبه
مجنون ، حتى لقد أمسكت عن الطعام . وكان مجرد التفكير فى
الذهاب إلى المقهى يثير اشمئزازى ! . . لعلك لا تصدق ! . .
على أن الأيام تتابعت ، يطرد كل منها الآخر فى رفق . .
وأقبل ربيع فى أعقاب شتاء ، وخريف فى ذيل صيف . . وما
لبث كل شيء أن تسرب رويدا وزايلنى قطرة اثر قطرة . . أو
بالأحرى ، رسب فى أعماقى ، إذ لابد من أن يبقى شيء فى
أغوار النفس ، أو لابد ــ كما يقولون ــ من أن يبقى فوق
الصدر ثقل جاثم ! . . على أننا يجب أن لا نسلم أنفسنا لليأس .
أو نطلب الموت ، إذا ما مات أحد من أحبابنا ، ما دام هذا

مصيرنا جميعــا ! .. فانفض الحزن عن نفســك يا مسيو « بوفارى » تجده يفارقك ! .. وتعال لزيارتنا ! .. اتعلم ان ابنتى تفــكر فيك بين وقت وآخــر ، وتتســاءل : « أهكذا نسينى ؟ » .. هاهو ذا الربيع مقبل عما قريب ، وسنشركك معنا فى اصطياد الارانب لتسرى عن نفسك قليلا ! » .

واخذ « شــارل » بالنصيحة ، فذهب لزيارة (برتو) ، حيث الفى كل شىء على ما كان عليه قبل خمسة اشهر .. وكانت اشجار الكمثرى قد ازهرت واستطاع الأب « روو » أن يسير على قدميه ، فكان يغدو ويروح باعثا الحيــاة فى المزرعة .. ورأى الرجل ان من واجبه أن يبــالغ فى إكــرام الطبيب إلى اقصى حد ، نظرا لنكبته المحزنة ، فطلب إليه أن لا يرفع قبعته ، واخذ يتكلم إليه بصوت خفيض ـ وكأنه يتحدث إلى مريض ـ بل إنه أظهر غضبه لانهم لم يعدوا للزائر شيئا اخف من المعتاد ، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة ، واخذ يروى له النوادر ، فاذا بشارل ينسى نفسه ويضحك .. ثم لا يلبث أن يذكر زوجته فيعود إلى وجومه . وعندما قدمت لهما القهوة ، لم يعد يفكر فيها !

واخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اعتياده على الحياة بمفرده . بل إن لذة الحرية التى عادت إليه حديثا، جعلته أكثر احتمالا لحياة الوحدة . فقد اصبح فى وسعه ان يغير مواعيد طعامه ، وان يخرج ويدخل دون ان يضطر إلى تقديم حساب عن حركاته ، وأن يمد اطرافه على طول السرير وعرضه إذا ما شــعر بالتعب . وهكذا اخــذ يعنى بنفســه ويدللهــا ، ويستمرىء ما كان يوجه إليه من عبارات التعزية !

ولقد عاد عليه موت زوجته ـ فوق كل هذا ـ بنفع فى مهنته ليس بالقليل ، إذ ظل الناس شهرا بعد وفاتها يرددون : « ياللشاب المسكين ! .. وياللنكبته ! » .. وذاع اسمه ، فازداد عملاؤه .. كما اصبح يذهب إلى (برتو) كلما شاء .. كان لديه امل بغير ما هدف واضح .. وفى نفسه سعادة غامضة ! .. واخذ يلاحظ ، كلما سوى لحيته بالفرجون امــام المرآة ، ان وجهه يزداد سماحة !

* * *

● وفى ذات يوم ، وصل إلى (برتو) حوالى الســاعة الثالثة ، والقوم فى الحقول ، فدلف إلى المطبخ .. ولم يفطن فى البداية إلى ان « ايما » كانت هنــاك ، إذ كانت النوافذ مغلقة ، ومن خلال المصاريع ، كانت الشمس تلقى على الأرض خيطا من اشعتها طويلا ، دقيقا ، يتكسر على زوايــا قطع الأثاث ، ويتذبذب على السقف .. وكان الذباب يتسلق جدران الاكواب الزجاجية التى كانت موضوعة على المائدة ، ويرسل طنينا وهو يغرق فى بقايا التفاح المتخلفة فيها .. وكان الضوء المنساب من المدخنــة يضفى على بقايا الفحم ـ المتخلفة على قرص المدفــأة المعدنى ـ لمعة مخملية ، ويخلع على الرمــاد البارد غلالة زرقاء ..

وكانت « ايما » تجلس بين النافذة والمدفأة ، وهى منهمكة فى الحياكة .. ولم تكن ترتدى وشاحها ، فلاحظ « شارل » ان قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين .

وعرضت عليه ـ كعادة اهل الريف ـ ان تأتيه بشيء من الشراب ، فتمنع .. والحت ، ثم دعته أخيرا ـ ضاحكة ـ إلى ان يتناول معها كأسا من الخمر .. واحضرت من الصوان زجاجة بها شراب خفيف ، وكأسين صغيرتين ، ملأت احداهما حتى الحافة ، بينما لم تكد تسكب فى الأخرى شيئا . وقدمت إليه الاولى ، وبعد أن قرعتها بالثانية ، رفعت هذه إلى شفتيها .

وإذ كانت الكأس شبه فارغة ، فقد اضطرت إلى ان تطوح راسها إلى الوراء ، لترشف ما بها من قطرات .. واخذت تضحك ـ وهى على هذا الوضع ، وشفتاها ممدودتان إلى الأمام ، ورقبتها مشدودة ـ إذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب فى فمها ، بينما امتد لسانها من بين اسنانها الدقيقة ليلعق ما فى القاع !

وعادت إلى الجلوس ، مستأنفة عملها فى رفو جورب ابيض من القطن ، وقد نكست راسها ، وكفت عن الكلام . وظل « شارل » صامتا هو الآخر .. وكان الهواء ينساب من اسفل الباب ، حاملا بعض الغبار ، فأخذ يرقب تموجاته ، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض فى راسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة فى مكان ما بأقصى الفناء . وكانت « ايما » ترطب وجنتيها ـ بين آن وآخر ـ بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخامدة .

وكانت منذ اوائل الموسم تعانى دوارا ، فسألت «شارل» عما إذا كان الاستحمام فى البحر يفيدها .. ثم تطرقت إلى



كانت « إيما » تجلس بين النافذة والمدفأة وهى منهمكة فى الحياكة

الحديث عن الدير الذى تعلمت فيه ، فتحدث « شارل » بدوره عن مدرسته ، وهكذا اتصل الحديث بينهما . وما لبثا ان صعدا إلى غرفتها ، حيث أطلعته على كراساتها الموسيقية ، والكتيبات التى نالتها كجوائز ، والتيجان المجدولة من أوراق البلوط التى كانت تحتفظ بها فى قاع صوان .. كما حدثته عن امها ، وعن المقبرة .. بل لقد أرشدته — فى الحديقة — إلى الحوض الذى كانت تجمع منه الزهور فى يوم الجمعة الأول من كل شهر ، لتضعها على قبر امها .. بيد ان البستانى الذى يعنى بالحديقة ، لم يكن ليفهم عن الأزهار شيئا .. كذلك كان الخدم جميعا .. أغبياء ، لا تجنى من ورائهم الا المتاعب !

وكانت تتمنى ان تعيش فى المدينة ، ولو خلال الشتاء — على الأقل — وإن كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف اكثر مللا فى هذا الفصل منه فى الشتاء .. وكان صوتها يتغير تبعا لما تقول : فهو تارة صاف ، واخرى حاد .. وقد يسرى فيه فجاة خمول ينتهى به إلى ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها .. ثم إذا به بعد لحظة قد انقلب مرحا .. وعيناها ! .. كانتا تحدقان فى براءة ثم إذا بهما فى نصف إغماضة ، إذ يشرد فكر صاحبتهما أو تغرق فى السآمة !

واخذ « شارل » — اثناء عودته فى المساء — يستعيد عباراتها واحدة إثر واحدة ، يحاول أن يتذكرها ، وأن يربط بعضها ببعض ، ليستكمل صورة واضحة للحياة التى كانت تحياها قبل أن يعرفها . غير انه لم يستطع قط ان يتمثلها فى صورة تغاير تلك التى رآها عليها فى اللقاء الأول .. او تلك

التى تركها عليها فى الوداع القريب .. وساءل نفسه عما قد تصير إليه إذا ما تزوجت .. ثم ، بمن تتزوج ؟ .. واأسفاه ! .. إن الأب « روو » واسع الثراء . وهى ! .. كم هى جميلة !

وكان وجه « ايما » لا يلبث ان يعود فى اصرار ليستقر امام عينيه .. واخذ يتردد فى اذنيه صوت رتيب ، فى طنين مستمر لحوح : « هب انك تزوجت ! .. نعم ، ماذا لو تزوجت ! »

* * *

● ولم يجد إلى النوم سبيلا فى تلك الليلة .. كان يحس بضيق وظما .. وما لبث ان نهض ليشرب من الابريق ، وفتح النافذة ، وراح يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم .. كان النسيم دافئا .. وتناهى إليه من بعد نباح الكلاب .. ثم أدار رأسه فى اتجاه (برتو) ..

وخطر له انه لن يخسر شيئا على اية حال ، فمنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة .. غير ان تهيبه وحيرته فى اختيار العبارة المناسبة ، كانا يعقدان لسانه كلما واتته الفرصة ..

ولم يكن ليضير الأب « روو » ان يتخلص من ابنته التى لم تكن ذات نفع كبير فى بيته .. وكان يلتمس لها — فى قرارة نفسه — العذر ، إذ يدرك انها اذكى من ان تشتغل بالزراعة .. تلك الحرفة التى لعنتها السماء ، حتى ان احدا لم يصبح —

باشتغاله بها ـ من أصحاب الملايين ! لقد كان يخسر كل سنة ، بدلا من أن يجنى من ورائها ثراء .. فبالرغم من تفوقه فى المساومة ، وإلمامه بأساليب التجارة الماكرة ، كانت الزراعة بمعناها الكامل — وبما تنطوى عليه من فنون إدارة المزارع — اقل ملاءمة له منها لبقية الناس . فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعية واختيارا .. وكان فى إنفاقه بعيدا عن الاقتصاد ، حريصا على الغذاء الطيب ، والمسكن الدافىء ، والفراش الوثير .. كان يحب نبيذ التفاح ، والأفخاذ المحمرة ، والشاى الممزوج بالخمر مزجا جيدا . وكان يتناول وجباته فى المطبخ وحيدا ، امام المدفأة ، على منضدة صغيرة تعد مقدما ثم تحمل إليه ، كما يحدث على المسرح !

وإذ لاحظ ان وجنتى «شارل» كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته ، توقع ان يطلب منه يدها يوما ما ، فاخذ يتدبر الامر باكمله مقدما .. كان يراه وضيعا بعض الشىء ، لا يتمثل فيه الصهر الذى كان يتمناه .. غير أنه كان يعرف عنه حسن السلوك ، والاقتصاد .. وكان متعلما .. ويلوح انه لن يساوم كثيرا فيما يتعلق بالصداق الذى سيقدمه الأب لابنته ! .. وإذ كان مضطرا إلى أن يبيع اثنين وعشرين غدانا من ارضه ، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والنجار ، ولإصلاح دولاب المعصرة ، فقد اسر لنفسه قائلا : « لسوف اعطيه « ايما » إذا طلبها » !

* * *

● وذهب « شارل » إلى (برتو) ليقضى ثلاثة أيام ، فى عيد القديس ميخائيل . وانقضى اليوم الأخير كسابقيه ، فى تردد وارتجاء .. فلما تأهب للرحيل ، رافقه الأب بعض المسافة .. وسلكا طريقا كثير الحفر ، حتى إذا اوشكا على الافتراق ، دار بخلد « شارل » ان الساعة قد حانت ، إذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهى عند السياج الخارجى للضيعة .. ولم يكد يجاوزه ، حتى تمتم قائلا : « مسيو روو .. اريد ان افاتحك فى أمر » .. ووقف السيد ، ولكن «شارل» اخلد إلى الصمت !

وقال الأب ضاحكا فى رفق : « حدثنى بامرك .. او تظن اننى لم ادرك كل شىء ؟ » .

فتمتم « شارل » قائلا : « ايها الأب روو .. ايها الأب روو ! .. »

وواصل المزارع حديثه قائلا : « اننى شخصيا لا اتمنى افضل منك .. ولكن للبنية رايها ، ولا بد من سؤالها .. فأبطىء فى مشيك ريثما اعود إلى البيت .. وليس من الضرورى ان ترجع — إذا ما اجابت بالقبول — حتى لا يفطن الناس إلى شىء ، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال .. ولكن ، لا تقس على اعصابك .. سادفع مصراعى النافذة إلى الجدار ، وافتحهما على وسعهما ، إشارة بذلك .. وتستطيع ان تتبين هذه الاشارة من الخلف ، إذا ما انحنيت على السياج » .

وابتعد الأب ..

وربط « شارل » جواده إلى شجرة ، وهرع إلى الطريق الخلفى الضيق ، واخذ ينتظر .. وانقضى نصف ساعة .. واحصى بعده تسع عشرة دقيقة .. وفجاة ، سمع صــوت ارتطام بالجدار .. فقد فتح مصراعا النافذة .. وظلا يهتزان إثر اصطدامها بالحائط !

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالى ، حتى كان فى المزرعة ! وتضرج وجه « ايما » حين دخــل الدار ، وإن حاولت ان تضحك قليلا لتبدو متمالكة لنفسها . وقبل «شارل» صهر المستقبل .. ثم اخذوا يتحدثون فى المسـائل المالية ، وإن كانت أمامهم فسحة من الزمن ، إذ لم يروا أن يتم الزواج قبل ان ينتهى حداد « شارل » ، اى حوالى ربيع العام التالى .

* * *

● وانقضى الشتاء فى ترقب .. وشغلت الآنسة « روو » بجهازها الذى ارسل فى طلب بعضه من (روان) . وحاكت لنفسها اقمصة وقلنسوات للنوم على نمــاذج اســتعارتها ، وكانوا — خلال زيارات « شارل » للمزرعة — يتحدثون عن تدابير العرس ، ويتساءلون عن القاعة التى ستقام فيها وليمة الزفاف ، ويحلمون باصناف الطعام التى ستقدم ، ويتناقشون فى الصنف الذى ستفتتح به المــائدة !

وكانت « ايما » تفضل أن يتم الزفاف فى منتصف الليل ، على ضوء المشاعل . بيد أن الأب « روو » لم يستسغ هــذه الفكرة ..

وهكذا اقيمت وليمة العرس اخيرا ، فحضرهــا ثلاثــة واربعون شخصا ، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة ، ثم استأنفوا الوليمة فى اليوم التالى ، والايــام التى اعقبته .. إلى حد ما !

———●———

الفصل الرابع

● أخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة ، فى عربات متباينة ، منها ذات المقعد الواحد والجواد الواحد ، ومنها ذات العجلات الأربع والمقاعد المتقابلة ، ومنها عربات عتيقة الطراز بغير مظلات ، وعربات مقفلة بستائر من الجلد . ومن القرى المجاورة اقبل شبان فى عربات نقل مكشوفة ، اصطفوا عليها مستندين بايديهم إلى حوافها الخارجية كى لا يسقطوا منها وهى تخب بهم مهتزة فى عنف . وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة ، مثل (جودرنيل) (ونورمانفيل) و (دوكانى) .. إذ كان اهل العروسين قد دعوا جميع أقارب الأسرتين ، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الأصدقاء ، وكتبوا إلى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل !

وكانت فرقعة السياط تسمع من وقت إلى آخر خلف السياج ، فينفتح الباب ، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الأولى من سلم المدخل ، حيث تقف فجأة ، ويخرج ركابها من كل جانب يدلكون ركبهم ، ويمطون اذرعهم ، وقد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة ، وارتدين ازياء المدن ، وتحلين بسلاسل تنتهى بساعات ذهبية ، واتشحن بحرامل تتقاطع اطرافها عند الخصور ، او بشيلان صغيرة ملونة تثبت أطرافها إلى الظهور بدبابيس . وكان الأطفال فى ثياب شبيهة

بثياب الرجال ، وقد لاح عليهم انهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة .. بل كان الكثيرون منهم يخطرون فى اول زوج من الأحذية الجلدية حصلوا عليه فى حياتهم ! .. وسارت إلى جوارهم فتيات تتراوح اعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، لا شك فى انهن اخواتهم او بنات اعمامهم واخوالهم ، وقد ارتدين ملابس حفلة « التناول » الاول ، بعد ان اطيلت أطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة ! .. وكن يسرن صامتات ، متوردات الخدود ، مبهورات .. ولاحت شعورهن لزجة لما عولجت به من دهان معطر بالورد .. كما بدا عليهن الحرص على أن لا يعرضن قفازاتهن للاتساخ ..

ولما لم يكن عدد السياس كافيا ، فقد شمر الرجال عن سواعدهم ، وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات ، رغم ثيابهم التى تباينت تبعا لمراكزهم الاجتماعية ـ بين «ردنجوت» ، وملابس سهرة ، وبزات فاخرة او عادية .. وكلها من الملابس التى تعنى بها الأسرات فلا تخرجها من الخزانات الا فى المناسبات ! .. وكانت بينها « الردنجوت » ذات الذيول الضافية تداعبها الريح ، او ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنها الحقائب .. وبينها بزات من الصوف السميك ، يرتدى اصحابها قلنسوات أحيطت حوافها باطارات من نحاس .. ومعاطف قصيرة ثبت فى خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنهما عينان .. وقد بدت ذيولها وكأنما سوتها بلطة نجار ! .. وكان الرجال الذين سيجلسون فى ذيل المائدة يرتدون « اقمصة المناسبات » ذات الياقة المسدلة على

الكتفين ، والثنيات الرفيعة فى الظهر ، وقد شدت تحت الخصر بحزام مثبت فى ثناياها .. كما شدت فوق الصدور — بفعل النشاء والكى — فبدت كأنها دروع !

وظهر واضحا أن الجميع قصوا شعورهم حديثا ، إذ كانت الآذان بارزة على جوانب الرؤوس .. كما كانت الذقون حليقة ناعمة . وكان بعضهم قد اضطر إلى أن يبدأ رحلته فى مطلع الفجر ، فلم تكن ثمة إضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم ، مما ترك خدوشا ممتدة تحت الأنف ، أو جراحا متسعة بحجم العملة فئة الفرنكات الثلاثة ، وقد ألهبها نسيم الصباح البارد أثناء الطريق ، فإذا الوجوه البيضاء المشرقة ، تتناثر فيها بقع وردية !

* * *

● وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة ، فذهبوا إليها على الأقدام .. وعادوا بالطريقة عينها بعد أن تم الاحتفال فى الكنيسة . وكان الموكب متماسكا فى بادىء الأمر ، فبدا كأنه شال موشى بالألوان ، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء .. ثم لم يلبث أن استطال ، وتجزأ إلى مجموعات ألهاها الحديث عن اللحاق بغيرها ..

أما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التى حليت بالأشرطة ، يتبعه العروسان ، ثم الأهل ، فالأصدقاء ، دون ما ترتيب .. وفى المؤخرة ، سار الأطفال يلهون بقطف زهور الشوفان ، أو يلعبون فيما بينهم دون أن يفطن إليهم أحد .

وكان ثوب « إيما » مسرف الطـــول ، فكان ذيله يتجرر خلفهـــا ، فتقف بين وقت وآخـــر لترفعـــه ، ولتنزع عنـــه — بأصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز — ما علق به من أعشاب خشنة وأشواك ، بينما يقف «شارل» ساكنا فى انتظارها ! ..

وكان الأب « روو » يرتدى قبعتـــه الحريريـــة الجديدة ، ومعطفه الأسود الذى بلغ كماه أظافر يديه ، وقد تأبط ذراع السيدة « بوفارى » الأم .. أما السيد « بوفارى » الأب — الذى كان يحتقر فى قرارة نفسه كل هؤلاء الناس ، والذى لم يرتد سوى « ردنجوت » ذات صف واحد من الأزرار ، على نمط الملابس العسكرية — فقد أخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاها تتضرجان لها ، دون أن تدرى بماذا تجيب ! .. فى حين انصرف بقية الحضور إلى الحديث فى شئونهم ، أو إلى التغامز خفية — بعضهم على بعض — أو إلى استثارة المرح فى أنفسهم تأهبا للحفل المرتقب ..

وكانت أنغام العازف — الذى واصل العزف خـــلال الحقول — تعلو إذا ما جنحوا إلى الصمت .. فإذا ما أحس بأنه سبق الموكب بمسافة طويلة ، وقف ليسترد أنفاســـه ، وليعالج قوس قيثارته بـ « القلفونية » ليشد أوتارها .. ثم يســتأنف سيره رافعـــا مقبض القيثـــارة تارة ، وخافضـــه أخرى .. والضجة المنبعثة تحمل الطيـــور الصـــغيرة على مبارحة مكانها ..

ومدت المائدة تحت مظلة العربات ، وعليها أربع قطع من « بيت الكلاوى » ، وستة أطباق من « صلصة » الدجاج ،

و « كباب الحلة » المصنوع من لحم العجول ، وثلاث فخدات مشوية ! .. وتربع فى وسط المائدة خنزير صغير السن ، بديع المنظر ، جيد الشواء ، تحيط به اربعة حبــال من « سجق » الخنزير المطبوخ ! .. وفى أركان المائدة ، استقرت قوارير الخمر ، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبدا كثيفا حول سداداتها . واترعت الاقداح مقدما بالنبيذ إلى حوافها ، وكانت القشدة الصفراء تترجرج فى اطباقها الكبيرة لاقل حركة تصيب المائدة ، وقد نقشت عليها الحروف الاولى من اسمى العروسين فى زخرفة عربية جميلة .

وكانوا قد عهدوا باعداد الحلوى والفطائر إلى صانع من (ايفتو) استقر بالبلدة حديثا ، فبذل عناية فائقة ، حتى لقد احضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف ، انتزعت صيحات الإعجاب من الحاضرين .. إذ كانت لهــا قاعدة من الورق المقوى تمثل معبدا ذا اروقة واعمــدة تحف بهــا التماثيل .. وتناثرت فى الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب .. وفى الطابق الثانى منها ، صنع الرجل برجا من فطير « سافوا » ، تحيط به تحصينات صــغيرة من الحلوى واللــوز والزبيب وفصوص البرتقال .. وفوق سطح هذا الطابق ، صنع من الحلوى ما يمثل حقلا اخضر به صخور غارقة فى بحيرات من المربى ، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق .. وفى الحقل ارجوحة من الشيكولاتة تعلق بهــا تمثال صغير للحب ، وقد توج عمودا الارجوحة ببرعمين من الورد الطبيعى !!

وظل القوم ياكلون حتى المساء .. وكلما امضهم طول

الجلوس ، نهضوا يتمشون فى الافنية ، او يمارسون بعض الالعاب فى المخزن .. ثم لا يلبثون ان يعودوا إلى المائدة ! .. وغلب النوم بعضهم قبيل الختام ، فتصاعد غطيطهم ، بيد ان النشاط لم يلبث ان سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة ، فراحوا يرددون الاغانى ، ويتبارون فى العاب القوى وحمل الأثقال والحيل التى تعتمد على المهارة اليدوية .. وتبارى بعضهم فى رفع العربات فوق اكتافهم .. وفى تبادل النكتات ، وتقبيل السيدات !!

وفى المساء ، تاهبوا للرحيل . ولكن شد الخيول إلى العربات ــ بعد ان اتخمت بالشــوفان ــ كان من اصــعب العمليــات ، إذ راحت تركل ، وتتمــرد ، وتكسر الأعنــة ، واصحابها يسبون او يضحكون .. وكنت ترى طوال الليل ــ وفى ضوء القمر ــ عربات انطلقت على طول الطريق ، تعدو خيولها الجامحة ، فتهبط بها فى الحفر حينا ، وتقفز بها فوق اكوام الاحجار حينا آخر .. ثم إذا بها تتسلق المنحدرات ، وقد اطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالاعنة !

اما من بقى فى (برتو) من ضيوف العرس ، فقد قضوا الليل يشربون فى المطبخ ، بينما نام الأطفال تحت المقاعد .

❊ ❊ ❊

● وكانت العروس قد سالت اباها ان يجنبها المداعبات التى يتعرض لها العرسان فى ليلة الزفاف .. بيد ان سماكا من ابناء عمومتهــا راح ينفث المــاء من ثقب بــاب مخــدع العروسين ، رغم انه لم يحمل إليهما هدية ما .. سوى زوج

من سمك « موسى » !! .. على أن الأب « روو » اقبل فى لحظة مناسبة ليصده عن المضى فى نفث الماء ، مبينا له أن دقة الموقف لا تسمح بمثل هذه الدعابة المستهجنة .. ومع ان ابن العم انصرف عن دعابته ، إلا أنه لم يقتنع تماما بمنطق الأب « روو » ؛ واتهمه فى قرارة نفسه بالصلف والكبرياء . وما لبث ان انضم — فى احد الاركان — إلى اربعة او خمسة من المدعوين كانت المصادفات قد ساقت إليهم اردأ قطعة من اللحم حملتها المائدة ؛ فخيل إليهم ان ثمة تعمدا لاساءة اكرامهم ، وراحوا يتهامسون متغابين مضيفهم ، متمنين له — فى الفاظ غير صريحة — كل شر !

اما السيدة « بوفارى » — الأم — فقد ظلت طيلة اليوم صامتة ؛ إذ لم يحفل احد باستشارتها بصدد ثوب العروس ، او إعداد الوليمة . وما لبثت ان اوت إلى فراشها فى وقت مبكر .. وبدلا من ان يتبعها زوجها ، ارسل فى طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور) ، وبقى حتى الصباح يدخن ، ويحتسى مزيجا من الخمور — « كوكتيل » — لم يكن مألوفا لدى اهل الريف ، مما رفع من شأنه فى أعينهم !

وما كان « شارل » يوما حاضر النكتة والفكاهة ، ومن ثم لم يتألق فى حفل عرسه ، بل انه كان يرد فى غباء على ما وجهه المدعوون إليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات ، منذ جمعتهم الوليمة ..

على أنه لاح فى اليوم التالى رجلا آخر ، يناقض ذاك الذى كانه فى الليلة السالفة ، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر !

اما العروس ، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول فى نفسها ، حتى ان اكثر الحاضرين فراسة لم يستطع ان يتكهن بشىء عن حالتها النفسية ، واكتفوا بأن راحوا يمعنون فى التحديق فى وجهها كلما مرت على مقربة منهم ! .. على ان « شارل » لم يعمد إلى شىء من التكلف ، بل اخذ يدعوها بزوجته ، ويخاطبها فى غير كلفة ، ويسأل عنها كل إنسان ، ويبحث عنها فى كل مكان — دون ما حرج — كلما افتقدها ! .. وكثيرا ما كان يقتادها إلى الأفنية ودروب الحديقة .. وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه ، او وهو يسير إلى جوارها ، وقد مال نحوها ورأسه يفسد استواء صدارها المكوى !

* * *

● ورحل العروسان بعد الزفاف بيومين ، إذا لم يكن « شارل » ليملك ان يغيب عن مرضاه امدا اطول مما غاب ..

وصحبهما الأب « روو » فى عربة حتى (فاسونفيل) ، حيث قبل ابنته مودعا ، ثم عاد ادراجه .. ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريبا حتى توقف ، ثم التفت إلى العربة ، فلما رآها تبتعد وقد اخذت عجلاتها تثير الغبار ، ارسل زفرة طويلة ، وذكر عرسه ، والأيام الخوالى .. وارتدت إلى ذهنه ذكرى اول حمل لزوجته .. وتصور ما كان عليه من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل ابيها إلى منزله ، إذ اردفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد .. فقد تم عقد القران فى راس السنة ، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع ..

وكانت تتشبث به باحدى ذراعيها ، بينما امسكت باليد الاخرى سلتها .. والريح تداعب اشرطة شعرها ـ المنسق على طريقة أهل (كو) ـ فتدفع أطرافها لتلمس فمه .. ومن آن لآخر ، كان يلتفت إليها ، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردى الصغير ، الذى أشرق بابتسامة صامتة ، تحت قرص ذهبى ازدانت به قبعتها .. وكانت تدس أصابعها فى صدره بين الفينة والفينة ، التماسا للدفء !

آه ! .. لقد تلاشى كل ذلك فى ادراج الزمان ! .. لو أن طفلهما الأول عاش ، لكان اليوم فى الثلاثين من عمره !

والتفت خلفه فلم ير شيئا فى الطريق .. وغشيته كآبة موحشة ، وقد خيل إليه ان نفسه غدت كالبيت الخاوى المهجور ! .. وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الاليمة ، فى راسه الذى اثقله الشراب .. واحس برغبة فى ان يعرج على الكنيسة ، بيد انه خشى أن تزداد شجونه ، فيمم صوب داره راسا ..

ووصل السيد « شارل » وزوجته إلى (توست) فى نحو الساعة السادسة ، فاذا الجيران فى النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم ..

وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما ، واعتذرت لأن العشاء لم يعد بعد ، ثم سألت السيدة ان تتفقد منزلها ، ريثما تعد المائدة .

الفصل الخامس

● كان المنزل مشيدا من الطوب ، وواجهته نحو الطريق .. وخلف الباب ، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة ، معلقا مع عنان جواد ، وقلنسوة من الجلد الاسود .. وعلى الأرض ، قبع فى أحد الأركان زوج من احذية الركوب ذات الرقاب الطويلة ، يعلوه بعض الطين الجاف .. وإلى اليمين ، امتدت الردهة الوحيدة التى كانوا ياكلون فيها ويجلسون .. وقد علقت إلى أحد الجدران الرديئة الطلاء ، ورقة صفراء اللون ، وفى طرفها الاعلى باقة من الزهر الباهت اللون . وكانت الستائر القطنية البيضاء ـ المحلاة بشرائط حمراء ـ تتقاطع على النوافذ ، بينما كان يلمع على حافة المدفأة الضيقة ، بندول ساعة يعلوه رأس « ابقراط »(١) وقد قام إلى جانبه شمعدانان من الفضة ، تحت مظلتين بيضاويتى الشكل ..

وفى الناحية الاخرى من المدخل ، كان مكتب «شارل» .. حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريبا ، تضم منضدة وثلاثة مقاعد ، فضلا عن مقعد خاص للمكتب .. واحتل الارفف الستة فى مكتبة من خشب القرو ، قاموس العلوم الطبيعية باجزائه التى لم تفض صفحاتها بعد ، رغم ما لحق بغلافاتها من تلف ، بسبب عمليات بيعها المتتالية !

---

(١) كتابى : ابقراط هو ابو الطب عند الاغريق .

وكان عبير الطعام ينساب من المطبخ متسربا خلال جدران غرفة المكتب أثناء فحص المرضى .. كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع فى المطبخ ، فضلا عن قصصهم بحذافيرها !

وكانت تلى غرفة المكتب مباشرة ، حجرة كبيرة ، مهدمة ، تطل على الفناء الذى يضم الحظيرة .. وكانت تحوى فرنا ، غير أنها كانت تستخدم كمخزن للحطب ، والأغذية ، والمهملات ، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة ، والبراميل الفارغة ، وآلات الزراعة المهملة ، واكداس من أشياء أخرى مغبرة ، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه .

اما الحديقة فكانت مستطيلة ، يحدها جداران من الطين — حفت بهما أشجار المشمش — وتنتهى بسياج من الاشواك يفصل بينها وبين الحقول . وكانت تتوسطها « مزولة » — ساعة شمسية — من الاردواز ، اقيمت على قاعدة حجرية .. واربعة احواض من نبات « النسرين » تحيط — فى انتظام — بحوض خامس زرعت فيه نباتات اكثر نفعا .. وتحت شجيرات السرو ، فى الطرف الاقصى للحديقة ، قام تمثال من الجص يمثل قسا يقرأ فى كتاب الصلوات !

وصعدت « ايما » إلى الطابق العلوى ، فاذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الأثاث تقريبا ! .. أما الحجرة الثانية — وهى مخدع العروسين — فكانت تضم سريرا من خشب « الأكاجو » داخل نجوة فى الجدار احاطت بها ستائر حمراء ! .. وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف ..

وإلى جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور البرتقال الجافة ضمتها اشرطة من « الستان » الأبيض .. وكانت باقة عروس .. العروس الأولى !!

ولاحظ « شارل » اتجاه نظرات « ايما » إلى الزهور ، فتناولها وذهب بها إلى المخزن .. وجلست « ايما » فى مقعد مريح أثناء ترتيب حاجياتها ، وقد سرح خاطرها إلى باقة عرسها التى وضعت فى صندوق من الورق المقوى .. وساءلت نفسها — وهى مسترسلة مع احلامها — عما يمكن ان يحل بتلك الباقة .. لو انها ماتت بدورها !

* * *

● انفقت « ايما » الأيام الأولى فى تدبير التعديلات التى شاءت ان تجريها فى البيت ، فنزعت المظلات — « الاباجورات » عن المشاعل والصقت بها كساء جديدا من الورق ، واعادت طلاء السلم ، ووضعت حول المزولة — فى الحديقة — بعض المقاعد .. بل إنها راحت تفكر فى الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الأسماك !

وإذ كان زوجها يعلم أنها تحب النزهة فى العربات ، فقد وفق إلى عربة مستعملة ، زودها بمصابيح جديدة ، و « رفارف » من الجلد ..

وأصبح « شارل » هانىء البال ، لا يحمل هما .. حياته وجبات يتناولها مع « ايما » .. ونزهات مسائية برفقتها فى الطريق العام ، وكان يستشعر متعة فى العبث بضفائرها ،

وفى رؤية قبعتها الخوصية معلقة إلى مزلاج النافذة .. وفى كثير من الأمور الشبيهة ، التى لم يخطر له يوما ببال أنها يمكن أن تكون مبعث سرور !

وكان ، إذا ما استيقظ فى الصباح وظل مستلقيا إلى جوارها على السرير ، يتأمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النوم ينسدلان إلى منتصفيهما .. وكان إذا حدق فى عينيها عن قرب ، خالهما أكثر اتساعا .. لا سيما وهى تفتح جفنيها وتطبقهما مرات متتابعة ، ريثما تالفان الضوء عند اليقظة ! .. وكانتا تبدوان سوداوين فى الظلام ، وزرقاوين قاتمتين فى ضوء النهار .. بل لقد كان يخالهما تتالفان من طبقات متباينة من الوان تبدو كثيفة فى اغوار الحدقة ، ثم تشف شيئا فشيئا كلما اقتربت من السطح !

وكانت نظراته تضل فى اعماق هاتين العينين .. عينيها ! .. وكان يرى صورته — حتى الكتفين — تنعكس مصغرة على حدقتيهما ، وقد لف منديلا حريريا حول راسه ، وترك صدر قميصه مفتوحا ..

* * *

● فاذا ما نهض وتهيأ للخروج ، وقفت « ايما » عند النافذة تودعه ، ثم تظل مستندة إلى حافتها بين آنيتين من زهور « الجيرانيوم » ، وهى فى ثوب فضفاض .. وبينما ينهمك «شارل» — وهو فى الفناء — فى تثبيت مهمازيه ، رافعا قدميه تباعا إلى حافة السور ، كانت تاخذ فى الحديث إليه من

اعلى ، وهى تلتقط بفمها نتفا من الزهر او من العشب الأخضر ، ثم تنفثها نحوه ، فتتطاير فى الهواء مرفرفة فى حركة نصف دائرية كالعصفور ، حتى تعلق بالشعر الاشعث المنتثر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التى تقف لدى الباب بلا حراك .. وما إن يعتلى « شارل » صهوة الجواد ، حتى يرسل إليها قبلة فى الهواء ، فترد بايماءة ، ثم تغلق النافذة ، بينما يشرع هو فى رحلته فينطلق فى محاذاة الجسر الذى ينبسط أمامه كشريط من غبار لا نهاية له ، ويمضى فى دورب بين الأشجار الوارفة ، وازقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها إلى الركبة .. والشمس تستلقى على منكبيه ، وهواء الصباح يملأ خياشيمه .. وقد افعم فؤاده بما ناله فى ليله من لذات .. وسرت الطمانينة إلى نفسه ، والراحة إلى جسده !

وكان يواصل السير وهو يجتر سعادته فى تذوق من يتلمظ بعد الغداء بما خلفه « عش الغراب » فى فمه من طعم ! .. متى كانت الحياة رفيقة به كما هى الآن ؟ .. افى ايام الدراسة ، حين كان محبوسا بين جدران المدرسة ، وحيدا وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعابا للدرس ، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه ، ويعيرونه بأن احدا لا يزوره كما كانت امهاتهم يفدن لرؤيتهم — فى حجرة الاستقبال بالمدرسة — وقد حملن لهم الفطائر ؟ ! .. أم فى فترة دراسة الطب ، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التى كان من الممكن أن تغدو عشيقته ؟ ! .. أم فى الشهور الأربعة عشر التى

عاشها زوجا لتلك الأرملة التى كانت قدماها تستحيلان — فى السرير — إلى قطعتين من الثلج ؟!

ما ابعد كل هذا عن حاضره ، وقد أصبح يمتلك — ما عاش — هذه المراة الجميلة التى يعبدها ! .. لقد أصبح العالم فى نظره لا يتجاوز محيط « جونلتها » الحريرية !

وكان يلوم نفسه إذ يخيل إليه انه لا يحبها كما يجب ! .. وما كان ليطيق عنها بعدا ، فيتعجل المودة ، ويصعد سلم الدار بقلب خافق ، ثم يتسلل إلى حجرتها فى هدوء ليفاجئها وهى تتزين ، فيطبع على ظهرها قبلة قبل أن تحس بوجوده .. فتصرخ جزعة !

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن أن تتحسسا دوما مشطها وخواتمها وشالها .. وكان يطبع على وجنتيها أحيانا قبلات كبيرة ، بملء فمه ، أو يغطى ذراعيها العاريتين بقبلات خفيفة من أطراف أصابعها حتى كتفيها ، وهى تدفعه فى مزيج من الضيق والابتسام ، كما نفعل بالطفل إذ يتشبث بنا !

والواقع أن « إيما » كانت تعتقد قبل الزواج انها قد وقعت فى الحب . فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مترتبا على هذا الحب من سعادة ، توهمت انها كانت على خطأ ، وأخذت تسائل نفسها عما تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التى كانت تقرؤها فى الكتب فتبهرها !

———— ● ————

الفصل السادس

● كانت قد قرأت قصة « بول وفرجينى » ، فحلمت بالبيت الصغير المقام على أعواد الغاب ، وبالعبد « دومينجو » والكلب « امين » .. كما أحست — بوجه خاص — بتلك الصداقة الرقيقة التى نلمسها فى أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من أشجار ضخمة يفوق ارتفاعها أبراج الكنائس .. أو يعدو على الرمال حافيا وقد حمل إلينا عش عصفور !

ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، اصطحبها أبوها إلى المدينة ليلحقها بالدير ، فنزلا فى فندق بحى (سان جرفيه) . حيث قدم لهما العشاء فى صحاف موشاة برسوم تمثل حياة « مدموازيل دى لافاليير » .. وكانت التفصيلات الخرافية — التى تناهت إلى أذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة — تنطوى على تمجيد البلاط الملكى ، وإظهاره فى إطار من التدين ، ورقة المشاعر ، وأبهة المنظر !

ولم تستشعر سأما من حياتها بالدير — فى الأيام الأولى — بل انها استطابت صحبة الراهبات الطيبات ، اللاتى كن يعملن على التسرية عنها باصطحابها إلى الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام بأروقة طويلة .. ولم تكن تلعب فى أوقات الفراغ إلا نادرا ، إذ كانت تحرص على استذكار أصول الدين عن ظهر قلب ، حتى غدت تنفرد دائما بالإجابة على الأسئلة الصعبة الدقيقة التى كان القس يوجهها إلى الفتيات !

وهكذا عاشت فى جو حجرات الدراسة الدافىء لا تجاوزه ، وبين اولئك السيدات الناصعات البياض ، ذوات المسابح التى تتدلى منها الصلبان النحاسية .. وفى رفق ولين ، اخذت تستسلم لذلك الاسترخاء التصوفى الذى ينبعث من عطور المذبح ، واحواض مياه التبرك ، واضواء الشموع ! .. وكانت تشغل عن تتبع القداس بتامل الصور الدينية المحوطة باطار سماوى اللون ، فى كتاب الدين .. فاحبت (الحمل المريض) ، و (القلب المقدس) الذى تخترقه السهام ، والمسيح المسكين الذى يسقط ، وهو سائر ، تحت الصليب . وكانت تحاول أن تصوم عن الطعام يوما باكمله لتروض روحها .. وتجهد راسها فى ابتداع الوان من النذر لتعمل على تحقيقها !

وكانت حين تذهب إلى « كرسى الاعتراف » تبتكر خطايا صغيرة تزعمها لكى تطيل من فترة ركوعها فى الظلال ، فتصغى إلى همس القس ، ويداها مضمومتان ، ووجهها امام السياج المحيط بالكرسى !! وكانت الاوصاف المجازية التى تتناول « الخطيب » ، و « الزوج » ، و « العاشق الالهى » ، و « الزواج الأبدى » ، والتى كانت تتردد فى المواعظ ، تثير فى أعماقها نشوة غريبة !

وفى المساء ، كانت الفتيات يقران فى قاعة الاستذكار — قبل الصلاة — نصوصا دينية ، كن يخترنها فى أيام الاسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس ، أو من محاضرات الراعى « فرايا سينوس » .. اما فى أيام الآحاد ، فكن يقران

فقرات من « عبقرية المسيحية » على سبيل الترويح .. وكم كانت تنصت فى البداية للمراثى الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفى ، والتى كانت أصداؤها تتردد بين الأرض والأبدية !!

ولو أنها عاشت طفولتها فى جوف حانوت بحى تجارى ، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيعة الخلابة ، التى لا تسرى إلينا عادة إلا إذا ترجمها لنا الكتاب .. ولكنها عاشت تلك الطفولة فى الريف ، فعرفت ثغاء القطعان ، والالبان ، والمحاريث ! .. ولما كانت قد الفت المناظر الهادئة ، فقد اخذت تتجه إلى نقيضها .. إلى المناظر المثيرة ! .. ومن ثم لم تعد تحب فى البحر إلا أنواءه ، ولا تعجب بالخضرة إلا منتثرة وسط الخرائب .. كان لابد لها من الحصول على منفعة شخصية من الاشياء ، فلم تكن ترى نفعا لما لا تجد فيه غذاء مباشرا لقلبها ، إذ كان مزاجها حسيا عاطفيا ، أكثر منه فنيا .. وبعبارة واحدة : كانت تبحث عن العاطفة أكثر مما تبحث عن المنظر !!

* * *

● وكانت تفد على الدير عانس تقضى اسبوعا من كل شهر ، تعنى خلاله بكل ما يتعلق بالملابس والاغطية . ولما كان المطران يرعاها لانتمائها إلى اسرة عريقة من اسرات النبلاء التى حطمتها الثورة ، لذلك كانت تتناول الطعام فى القاعة المخصصة لذلك مع الراهبات .. ثم تجاذبهن الحديث قبل ان تصعد إلى عملها . وكثيرا ما كانت التلميذات يتسللن من قاعة الاستذكار إلى حيث تعمل، إذ كانت تردد فى همس —

وهى تحرك ابرتها فى القماش – بعض اغنيات غرامية من القرن الماضى ، تحفظها عن ظهر قلب ! .. وكانت تقص النوادر ، وتروى الأنباء ، وتقضى الحاجات من المدينة ، وتعير التلميذات الكبيرات – سرا – روايات كانت تحتفظ بها دائما فى جيب مرولتها .. ولا تكف عن « التهام » فصول طويلة منها ، بين فترات عملها ! .. وما كان أمثال هذه الروايات ليدور إلا عن الحب والمحبين ، ونساء معذبات يغمى عليهن فى خلوات منعزلة ، وسياس يقتلون فى كل رحلة ، وخيل تنفق فى كل صفحة ، وغابات مظلمة ، وشجون تفعم القلوب ، وعهود وزفرات ، ودموع ، وقبلات ، وزوارق فى ضوء القمر ، وبلابل فى الخمائل ، وسادة فى شجاعة الأسود ووداعة الحملان ، أوتوا من الشهامة قدرا لا مثيل له .. محتفظين بأناقتهم دائما .. ويبكون ، فتسيل دموعهم كالسيل الهتون !

وهكذا ظلت « ايما » خلال اشهر ستة من عامها السادس عشر ، تنفض بأصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة . ثم ارشدها « والتر سكوت » – بعد ذلك – إلى التاريخ ، فراحت تحلم بالأثاث والرياش ، وقاعات الحرس ، والشعراء الذين يغنون اشعارهم على القيثارة . وكانت تتمنى لو أنها عاشت فى احد تلك القصور القديمة التى كانت تقرأ عنها ، كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل ، اللاتى كن يقضين أيامهن تحت الأقواس ذات الطراز القوطى ، وقد اعتمدن بمرافقهن على الأحجار ، واسندن ذقونهن إلى راحات أيديهن ، وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذى ريشة بيضاء يركض بين الحقول على صهوة جواد اسود ! .. وانزلت « ايما »

الملكة الإنجليزية « مارى ستيوارت » من نفسها منزلة القداسة ، واكبرت – فى حماس – النساء الشهيرات ، المنكوبات : فكانت « جان دارك » ، و « هلويز » ، و « آنييس سوريل » ، و «فيرونيير» الفاتنة ، و « كليمانس هيزور » .. كل أولئك كن – فى نظرها – كواكب فى ظلمات التاريخ اللانهائية ! .. وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور أخرى غامضة ، مبهمة ، لا رابط بينها ، تمثل « سان لويس » وبلوطته التى كان يجلس تحتها واحتضار « بايار » وفظائع لويس الحادى عشر ، ولمحات من « سان بارتلمى » ، وغطرسة « كونت بيارين » .. ثم – ودائما – ذكرى الصحاف التى نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر !

ولم يكن فى الأغنيات – التى كانت تغنيها أثناء دروس الموسيقى – سوى ملائكة صغار ، بأجنحة ذهبية ، وعذارى مقدسات ، وقنوات يسبح فيها الجندول .. اغان ساذجة كانت تلمح – خلال أسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة – صورا متلاحقة للحقائق الحسية . وكانت بعض الزميلات يحملن إلى الدير ما يهدى إليهن فى عيد رأس السنة من كتب أنيقة ، كان إخفاؤها مشكلة عويصة !

وكن يقرأنها فى « عنبر » النوم ، فكانت « ايما » تقلب بين يديها – فى رفق – تلك الكتب المغلفة بالحرير ، ثم تقف ببصرها عند أسماء المؤلفين المجهولين الذين كان يسبق توقيعاتهم – فى نهايات القصص – لقب « كونت » أو « فيكونت » .. وكانت تعتريها رجفة حين تنفخ فى رفق لترفع

الورق الشفاف عن الصــور ، فلا يلبث أن ينثنى ثم ينزلق مستويا على الصفحات !

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب فى معطف قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة فى ثوب أبيض ، ثبتت إلى حزامها كيس الصدقات .. كما كانت هناك صور بعض الإنجليزيات المجهولات ، ذوات الشعور الشقراء ، اللاتى يرمقنك من تحت قبعات الخوص المستديرة ، بأعين واسعة صافية .. وقد اضطجع بعضهن فى عربات تنســاب وســط الحدائق ، يقود خيولها سياس فى سراويل بيضاء ، وتجرى أمامها كلاب الصيد الرشيقة .. بينما استلقت أخريات على الارائك مستغرقات فى الأحلام ، وإلى جوارهن رسائل غرام مفتوحة ، وقد سرحت أبصارهن نحو القمر الذى يطل خلال نافذة أخفت نصفها ستارة سوداء ! .. كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان أقفاص من الطراز القوطى ، وقد سال الدمع على وجناتهن .. وأخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على أكتافهن ، وأخذن ينثرن أوراق زهر المرجريت بأصابعهن المدببة التى تشبه مناقير الصقور !!

هذا ، فضلا عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة ، وقد استلقوا تحت الخمائل مخدورين بين أحضان الراقصات .. ثم السيوف والرماح التركية ، والقلنسوات اليونانيــة .. وأخيرا تلك المنــاظر الباهتة التى تمثل بلادا يسودها جو شاعرى .. فتريك فى وقت واحد النخيل وأشجار الصنوبر ، ونمرا إلى اليمين ، وأسدا إلى اليسار ، ومآذن التتر عند حافة الأفق ، وخرائب الرومان فى المقدمة ، وإبل

«انبخت» بين هذه وتلك ، وقد أحاطت بالجميع غابة عذراء ، أجهد الرسام نفسه فى إبدائها نظيفة ! .. وقد سقط شعاع عمودى من الشمس ، وأخذ يترجرج على صفحة الماء التى صبغت بلون رمادى كلون الفولاذ ، وقد غشــيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة ، تمثل البجع العائم !

وكان المصباح المعلق إلى الحائط فوق رأس « إيما » يضىء كل هذه اللوحات التى تمثل مناظر الدنيا ، فتتتابع أمام بصرها ، و « عنبر » النوم غارق فى صمت ، يعكره فى بعض الأحيان ضجيج يتناهى من بعيد ، منبعثا من عربة تذرع الطريق ، بعد أن تقدم الليل !

وقد بكت « إيما » كثيرا فى الأيام الأولى لوفاة أمهــا ، وأوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر «الفقيدة» . وأرسلت خطابا إلى (برتو) مليئا بأفكار قاتمة عن الحياة ، طلبت فيه أن تدفن — إذا ما حان أجلها — فى المقبرة التى ضمت أمها . وجزع أبوها إذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها .. وأحست « إيما » فى أعماقها بالرضا ، إذ رأت نفسها تقفز فجأة إلى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة ، التى لا تتطلع إليها النفوس التافهة !

وهــكذا ، ألفت نفســها تنزلق إلى ألوان الخيــال « اللامارتينية » — أى التى كانت تسود مؤلفات « لامارتين » — فتنصت إلى القيثــارات على البحيرات ، وأناشــيد البجع المحتضر ، وإلى صوت ســقوط الأوراق الذابلة ، ورفرفــة العذارى الطاهرات الصاعدات إلى السماء ، وإلى صوت الله يتردد فى الوديان !!

وما لبثت أن ملت كل هذا ، ولكنها لم تشأ فى البداية ان تعترف بالملل ، بل استمرت فى هذه الخيالات — بحكم العادة ، فى أول الأمر ، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك ! — ولكنها وجدت السكينة تغمرها فى النهاية ، فلا حزن فى الفؤاد ، ولا تجاعيد فى الجبين !

وكانت دهشة الراهبات — اللائى احسن الظن باستعدادها — بالغة ، إذ لاحظن أن الآنسة « روو » قد اخذت تفلت من رعايتهن .. والواقع انهن كن قد سخون عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ ، واسرفن فى تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسين والشهداء ، وفى إزجاء النصائح التى تستهدف اخضاع الجسد وخلاص الروح ، حتى اصبحت الفتاة كالفرس التى تسحب بالعنان .. ثم قدر لها ان تقف وان يخرج العنان من بين اسنانها !

.. ذلك لأن تلك الروح الايجابية التى نمت فى جوانحها وسط هذا النشاط الدينى .. تلك الروح التى احبت الكنيسة من أجل زهورها ، والأغانى بسبب كلماتها العاطفية ، والأدب من أجل مثيراته الحسية .. هذه الروح لم تلبث ان تمردت على اسرار الايمان ، كما تمردت على ذلك النظام الذى كان يتعارض مع مزاجها .. حتى ان احدا لم يأسف لرحيلها حين سحبها أبوها من الدير .. بل ان الرئيسة شكت من انها غدت فى الأيام الأخيرة قليلة الاحترام لراهبات الدير !

ووجدت « ايما » — فى الفترة الأولى التى تلت عودتها إلى البيت — لذة فى أن تصدر الأوامر إلى الخدم . بيد أنها لم تلبث أن ابغضت الريف ، وحنت إلى الدير مرة أخرى !

وعندما وفد « شارل » إلى (برتو) لأول مرة ، احست بخيبة امل ، إذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه او تحس به ! .. بيد أن شوقها الملهوف إلى شىء جديد ، والقلق الذى ساورها لتغير ظروفها — أو لعله الاضطراب الذى بعثه ظهور هذا الرجل — كانا كافيين لكى يحملاها على أن توقن بأنها قد أصابت اخيرا تلك العاطفة الخارقة ، التى كانت تتراءى لها — حتى ذاك الحين — كعصفور كبير ذى ريش وردى ، يحلق ببهاء فى سماوات الشعر .. عاطفة الحب ! .. وما استطاعت حينذاك ان تتصور أن تلك السكينة الناعمة التى كانت تعيش فيها ، هى .. السعادة التى كانت تحلم بها !

الفصل السابع

● على انها كانت تخال احيانا ، ان الأيام المقبلة هى اجمل ايام حياتها .. ايام شهر العسل ، كما يسمونه ! .. بيد انها كانت ترى لزاما — لكى تتذوق حلاوة ذلك « العسل » كاملة — ان ترحل إلى البلاد ذات الأسماء الرنانة ، التى تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء .. والتى يصعد المرء فيها — على مهل — طرقا وعرة ، فى عربات ذات ستائر زرقاء ، وهو ينصت إلى انشودة السائس ترددها قمم الجبال ، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول أعناق الماعز ، وخرير الماء المتساقط .. ومع غروب الشمس ، يتنسم المرء — عند حواف الخلجان — عبير اشجار الليمون ، حتى إذا أرخى الليل سدوله ، خلا العروسان إلى نفسيهما فى الشرفة يحدقان فى النجوم وقد اشتبكت اصابعهما ، واخذا يرسمان الخطط للمستقبل !!

بل لقد خيل إليها ان فى الدنيا بقاعا تنبت السعادة ، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت إلا فى تربة معينة لا تنمو لها فى غيرها !

ولطالما ساءلت نفسها : لماذا لم يقدر لها ان تتكىء على حافة شرفة منزل خشبى على جبال سويسرا ، أو ان تحبس شجونها فى كوخ باسكتلندا ، مع زوج يرتدى حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ ، وحذاءين طريين ، وقبعة مدببة ، واكماما منشاة ؟ ! .. لكم تمنت لو تفضى لأحد بهذه الخواطر

جميعا .. ولكن ، كيف السبيل إلى الافصاح عن ذلك الضيق الذى يتعذر التعبير عنه ، والذى تتبدل صوره كالسحاب ، ويعصف بنفسها كالرياح ؟ .. وهكذا ، كانت تعوزها الالفاظ ، كما أعوزتها الفرصة والجراة !

ومع ذلك .. آه ، لو اراد «شارل» .. لو خطر بباله .. لو التقت نظراته مرة بخواطرها .. اذن ، لتفتح قلبها — فيما تحسب — عن فيض مفاجىء ، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الأشجار بمجرد أن تمسها الأيدى ! .. بيد ان الأمر كان يجرى على النقيض من ذلك .. فكلما ازدادت الالفة بينهما ، ازداد شعورها بانطواء روحى ، واتسعت الهوة التى تفصلها عنه !

كان حديث «شارل» سطحيا .. كسطح إفريز الطريق ، تمر عليه آراء الناس فى لباسها العادى ، فلا تثير فيه انفعالا ، او ضحكا ، أو خيالا ! .. فهو لم يحس بحب الاستطلاع — كما كان يقول — يدفعه لان يذهب إلى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين ، ايام كان يقيم فى (روان) .. ولا كان يعرف السباحة ، ولا استخدام السلاح ، ولا إطلاق الرصاص .. وعجز مرة عن ان يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية ، صادفتها فى إحدى الروايات !

الم يكن من الواجب أن يسير الامر على العكس من ذلك ، فيعرف الرجل كل شىء .. ان يكون مبرزا فى كثير من نواحى النشاط ليدرب زوجته عليها .. ان يبصر المراة بخبايا العواطف ومتع الحياة .. وبكل الأسرار ؟ ! .. لقد كان « شارل » على العكس من هذا كله ، فلا هو بصرها بشىء ، ولا كان يعرف شيئا .. بل إنه لم يكن يطمح إلى شىء !!

كان يظنها سعيدة ، وهى فى الواقع تنقم عليه هـذا السكوت الخامل ، وذلك الركود المطمئن .. بل تنقم عليه أن حظى بتلك السعادة التى أتاحتها له !

وكان يحلو لها أحيانا أن ترسم ؛ فكان « شارل » يجد تسلية ممتعة فى أن يقف جامدا يتأملها وهى عاكفة على لوحتها، أو وهى تنعم النظر إلى الرسم وقد ضاقت حدقتاها إمعانا فى الدقة ، أو وهى تعبث بقطعة من لبـاب الخبـز تكورها بين أصابعها .. أما إذا عزفت على « البيانو » ، فكان إعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة ! .. كانت توقع النغمات فى ثقة ، وتجرى أصابعها على المفاتيح من أعلى إلى أسفل دون توقف ، فتهز أوتار الآلة القديمة ، حتى ليصـل صوتها إلى أقصى القرية إذا كانت النافذة مفتوحة .. وكثيرا ما يحدث أن يكون محضر القرية مارا فى الطريق ، فيتوقف عن السير ، ويأخذ فى الإصغاء وهو عارى الرأس ، وأوراقه فى يده !

* * *

● وكانت « إيما » — من ناحية أخرى — تحسـن تدبير المنزل ، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأتعـاب الاستشارات الطبية ، دون أن يشتموا منها رائحة المطالبة! .. وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء — فى أيام الآحاد — كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الأناقة فى تقديم أصناف الطعام .. كأن ترص أهرامات من البرقوق على ورق العنب ، أو تصوغ الحـلوى فى قوالب

تصبها على الأطباق .. بل إنها أخذت تعرب عن رغبتها فى شراء « سلاطين » تملأ بالماء ؛ لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى ! .. وكان كل هـذا مدعـاة إلى رفع شأن أسرة « بوفارى » فى أنظار الناس !

وانتهى الأمر بشارل إلى أن ازداد تقديره لنفسه إذ وفق إلى مثل هذه الزوجة ! .. وكان يطلع زائريه مزهوا على لوحتين صغيرتين رسمتهما « إيما » بالفحم ، وصنع هو لهما إطارين عريضين ، وعلقهما إلى الحائط بشريطين أخضرين .. وكثيرا ما أصبح يرى واقفا أمام باب منزله — بعد مبارحة الكنيسة — وفى قدميه خفان بديعا التطريز يختال بهما فخورا !

وكان فى بعض الأحيان يعود إلى المنزل متأخرا — فى الساعة العاشرة ، وربما فى منتصف الليل — فيطلب الطعام ، بينما تكون الخادم قد أوت إلى فراشها ؛ وعند ذلك كانت « إيما » تتولى إعداد المائدة له ، فيخلع سترته لكى يتناول عشاءه فى ارتياح ، وينطلق فى سرد أسماء جميع من قابل من الناس ، وما زار من قرى ، وما وصف لمرضاه من أدوية .. ثم يأتى — وهو راض عن نفسـه — على ما تبقى أمامه من « يخنى » ، ويعقب بقطعة من الجبن ، ثم يأخذ فى قضم تفاحة، وفى إفراغ إبريق النبيذ فى جوفه .. ولا يلبث أن يذهب إلى السرير فينطرح عليه ، ويمضى فى الغطيط !

وكان قد عدل عن « الطاقية » القطنية التى اعتاد لبسها فى السرير ، وألف أن يلف حول رأسه وشاحا لا يكاد يستقر على أذنيه ، فيصحو فى الصباح وشعره متهدل ، مبعثر على

وجهه ، وقد علق به بعض حشو الوسادة التى تكون أشرطتها قد انحلت أثناء الليل .

كذلك كان يرتدى فى النهار حذاءين كبيرين ؛ لكل منهما رقبة عالية ، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم .. اما وجه الحذاء فكان دائما مستويا فى خط مستقيم ، وكأنه مشدود على خشب . وكان يردد دائما : « هذا هو النوع المناسب للريف » !

وكانت أمه تؤيده فى هذا الاقتصاد ، إذا ما جاءت لزيارته — كلما اشتبكت فى خلاف مع زوجها — كما كانت تفعل أيام الزوجة الأولى ! .. وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة أيضا ، إذ كانت ترى أساليبها مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم .. فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك فى البيوت الكبيرة .. وكمية الجمر التى كانت تحرق فى المطبخ تكفى لطهو عشرين صنفا من الطعام ! .. وكانت تعمد إلى ترتيب « بياضات » زوجة ابنها فى الصوان ، وتعلمها كيف تحاسب الجزار إذا ما احضر اللحم ، فكانت « ايما » تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس ! .. وكانت كلمتا « ابنتى » و « أمى » تتبادلان طوال النهار ، مصحوبتين برعشة فى الشفاه ، إذ كانت السيدتان تلفظان اعذب كلمتين ، بلهجة تهتز بالغضب !!

كانت الأم العجوز تشعر فى عهد مدام « دوبيك » بأنها ما زالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها .. اما الآن ، فقد بدا لها حب « شارل » لايما بمثابة فرار من حنانها ، أو عدوان على ما كان لها .. فأخذت ترقب سعادة ابنها فى صمت كئيب ،

كإنسان افلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ إلى اغراب احتلوا داره القديمة .. وكانت تروى له مشقاتها وتضحياتها — على سبيل الذكرى — وتقارنها باهمال « ايما » ، عسى أن يستنتج أن ليس من الحكمة أن « يعبد » السيدة الشابة ، على هذا النحو الذى يملك عليه كل عواطفه !

ولم يكن « شارل » يدرى كيف يتصرف .. فهو يحترم امه ، كما يحب زوجته حبا لا حد له .. وكان يعتبر امه معصومة من الخطأ ؛ ولكنه — مع ذلك — لم يكن يرى فى مسلك زوجته مدعاة للوم ! .. وكان يستجمع جراته — بعد ان ترحل مدام بوفارى — فيردد فى استحياء — وبنفس الفاظ امه — بعضا من اهون المآخذ التى يكون قد سمعها منها .. ولكن « ايما » كانت — بكلمة واحدة — تقنعه بأنه على خطأ ، وترسله إلى مرضاه ! .. ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنها تحبه وفقا للنظريات التى كانت تؤمن بها ! .. كانت تردد على مسمعه — فى الحديقة ، وفى ضوء القمر — ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب ، وتغنى له — وهى تتنهد — بعض الألحان الشجية .. بيد انها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما أن « شارل » لم يكن يبدو اكثر حبا ولا انفعالا مما كان قبل الشعر والغناء !

وهكذا لم تلبث — بعد ان قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة — ان انساقت إلى اقناع نفسها بأن حب « شارل » خال من الحرارة ! .. فقد أصبحت أوقات انطلاقه وتحلله منتظمة .. وهو يقبلها فى « مواعيد » معينة ، وكأنه يمارس

« عادة » من العادات ! .. أو كأنه يتناول حلوى مرتقبة بعد عشاء ممل !!

* * *

● وحدث ان عالج الطبيب احد الحراس من التهاب رئوى ، فأهدى الحارس زوجته كلبة إيطالية صغيرة اخـذت تصحبها فى نزهاتها ، إذ كانت تخـرج احيـانا كى تخلو إلى نفسها ، وحتى تريح بصرها بعض الشىء من النظر إلى تلك الحديقة العتيقة ، والطريق المتربة ! .. كانت تمضى حتى غابة الزان عند (بنفيل) ، على مقربة من البناء المهجور الذى تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية إلى الحقول .. وهناك ، وسط الأعشاب النامية فى الخندق ، واعواد البوص ذات الأوراق الحادة ، كانت تتأمل ما حولها لتتبين ما إذا كان قد الم بالمكان اى تغير عما كان عليه فى آخر مرة جاءته .. فكانت ترى زهور « الريجتيالا » والقرنفل فى نفس منابتها ، والنباتات الشوكية تحيط بالأحجار الكبيرة ، والطحالب على طول النوافـذ الثـلاث ــ فى المبنى المهجـور ــ التى كانت مصاريعها مقفلة باستمرار ، يتسرب خلالها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التى علاها الصدا .

وكانت افكارها لا تلبث ان تهيم بلا غاية ، مثل كلبتها التى كانت تجرى فى حلقات خلال الحقول ، وترسل نباحها خلف الفراشات الصـفراء ، وتطارد الجـرذان او تعضـعض الخشخاش النامى على حافة حقل القمح . ثم تأخذ افكارها فى التركز شيئا فشيئا ، فتردد لنفسـها وهى تفترش الحشائش



كانت تخـرج احيـانا كى تخلو إلى نفسها وحتى تريح بصرها بعض الشىء

التى كانت تعبث بها بطرف مظلتها : « يا الهى ! .. لماذا تزوجت ؟ ! » .

وكانت تسائل نفسها : « أو لم تجد المصادفات طريقا آخر تدفعها خلاله لتلتقى برجل آخر ؟ » .. ثم تمضى فى تخيل الأحداث التى كانت تترتب على ذلك .. الأحداث التى لم تقع ، والحياة التى تغاير حياتها الحالية ، والزوج الذى لم تعرفه.. فلا مراء فى أن الأزواج ليسوا جميعا مثل زوجها !.. كان من الممكن أن يكون زوجها جميلا ، مرحا ، أنيقا ، جذابا ، مثل أولئك الأزواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتها فى الدير ! .. ترى ماذا تفعل أولئك الزميلات الآن فى المدينة ، وسط ضجيج الشوارع ، وأضواء المسارح ، وصخب المراقص ؟ .. انهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب ، وتنتعش الحواس .. أما هى ، فان حياتها باردة كالمخزن الذى أوتى نافذة شمالية !

والملل ؟ ! .. ذلك العنكبوت الصامت الذى كان يغزل نسيجه فى الظلال ، فى كل ركن من أركان قلبها !

وتذكرت أيام توزيع الجوائز — أثناء الدراسة — حين كانت تصعد إلى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة ؛ وقد بدت بديعة بشعرها المجدول ، وثوبها الأسود ، وحذاءيها الصوفيين الخفيفين .. وكان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة ، إذا ما عادت إلى مكانها .. ويطلون من نوافذ العربات التى تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها ! .. كما كان مدرس الموسيقى يحييها إذ يمر بها حاملا قيثارته .. أواه ! .. لكم أصبح كل هذا بعيدا .. آه ، شد ما بعد !

● وكانت تنادى كلبتها « جالى » فتضعها على ركبتيها ، وتمر بأصابعها فوق رأسها الصغير ، وتهمس لها : « هيا .. قبلى سيدتك ! .. قبليها يا من لا تثقل الهموم قلبها ! » .

وتأخذ فى تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق ، الواجم ، الذى يتثاءب فى بطء ، فيلين قلبها ، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيوان ، وتحدثه بصوت مسموع ، وكأنها تعزى شخصا منكودا !

وكانت الريح تهب أحيانا قوية ، تأتى من ناحية البحر فتكتسح هضبة (كو) بأسرها ، وتحمل إلى الحقول المترامية رطوبة ملحة .. فيصدر من البوص صفير خافت ، وهو يميل على سطح الأرض .. وبين أغصان الزان تسرى رعشة سريعة ، بينما ينبعث على قممها همس عميق ، فتشد « ايما » شالها حول كتفيها وتنهض منصرفة .

وكان ضوء النهار ينبعث خلال أوراق الشجر، مستعيرا لونها الأخضر ، فينعكس على العشب القصير الذى يئن فى رفق تحت قدميها .. ولا تلبث الشمس أن تجنح للمغيب ، فتحمر السماء إذ تلوح بين الغصون ، وتبدو جذوع الأشجار النامية بانتظام فى خط مستقيم ، كأنها أعمدة قائمة على صفحة من الذهب .. وتسرى الرهبة إلى نفس « ايما » فتنادى كلبتها « جالى » ، وتسرع إلى (توست) .. ثم تستلقى على مقعد مريح ، وتظل صامتة بقية الليل !

＊ ＊ ＊

● واعترض حياتها — فى أواخر سبتمبر — حادث غير

عادى . فقد دعيت إلى (فوبيسار) لزيارة مركيز « اندرفيليه » ! .. ولما كان المركيز قد تولى الوزارة من قبل — عند عودة الملكية — فانه اخذ يتطلع للعودة إلى الحياة السياسية ، وبكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب .. فكان فى الشتاء يوزع الحطب ، وكان فى مجلس المقاطعة يطالب متحمسا باصلاح الطرق فى دائرته .. فلما جاء الصيف بحره اللافح ، اصيب بدمل فى فمه ، استطاع « شارل » أن يريحه منه — بما يشبه المعجزة — بحركة من مبضعه على وجهه فى الوقت المناسب !

وعندما عاد المندوب الذى ارسله المركيز إلى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب ، ذكر لسيده أن فى حديقة الطبيب نوعا ممتازا من « الكريز » الذى كان نمو بذوره متعذرا فى حدائق (فوبيسار) .. فطلب المركيز بعض « العقل » .. وعنى بأن يذهب بنفسه إلى الطبيب ليشكره .. وهناك وقع بصره على « ايما » ، فلاحظ قوامها الأهيف ، واسترعى انتباهه انها لا تنحنى بالتحية كالفلاحات .. ولم ير اى مغالاة فى التواضع أو ثمة خرق للتقاليد ، فى دعوة الزوجين الشابين إلى قصره !

وفى الساعة الثالثة من احد أيام الاربعاء ، رحل السيد والسيدة « بوفارى » إلى (فوبيسار) فى عربة شدت إلى سطحها حقيبة كبيرة .. ووضع أمام مقعدها صندوق للقبعات ، فضلا عن أن « شارل » حمل على فخذيه صندوقا من الورق المقوى .

ووصلا عند هبوط الليل ، عندما كانت مصابيح الحدائق تضاء ، لتنير الطريق للعربات .

الفصل الثامن

● كان القصر مبنيا على الطراز الإيطالى الحديث ، يمتد منه جناحان ، وله ثلاثة مداخل تفضى إلى شرفات ذات درجات .. وكان يقوم فى نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الأبقار ، بين مجموعات متباعدة من الأشجار الضخمة ، التى بسطت اوراقها المتفاوتة الخضرة على احواض الورد ، واحواض الزهر المسمى بكرات الجليد ، والتى انتثرت على طول الطريق الرملى المتعرج .. وكان هناك جدول يجرى تحت قنطرة .. ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان معروشة بالقش ، تنتثر فى المروج التى حفت بها هضبتان تنحدران انحدارا هينا ، وتكسوهما الغابات .. وعلى البعد ، بدا وسط الأحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر ، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم .

ووقفت عربة « شارل » أمام السلم الاوسط ، فظهر الخدم .. وتقدم المركيز فأعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها إلى البهو ، الذى رصفت ارضه ببلاط من الرخام ، وارتفع سقفه إلى علو شاهق ، فكان يتردد لوقع الأقدام والأصوات فيه صدى كالذى يتردد فى الكنائس ، وفى أقصى البهو كان يوجد سلم مستقيم .. وإلى اليسار كانت ثمة شرفة تطل على الحديقة ، وتؤدى إلى قاعة « البلياردو » التى كانت اصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها .

وبينما كانت « ايما » فى طريقها إلى قاعة الاستقبال ، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سيماء الوقار والعظمة ،

وقد استقرت ذقونهم فوق أربطة رقابهم العالية .. وكانوا جميعا يحملون الاوسمة ، ويبتسمون فى صمت وهم مكبون على مائدة « البلياردو » .. وفوق الخشب الداكن الذى يكسو الجدران ، كانت ثمة اطارات مذهبة ، نقشت على حوافها السفلى اسماء بحروف سوداء ، قرات « ايما » منها : « جان انتوان دواند فيلييه دى ايفربونفيل ، كونت دى فوبيسار ، وبارون دى فريناى ، الذى قتل فى موقعة (كوترا) فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٨٧ » .. وقرات تحت اطار آخر : « جان انتوان هنرى جى دى اندفيلييه دى فوبيسار ، أميرال فرنسا ، وحامل وسام فروسية القديس ميشيل ، الذى جرح فى موقعة (هوج سان فاست) فى ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢ ، ومات فى (فوبيسار) فى ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣ » .. اما بقية الاسماء ، فلم يسهل على « ايما » تبينها ، إذ كانت اضواء المصابيح المنعكسة من مائدة « البلياردو » الخضراء تلقى ظلالا قاتمة حول القاعة ، وعلى اللوحات الأفقية ، فتظهر التشققات التى كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة .. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء ، المحاطة باطارات من ذهب ، كانت تبدو هنا وهناك اجزاء اكثر وضوحا فى اللوحة : جبهة شاحبة ، او عينان حادتان ، او شعر مستعار يتهدل على الأكتاف فوق ملابس حمراء ، او عقدة ربطة الساق فوق الربلة (بطن الساق) ..

وفتح المركيز باب الصالون ، فنهضت إحدى السيدات — وهى المركيزة نفسها — واستقبلت « ايما » واجلستها فى مقعد إلى جوارها ، ثم اخذت تؤثرها بحديث ودى ، كما لو

كانت تعرفها منذ زمن بعيد ! .. كانت سيدة فى نحو الاربعين ، اوتيت كتفين بديعتين ، وانفا حادا ، وصوتا لينا .. وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائى — فى ذلك المساء — شالا من « الدانتيلا » ينسدل على ظهرها فى شكل مثلث .. وإلى جوارها ، كانت تجلس شابة ، فى مقعد عالى الظهر ، ورجال حليت عرى ستراتهم بورود صغيرة ، وقد اشتبكوا فى الحديث مع السيدات حول المدفأة .

* * *

● واعد الطعام فى الساعة السابعة ، فجلس الرجال — وكانوا اكثر عددا من السيدات — حول المائدة الأولى فى قاعة الطعام ، بينما جلست السيدات حول المائدة الثانية التى كان يراسها المركيز والمركيزة .

واحست « ايما » عند دخولها القاعة بجو دافىء : مزيج من أريج الزهور ، والملابس الجميلة ، وابخرة اللحم ، ورائحة « عش الغراب » ، وشموع المشاعل التى انعكست السنة لهيبها الطويلة على الاوانى الفضية والأكواب البلورية المضلعة التى أحاطتها الابخرة بغلالة خفيفة ينبعث خلالها بريق باهت . وتناثرت الزهور على طول المائدة ، واستقرت المناشف — التى طويت على شكل قلنسوات رجال الدين — على الاطباق ذات الحواف العريضة ، وبرزت خلال ثناياها ارغفة بيضاوية صغيرة .. ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات ، على فراش من العشب الأخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب .. والأبخرة تتصاعد ورئيس خدم المائدة

(السفرجية) — فى جوربيه الحريريين ، وسرواله القصير ، ورباط رقبته الأبيض ، وقميصه الذى وشى صدره بالدانتيلا — يمر بالطبق بين أكتاف المدعوين فى وقار القضاة، وبغمزة واحدة من ملعقة بين أجزاء الصنف الذى يحمله — وقد قسمت من قبل — تقفز إليك القطعة التى تختارها ! .. وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية ، كان ثمة تمثال لامرأة مدثرة حتى الذقن ، تنظر فى صمت إلى القاعة التى حفلت بالناس !

.. ولاحظت « ايما » ان كثيرا من السيدات لم يضعن قفازاتهن فى أكوابهن !(١) .

* * *

● وجلس فى اقصى المائدة — وحيدا بين السيدات — شيخ انحنى على طبقه الملىء ، وقد ربط منشفته إلى صدره كالطفل ، واخذت قطرات « الصلصة » تتساقط من فمه وهو ياكل .. وكانت عيناه محتقنتين بلون الدم .. ذلك كان والد زوجة المركيز : « دوق فردبير » المسن ، الذى كان ذا حظوة لدى «كونت دارتو» فيما مضى، أيام نزهات الصيد فى(فودرى) عند المركيز « دى كونفيان » .. والذى قيل إنه كان عشـــيقا للملكة « مارى انتوانيت » ، إلى جانب عشيقيها الآخرين « دى كوينى » و « دى لوزون » !

وكان الدوق قد عاش حياة عربيدة صاخبة ، حفلت بالمبارزات والمراهنات ، وبالنساء اللواتى كان يغويهن .. وقد بدد ثروته ، وأزعج أسرته كلها !

(١) كانت هذه هى عادة سيدات المجتمع فى فرنسا فى القرن الماضى .

وكان يقف خلف مقعده خـــادم يهتف فى أذنه باســـماء الأطباق التى يشير إليها بأصـــبعه مغمغما فى « تهتهة » .. واخذت عينا « ايما » ترتدان باستمرار — وبحركة تلقائية — إلى هذا الشيخ ذى الشفة المتدلية ، لتحدقا فيـــه ، وكانه شخص فذ جليل ! .. كيف لا وقد عاش فى البلاط الملكى ، ونام فى فراش الملكات !!

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة ، التى كانت ترسل فى جسد « ايما » كله رعدة ، كلما مست شفتيها !! لم تكن قد رات الرمان فى حياتها من قبل ، ولا اكلت الاناناس !.. بل إن مسحوق السكر الناعم بدا لها انصع بياضا واكثر نعومة منه فى اى مكان آخر !

وما لبثت السيدات ان صعدن إلى حجراتهن ليتخـــذن اهبتهن للحفلة الراقصة .. فعنيت « ايما » بزينتها فى دقة الممثلة التى تستعد لليلة ظهورها الأول .. ونسقت شعرها وفقا لنصائح الحلاق ، واخذت ترتدى ثوبها الصوفى الخفيف الذى كان مبسوطا على السرير ، بينما كان « شارل » يشد بنطلونه إلى وسطه .

وقطع « شارل » الصمت قائلا : « لســوف يضايقنى السير الجلدى — الذى يشد الحذاءين إلى البنطلون — اثناء الرقص » .

فهتفت فى استنكار : « الرقص ؟ ! » .

وإذ اجاب : « نعم » ، قالت : « هل طاش عقلك ؟ ..

لسوف يسخرون منك ! .. الزم مقعدك ! » .. ثم أردفت :
« ان هذا البق بمكانتك كطبيب » !!

ولزم « شارل » الصمت ، وراح يذرع الغرفة ريثما تفرغ « ايما » من ارتداء ثيابها .. كان يراها من الخلف — على صفحة المرآة — بين مشعلين ، وقد لاحت عيناها اشد سوادا مما عهدهما .. وخصلات شعرها المنسدلة فى تموج على اذنيها تلمع ببريق أزرق ، وقد ثبتت فى لفافة شعرها المكور فى مؤخرة رأسها وردة صناعية على ساق متأرجحة ، وقد تناثرت على أوراقها قطرات من الماء ! .. أما ثوبها ، فكان ذا لون أصفر شاحب ، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعى احيط بالخضرة .

وتقدم «شارل» فطبع على كتفها قبلة. وإذ ذاك هتفت: « ابتعد عنى لئلا تتلف اتساق ملابسى ! » .

* * *

● وسمعت « ايما » أنغاما من قيثارة ، ودوى بوق ، فهبطت السلم وهى تمسك نفسها بعناء عن الجرى .. وكانت حلقات الرقص الرباعى قد بدات ، واخذ المدعوون يتدافعون، فجلست فى مقعد مستطيل إلى جوار الباب .. حتى إذا انتهت الرقصة ، خلت الحلبة إلا من رجال اخذوا يتحدثون وهم وقوف ، والخدم يروحون ويغدون فى زيهم الرسمى وقد حملوا الصحاف الكبيرة .. وعلى طول الصف الذى ضم النساء ، كانت المراوح تهتز ، وباقات الورد تحجب جانبا من الوجوه الباسمة ، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار فى الأيدى التى شفت قفازاتها البيضاء عن أناملهــا ، وضغطت على معاصمها .. وكان وشى « الدانتيلا » والمشابك الماسية ، والأساور ذات الزوائد المدلاة ، يتارجح فوق الأثواب ، ويلمع فوق الصدور وحول الأذرع العارية ! .. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه ، والمعقود فى مؤخرات الرؤوس ، يحمل زهور الفل او الياسمين او الرمان او البازلاء ، أو السنابل التى عقدت على شكل تيجان أو عناقيد او اغصان .. وكانت الأمهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة ، تتوج رؤوسهن عمائم حمراء !

وخفق قلب « ايما » قليلا عندما تقدمت تتخير لنفسها مكانا فى الصف ، انتظارا لحركة قوس عازف القيثار ، إيذانا ببدء الرقص ، وقد امسك زميلها باطراف أناملها .. وما إن انسابت الأنغام حتى زايلها الانفعال ، فتحركت إلى الامام على إيقاع الموسيقى وهى تهز رقبتها هزا خفيفا .. واخذت ترتسم على شفتيها ابتسامة ، تزداد اتساعا كلما ابدع عازف القيثار، حين ينفرد بالعزف احيانا وتكف الآلات الاخرى عن مشاركته !.. كانت نغماته رقيقة ، هادئة ، حتى ليمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الأخضر ، فوق موائد الميسر فى الغرفة المجاورة .. ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية أن تعود إلى العزف المشترك فجاة ، ويرسل البوق أنغامه الرنانة ، فتدق الأقدام فى إيقاع . وترفرف أطراف « الجونلات » وتتلامس ، بينما تتشابك الايدى ثم تفترق .. والعيون التى تغض عنك لا تلبث ان تعود إلى التحديق فى عينيك !

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلا ، تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والاربعين ، ينتشرون بين الراقصين ، او يتبادلون الاحاديث عند الأبواب ، وقد امتازوا عن الباقين — على تباين اعمارهم وزيناتهم واشكال وجوههم — بسيماء عراقة الاصل ! .. وكانت ثيابهم البديعة الصنع تبدو أرق نسيجا من سواها ، وشعورهم تنسدل على الأصداغ فى تموجات ، وهى تلمع باطيب الدهون ! .. وكانت لهم بشرة المترفين .. بشرة بيضاء ، يزيدها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجرة وما فيها من خزف شاحب ، وحرير يتموج ، واثاث جميل لامع ! .. بشرة يضفى عليها رونق الصحة نظام دقيق فى التغذية ! .. وكانت رقابهم تتحرك فى يسر فوق أربطة منخفضة . وكانوا يمسحون شفاههم بمناديل طرزت عليها حروف اسمائهم ، وتتضوع بشذى مختلف العطور ! .. وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة ، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج .. اما نظراتهم غير المكترثة ، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التى تجد كل يوم ريا وإشباعا ! .. ومن خلال حركاتهم الرشيقة ، كان ينبثق ذلك الاعتداد الذى يولده اعتياد السيطرة على ما فى اليد من اشياء ، كما هو الحال فى رياضة الخيل الأصيلة .. ومصاحبة الغوانى !

وعلى بعد ثلاث خطوات من « ايما » ، اخذ احد فرسان حلبة الرقص — وكان فى ثياب زرقاء — يتحدث عن إيطاليا ، إلى شابة شاحبة اللون تتحلى باللآلىء .. وراحا يعبران عن اعجابهما بضخامة اعمدة كنيسة القديس بطرس ،

والتريفولى ، وبركان فيزوف ، والكاستلامارى ، والكاسين ، وورود جنوا ، والكوليزيوم فى ضوء القمر !

وبالأذن الثانية ، اخذت « ايما » تنصت إلى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها .. إذ احاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز فى سباق الأسبوع الماضى ، وكسب الفى جنيه فى مباراة للقفز فوق حفرة فى إنجلترا .. وكان بعض افراد الشلة يشكون من ازدياد أوزان بعض خيولهم ، بيما كان فريق آخر يشكو من اخطاء مطبعية حرفت اسماء جيادهم فى الصحف !

❋ ❋ ❋

● وثقل جو المرقص ، واخذت اضواء المصابيح تخفت ، والجميع ينصرف إلى قاعة « البلياردو » .. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج .. وإذ ادارت مدام « بوفارى » راسها على الصوت ، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين فى الحديقة تتطلع إلى ما يجرى بداخل القصر ، فتذكرت (برتو) ، وعادت إلى مخيلتها صور المزرعة ، والبحيرة وابيها تحت اشجار التفاح مرتديا قميصه ! .. بل إنها رات نفسها — كما كانت فى الماضى — تنتزع القشدة باصبعها من قدور اللبن ! .. غير ان حياتها الماضية — التى كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة — سرعان ما تلاشت عن آخرها فى بريق ساعتها الراهنة ، حتى كادت ترتاب فى انها عاشتها يوما ! .. ولم تعد تعيش إلا فى حلبة الرقص ، بينما كانت الظلال تلف ما عداها .. واخذت تتناول المثلجات فى

كأس مطعمـــة بالذهب امســـكتها بيسراها ، وراحت تسبل جفنيها وهى ترفع الملعقة إلى فمها !

وكانت إلى جوارها سيدة تركت مروحتهـــا تسقط ، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها : « هل لك يا سيدى ان تتفضل بالتقاط مروحتى التى سقطت وراء هذه الاريكة » .. وانحنى السيد .. وفيما كان يلتقط المروحة ، لمحت « ايما » السيدة تلقى فى قبعته بشىء ابيض مطوى على شكل مثلث . وما لبث السيد ان قدم المروحة باحترام إلى السيدة ، فشكرته بهزة من راسها ، وتحولت تتنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها !

وبعد وجبة العشاء ـ التى حوت الكثير من نبيذ اسبانيا ، ونبيذ الراين ، وحساء السمك ، وحساء اللوز ، وعصيدة جبل طارق ، وشتى انواع اللحم البارد المحوط بالجلاتين ــ اخذت العربات ترحل تباعا ، واضواء مصابيحها تبدو ــ من خلف الستائر الحريرية ــ مترنحة فى جوف الظلام . وبدات المقاعد تخلو .. غير ان بعض المقامرين تخلفوا .. وراح الموسيقيون يلعقون اطراف اصابعهم ليرطبوها .. واستسلم « شارل » إلى شبه اغفاءة وقد اسند ظهره إلى احد الابواب ..

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، بدا رقص « الكوتيون » ، ولم تكن « ايما » على دراية برقصة « الفالس » ، بينما راحت بقية الحاضرات ــ حتى مدموازيل دى اندفيلييه والمركيزة نفسها ــ يرقصنها .. ولم

يكن قد بقى غير اثنى عشر شخصا تقريبا هم نزلاء القصر . على ان احد راقصى « الفالس » ــ وكان شابا يرتدى صدارا واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب . ويدعوه القوم بلقب « الفيكونت » ــ تقدم من مدام « بوفارى » يدعوها لمراقصته ، مؤكدا لها انه سيرشدها فلا تلبث ان تتقن الرقصة !

* * *

● وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة . واخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح ، واثاث ، وجدران ، وارض ! .. وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ، فتداخلت ارجلهما .. وخفض بصره نحوها .. ورفعت هى بصرها نحوه .. وعلى الفور ، احست بدبيب مخدر يسرى فى اعصابها ! .. وتوقفا عن الرقص لحظة ، ثم استانفاه .. وإذا « الفيكونت » يقود « ايما » بحركة رشيقة إلى نهاية البهو ، حيث اختفى معها . وكانت قد اوشكت ان تسقط لاهثة الانفاس ، فاسندت راسها هنيهة إلى صدره .. ثم عاودا الدوران فى حركة اهدا من ذى قبل ، حتى عاد « الفيكونت » بها إلى مكانهما الاول ، فتهالكت على مقعد بجوار الحائط ، وغطت عينيها براحتيها !

وعندما فتحت عينيها من جديد ، رات سيدة تجلس على مقعد فى منتصف الصالون ، وقد انحنى امامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها زميلة فى الرقص . ولم تلبث السيدة ان اختارت « الفيكونت » . وعادت القيثارة إلى

العزف .. واتجهت الأنظار إلى الراقصين الذين اخذا يروحان ويجيئان ، وجسم السيدة ثابت فى استقامته ، وذقنها منكسة إلى أسفل . كذلك كان الفيكونت مشدود القامة ، مقوس الذراع ، وقد رفع رأسه .. ولم يكن ثمة شك فى أن السيدة تجيد « الفالس » . .. وقد استمرا فى الرقص وقتا طويلا ، حتى انهكا بقية الراقصين !
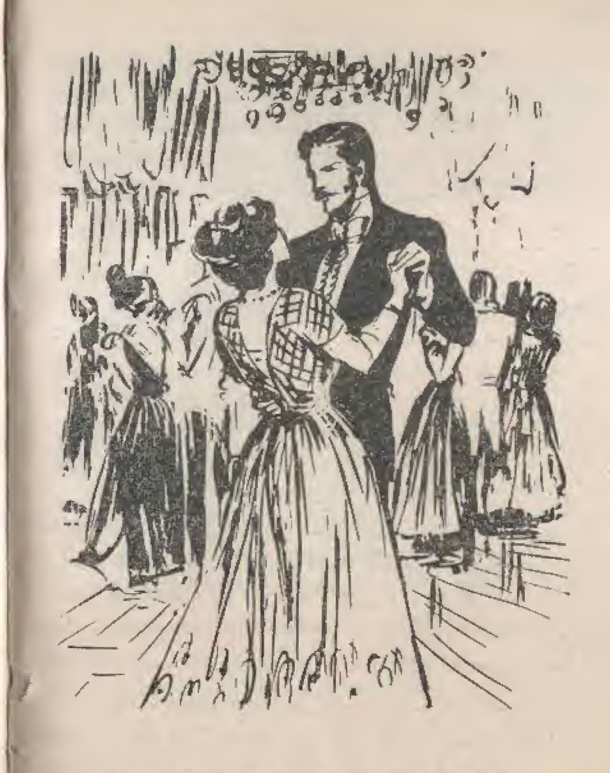
* * *

● وانتهى الرقص .. ودار الحديث دقائق ، ثم تبادل القوم تحيات الوداع ، أو — بالأحرى — تحيات الصباح ، ثم انصرف نزلاء القصر إلى مخادعهم ..

وصعد « شارل » السلم وهو يجر نفسه جرا ، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله ، بعد أن ظل واقفا خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون أن يفقه منه شيئا ! .. وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من حذاءيهما !

أما « ايما » ، فقد لفت كتفيها بالشال ، وفتحت النافذة واتكأت على حافتها .. كان الليل دامسا ، والمطر يتساقط رذاذا .. وأخذت « ايما » تستنشق — فى نهم — الهواء الرطب الذى أرسل فى كيانها انتعاشا .. وكانت موسيقى الرقص ما تزال تطن فى اذنيها .. وجهدت لتظل ساهرة ، كى تمكن خيالها من ان ينعم ، اطول وقت ممكن ، بالحياة المترفة التى لم يكن بد من تركها عما قليل !

وبزغ الفجر ، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة ،



وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة

محاولة ان تتصور ما كان يجرى فى مخادع أولئك الذين لفتوا نظرها فى الليلة السالفة ، وكأنهــا تود لو عرفت حياتهم ، وتسللت إليها ، وامتزجت بها ! .. ثم فطنت إلى انها كانت ترتعش من البرد ، فخلعت ثيابها ، واندست تحت الأغطية إلى جوار « شارل » .. الذى كان قد استغرق فى النــوم !

وفى اليوم التالى ، حضر الغداء عدد كبير ولكن جلوسهم إلى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق .. وادهش الطبيب ان لم تقــدم خــلال الوجبة اية خمــور .. وما لبثت مدموازيــل « دى اندفيلييه » أن جمعت قطعا من الخبز فى سلة لتحملها إلى البجع فى بركة الماء .. بينما انصرف القــوم للنزهــة فى البيوت الزجاجية التى أعدت لإنماء نباتات المناطق الحارة ! .. وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب ، صفت على شــكل اهرامات ، تحت اصص معلقة تشــبه اوكار الأفاعى ، تدلت من حوافها اشرطة طويلة من الورق الأخضر المتشابك .. وكان بستان البرتقال القائم فى طرف الحظائر يمتد فى طريق مسقوف حتى مرافق القصر ..

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة إلى حظائر الخيل ، على سبيل التسلية وقتل الوقت .. وكانت ثمة لافتات من الخزف ، فوق المذاود الشبيهة بالســلال ، تحمل اســماء الخيول بحروف سوداء .. وكانت كل دابة تتحرك فى مأواها ، وتقعقع بلسانها ، عندما يمر احد على مقربة منها .. وبدت أخشاب أرض الحظائر لامعة كأنها ارضية صالون .. وكانت أطقم العربات مصفوفة فى الوسط فــوق عمودين ملتفين ،

بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل فى خط مستقيم على طول الحائط ..

وفى تلك الأثناء ، ذهب « شارل » يرجو خادما أن يعد عربته التى كانت قد اقتيدت إلى المدخل .. حتى إذا حملت إليها الحقائب ، قــدم الزوجان « بوفارى » تحياتهمــا إلى المركيز والمركيزة ، ثم استقلا العربة عائدين إلى (توســت) .

* * *

● راحت « ايما » ترقب فى صمت العجلات وهى تدور ، بينما كان « شارل » يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين ، والجواد الصغير يخب بين ذراعى العربة الخشبيتين ، والعنان المرتخى يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد ، بينما كان الصندوق الذى ربط خلف العربــة يرتطم بجدارها فى ضربات منتظمة ..

وعندما وصلا إلى مرتفعات (تيبورفيل) ، مر امامهما فجأة عدد من الفرســان يتضاحكون ولفافات الســيجار فى أفواههم .. وخيل لايما أنها تعرفت بينهم على « الفيكونت » فالتفتت ، غير انها لم تر فى الأفق سوى رؤوس تتحــرك فى ارتفاع وانخفاض ، مع حــركات الخيل فى عدوها وخببها ..

وما إن قطعا نصف الفرسخ حتى اضطرا إلى الوقوف ، كى يصلا بالحبال ما انقطع من « السير » الذى يربط الجواد إلى العربة .. وفيما كان « شارل » يلقى نظرة أخيرة على الطاقم بعد ان اصلحه ، لمح بين أقــدام الجــواد – على

الارض ـ حافظة سيجار من الحرير الاخضر المطرز ، يتوسطها شعار ينم عن انها لشخص من ذوى الالقاب .. فقال : « إن بها سيجارين ، سادخنهما بعد العشاء الليلة » .

فتساءلت « ايما » : « إذن فانت تدخن ؟ »

قال : « احيانا .. عندما تسنح فرصة لذلك ؟ »

ووضع « غنيمته » فى جيبه ، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذى اندفع بالعربة ..

ولم يجدا العشاء معدا حين بلغا دارهما ، فاحتدت « ايما » . ولما اجابتها الخادم « نستازى » فى قحة .. صاحت بها :

ـ اخرجى من هنا ! .. هذه وقاحة مشينة ! .. انت مطرودة من هنا !

وتحولت تعد العشاء بنفسها .. وكان يتكون من حساء بالبصل ، وقطعة من لحم العجول .. وجلس شارل امام « ايما » يفرك يديه ويقول فى غبطة : « ما امتع ان يعود المرء إلى داره ! »

وتناهى إليهما صوت « نستازى » وهى تبكى .. وكان « شارل » ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة ، إذ شاطرته الأمسيات الطويلة التى مرت به ايام حزنه ، كما كانت أول من عرفه من اهل المنطقة ، حين بدأ يمارس مهنته فيها .. فلم يلبث ان سال زوجته : « احقا طردتها ؟ » .

وردت « ايما » ، فى حنق : « اجل .. من يمنعنى من ذلك ؟ ! »

وبعد العشاء ، التمسا الدفء فى المطبخ ، حيث اخذ شارل يدخن وهو يمط شفتيه ويبصق فى كل لحظة، ويضطجع فى استمراء عند كل نفثة دخان ! .. فما لبثت « ايما » أن قالت له فى استهجان : « لسوف تؤذى نفسك » ! .. ومن ثم وضع السيجار جانبا ، ثم جرى إلى المضخة ـ « الطلمبة » ـ ينشد كوبا من الماء البارد .. وإذا ذاك تناولت « ايما » حافظة السيجار فقذفت بها فى قاع الصوان ..

* * *

● ولاح لها اليوم التالى طويلا ، فاخذت تتمشى فى حديقتها الصغيرة جيئة وذهابا ، متوقفة من آن إلى آخر امام الأحواض او عرائش الكروم او تمثال القس المصنوع من الجص ، تتامل فى دهشة هذه الأشياء القديمة التى الفتها وعرفتها من قبل .. لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة ! .. ترى منذا الذى اقام هذا الحاجز الكبير بين صباح امسها ومساء يومها ؟ ! .. لقد تركت رحلتها إلى (فوبيسار) ثغرة فى حياتها كتلك الثغرات الواسعة التى تخلفها العاصفة فى الجبال احيانا ، فى ليلة واحدة !

على انها تقبلت الواقع فى استسلام ، وطوت فى وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان ، وبينها حذاءاها الحريريان ، وقد اصفر نعلاها من اثر الشمع الذى كانت تنزلق عليه فوق

ارض حلبة الرقص ! .. تماما كما انطبع فى قلبها — بعد احتكاكه بالثراء — اثر لا يزول !

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل ، فكانت — حين تستيقظ فى صباح الأربعاء من كل اسبوع — تهمس لنفسها : « آه ! .. لقد انقضى عليها اسبوع .. مضى اسبوعان .. مرت ثلاثة اسابيع .. مذ كنت هناك ! » .. وشيئا فشيئا ، اخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل فى ذاكرتها ، فنسيت الحان الرقص ، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات فى وضوح .. فقد ذهبت بعض التفصيلات .. وبقيت لها الحسرة !

الفصل التاسع

● كثيرا ما كانت « ايما » تسعى إلى الصوان — إذا ما غادر «شارل» المنزل — فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التى دستها بينها ، وتروح تتأملها ، وتفتحها .. بل إنها كانت تتنسم رائحة بطانتها التى جمعت بين العطر والتبغ ! .. ترى لمن كانت تلك الحافظة ؟ .. اتراها كانت للفيكونت ؟ ! .. لعلها إذن هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على إطار من خشب الورد ، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيدا عن اعين الفضوليين جميعا !.. ولعل الحائكة الحالمة شغلت بصنعها ساعات طوالا ، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج .. ولا بد أن نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة ، والفتاة تثبت مع كل غرزة من إبرتها املا او ذكرى ! .. كان الخيوط الحريرية فى امتدادها وتقاطعها ، انعكاس لما كان فى فؤادها من هيام صامت ! .. حتى إذا فرغت منها فى النهاية ، حملها « الفيكونت » معه ! .. ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الاطار العريض ، بين اصص الزهور وساعات « بمبادور » البندولية !

وكانت « ايما » ترتد من هذا الحلم إلى التفكير فى نفسها .. ها هى ذى فى (توست) و « الفيكونت » فى باريس .. بعيدا .. ترى كيف تكون باريس ؟ .. يا للاسم الضخم ! .. وراحت تردده لنفسها هامسة ، وهى تستشعر

متعة فى تكراره ! .. كان يرون فى اذنيها رنين ناقوس الكنيسة .. بل بدا كما لو كان يبعث شعاعا يترامى حتى يصل إلى البطاقات الصغيرة الملصقة على علب الدهان والمساحيق !

وكان صيادو السمك يمرون فى الليل تحت نوافذ الدار ، وهم يرددون أناشيدهم ، فكانت تستيقظ من نومها ، وتصغى إلى قرقعة المجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها فى النهاية ، بعد أن تبارح العربات البلدة .. وعندئذ تحدث نفسها قائلة : « لسوف يصلون إليها غدا ! » .. وكانت تتابعهم بخيالها ، وهم يصعدون الربى ، ويهبطون الوهاد ، ويجتازون القرى ، وينسابون فى الطريق العريض الممتد تحت اضواء النجوم .. ولا تلبث ، بعد مسافة لا تدرى مداها ، أن تجد نفسها فى مكان غامض ينتهى عنده حلمها !

وابتاعت خريطة لباريس ، فكانت تتابع معالمها باصبعها وتقوم بجولات وهمية فى أحيائها : تسير فى الشوارع الكبيرة ، وتقف عند الأماكن التى تتقاطع عندها خطوط الشوارع امام المربعات البيضاء التى تمثل المنازل .. حتى إذا كلت عيناها ، اطبقت جفنيها .. وإذ ذاك ، كانت ترى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألسنتها ، وأبواب العربات إذ تفتح فى صخب امام ابهاء المسارح !

واشتركت فى صحيفة « لاكوربى » ــ النسوية ــ ومجلة « سيلف » (اى « حوريات الصالونات ») ــ الاجتماعية ــ واخذت تلتهم ما كان ينشر فيهما ، دون ان تغفل كلمة من انباء

حفلات العرض الأول للمسرحيات ، وحفلات السباق والسهرات .. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة ، أو بافتتاح متجر ! .. واخذت تتعرف على الأزياء الحديثة ، وتحفظ عناوين امهر الحائكين والحائكات ، والأيام التى اعتاد المجتمع الباريسى ان يخرج فيها للنزهة فى الغابة ، او للسهر فى الأوبرا .. وراحت تدرس فى « اوجين سويه » أوصاف الأثاث .. وقرأت لبلزاك وجورج صاند وهى تنشد اشباعا وهميا لمطامعها الشخصية ! .. وبلغ من شغفها هذا ، ان كانت تحمل كتابها معها إلى المائدة وتقلب صفحاته ، بينما يكون « شارل » منهمكا فى الأكل والحديث .. وكانت ذكرى « الفيكونت » لا تفتأ تعاودها أثناء قراءاتها ، فتقارن بينها وبين الشخصيات التى تصادفها فى الروايات . على ان الدائرة التى كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئا فشيئا .. واخذت هالة الرواء ، التى احاطته بها ، تفارقه رويدا لتمتد إلى مسافات ابعد ، حيث تضىء احلاما اخرى !

وهكذا باتت « ايما » ترى باريس اكثر اتساعا من المحيط ، وقد راحت تتألق امام عينيها فى جو قرمزى !

❊ ❊ ❊

● على ان الوان الحياة المصطخبة فى هذا الخضم ، كانت ــ عند « ايما » ــ مقسمة إلى اجزاء ، ومرتبة فى لوحات متباينة ... ولم تكن « ايما » تتبين من العوالم التى تضمها باريس سوى اثنين أو ثلاثة تطغى على ما عداها ، كما لو كانت الإنسانية برمتها تتمثل فيها وحدها : دنيا السفراء ،

يخطرون فيها فوق ارض لامعة ، فى صالونات كسيت جدرانها بالمرايا ، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب ! .. وفى هذا العالم اثواب ذات ذيول جرارة ، واسرار خطيرة ، ومآس تختفى وراء الابتسامات ! .. ويلى ذلك ، عالم الدوقات .. حيث تكتسى الوجوه شحوبا ، ويستيقظ الرجال فى الساعة الرابعة ! .. وترتدى النساء — اولئك الملائكة المساكين — « جونلات » وشيت ذيولها بالنقوش المطرزة .. بينما يمتطى الرجال — اولئك الذين اوتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة — جيادهم ، ويندفعون بها ، حتى الموت فى سبيل التسلية ، ويذهبون إلى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف .. ثم يتزوجون فى النهاية — إذا ما بلغوا الأربعين — من النساء الوارثات !

.. وفى قاعات المطاعم التى تقدم العشاء بعد منتصف الليل ، يضحك — فى ضوء الشموع — جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والممثلات .. قوم مسرفون كالملوك ، تمتلىء نفوسهم بأنواع الطموح المثالى ، والهذيان الخارق ! .. وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين ، فهى معلقة بين الأرض والسماء ، فى غمرة العواصف .. حياة فيها شىء من السمو !

اما ما عدا هذه من عوالم ، فقد كان فى نظر « ايما » مضيعا ، تائها ، لاى مكان له ولا وجود !

وكانت « ايما » من اولئك اللاتى يزهدن فى اقرب الأشياء اليهن .. فكلما قربت الأشياء منها ، ازدادت نفسها عنها

ازورارا .. فكل ما يحيط بها مباشرة : من ريف ممل ، وبورجوازية ضئيلة حمقاء ، وحياة زرية ... كل هذه كانت تلوح لها اشياء شاذة ، ومصادفات خاصة « تورطت » فيها .. بينما كان يمتد خلفها جميعا — وإلى ما لا نهاية — عالم اللذات والانفعالات !

واختلطت فى احاسيسها لذات البذخ المادية بمسرات القلب ، ورقى العادات برقة المشاعر .. افلا يحتاج الحب — كما تحتاج نباتات الهند — إلى تربة معينة ودرجة حرارة خاصة ؟ .. فالزفرات فى ضوء القمر ، والعناق الطويل ، والدموع التى تنهمر على الأيدى المستسلمة ، وحمى الجسد ، ورقة الحنان ... كل هذه امور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية ، والطنافس السميكة ، واحواض الزهور ، والأسرة المقامة على منصات مرتفعة عن سطح الأرض ، وبريق الأحجار الكريمة ، واشرطة ازياء الخدم !!

* * *

● وكان السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس ، فيعبر المدخل فى حذاءيه الخشبيين الكبيرين — اللذين يضمان قدميه العاريتين — وسترته التى تتخللها الثقوب ، وسرواله القصير الذى لم تكن ثمة حيلة سوى الاكتفاء به ! .. فاذا انتهى من عمله ، انصرف إلى حيث لا رجعة له بقية النهار ، إذ ان « شارل » كان يتولى بنفسه — عند عودته — إيواء الفرس فى الحظيرة ، ورفع سرجها عنها ، بينما تحمل إليها الخادم حزمة من القش ترميها فى المذود كيفما اتفق !

وكانت « نستازى » قد غادرت (توست) اخيرا ، وهى تذرف الدمع مدرارا ، فاستعاضت « ايما » عنهـا بفتـاة فى الرابعة عشرة ، يتيمة ، مليحة القسمات . وحظرت عليهـا لبس « الطاقية » القطنية ، وعلمتها كيف تخاطبها فى احترام، ودربتها على ان تحمل كوب الماء فى طبق ، وان تطرق الباب قبل الدخول ، وان تكوى الثياب وتكسبها بالنشاء استواء ، وان تساعدها على ارتداء ثيابها .. كل ذلك لانها ارادت ان تجعل منها وصيفة لها !

واعتادت الخادم الجديدة ان تطيع فى غير تذمر حتى لا تطرد ! .. وإذ كانت السيدة قد الفت ان تترك المفتاح فى « البوفيه » ، فان « فيليسيتيه » — الخادم — كانت فى كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من السكر لتأكلها ، حين تخلو إلى نفسها فى فراشها ، بعد أن تؤدى الصلاة ! .. اما فى الفترات التى كانت السيدة تلزم فيها مخدعها فى الطابق العلوى — بعد ظهر كل يوم — فكانت الفتاة تسعى احيانا إلى السياس الموجودين فى المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث !

وكانت « ايما » فى تلك الفترات ترتدى « روب دى شامبر » مفتوحا ، تكشف قلابات صدره العريضة عن صدار ذى ثنيات وثلاثة أزرار ذهبية ، يضم اطرافه حول الخصر حزام كالحبل المجدول ، ينتهى بكرات كبيرة ذات «شرابات» .. اما قدماها ، فكانت تغيبهما فى خفين — « بانتوفلى » — فى لون الرمان ، تنتشر على سطحيهما اشرطة عريضة ..

وابتاعت أوراقا للكتابة ، واوراق نشاف ، وريشة ،

ومظاريف وورقا للرسائل ، وإن لم يكن ثمة من تكتب إليه ! .. وكانت تنفض الغبار فى الرف ، وتتطلع فى المرآة ، ثم تتناول كتابا فلا تلبث ان تراودها الأحلام بين سطوره فتشغل عنه ويسقط بين ركبتيها ! .. واخذت تتوق إلى القيام برحلات ، او إلى العودة للدير كى تعيش فيه ! .. كانت تتمنى المتناقضات فى آن واحد .. أن تموت .. وأن تعيش فى باريس !!

اما « شارل » ، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية — المفضية إلى المزارع والقرى — تحت المطر والجليد ، يأكل « العجة » على موائد الريف ، ويدس يديه فى الأسرة الرطبة التى يرقد فيها المرضى ، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافىء المنبثق من الفصاد ، ويسمع الحشرجات ، ويفحص البطون ، ويرفع الثياب القذرة على اجساد المعلولين ! .. لكنه كان يجد فى كل مساء نارا مستعرة ، ومائدة معدة ، واثاثا مريحا ، وزوجة فى ابدع زينة ، تتضوع باريج عطر كان يحار فى التكهن بمكانه : اهو قميصها ، أم بشرتها ؟ !

وكانت تفتنه بمبتكراتها ، التى كانت تتمثل حينا فى مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات ، وتتمثل حينا آخر فى ثنية تغير موضعها فى ثوبها ، او فى اسم مبتكر للون بسيط من الطعام اخفقت الخادم فى صنعه ، فلا يصد إخفاقها « شارل » عن التهام الصنف حتى يأتى عليه !



ثم تتناول كتــابا ، فلا تلبث أن تراودها الأحــلام بين سطوره ، فتنشغل عنه ويسـقط بين ركبتيها

ورأت « إيما » فى (روان) سيدات يحطن ســاعاتهن بعقود من الحلى الزائفة ، فابتاعت حليا زائفة ! .. ورأت أن تزين رف مدفأتها بآنيتى زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق ، لم تلبث أن ضمت إليهما صندوقا من العاج لأدوات الحياكة ، و « كستبانا » من العقيق ! .. وكان « شارل » كلما ازداد عجزا عن فهم كنه أسـباب تلك الأناقة ، ازداد انصـياعا لسحرها ، إذ كانت تضفى على حواســه لذة ، وعلى داره رواء .. وكأنها غبار ذهبى ينتشر على طول طريق حيــاته الضيق !

وغدت صحته طيبة ، ووجهه مشرقا ، وشهرته مستقرة منيعة ! .. كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متغطرسا ، بل كان يداعب أطفالهم ! .. ولم يكن يغشى الحانات .. وكان فى خلقه — فوق ذلك — ما يوحى بالثقة والطمأنينة .. وقد نجح — بوجــه خاص — فى عــلاج نزلات البــرد والأمــراض الصدرية ! .. والواقع أن « شارل » كان يخشى دائما أن يقتل مرضــاه ، ولذلك لم يكن يوصى لهم إلا بالأدوية المهدئة للألم !! وكان يوصى — بين آن وآخــر — بشراب مقيىء ، وبحمام القدم ، وباستخدام العلق (الدود) الذى يمتص الدم الفاسد ، وكان يسرف فى فصدهم بالعلق فى سخاء ، وكأنهم جياد ! .. أما فى اقتلاع الأضراس ، فقد كانت له قبضــة حديدية !

* * *

● وحتى يظل على دراية بمــا يستحدث فى الطب ، اشــترك فى مجلة « الخلية الطبية » بعد أن تسلم إعلانا عنها .

وكان يقرأ فيهـا بعض الوقت عقب العشـاء ، ولكن دفء الغرفة ، والاسترخـاء الذى يدب فى الجسم اثناء عمليـة الهضـم ، كانا لا يلبثان ان يسلماه إلى النوم بعـد خمس دقائق .. فيظل مسترخيا ، وذقنه معتمدة على يديه ، وشعره متهدل – كالعرف – حتى اسفل المصباح ، و « ايما » ترقبه ، ثم تهز كتفيها ! .. لمـاذا لم تحظ بزوج ولو من اولئك الذين يقضون الليل بين الكتب ، ويحملون فى النهاية – إذ ما بلغوا الستين ، سن « الروماتيزم » – وساما على شكل الصليب ، فوق بزاتهم السوداء ؟ .. لكم كانت تشتهى أن يغدو اسـم « بوفارى » ذائعا ، وأن تراه معروضا عند باعة الكتب ، تردده الصحافة ، وتعرفه فرنسا باسرها !

بيد أن « شارل » لم يكن يعرف الطموح أبدا !

ولقد حدث ان اهانه يوما طبيب من (ايف تو) – اجتمع معه للتشـاور – امام فراش مريض ، وعلى مسمع من اقاربه المحيطين بهما ، فلما روى الحادث لايما فى المسـاء ، ثارت فى حنق على ذلك الزميل إلى درجـة جعلت « شـارل » يتأثر بالفعل ، ويقبلها فى جبينها وهو دامع العينين .. ولكنها كانت تغلى لفرط احساسها بالخزى لمـا ناله ، حتى لقـد ودت لو تضربه ! .. ولكنها لم تملك إلا ان تسـير إلى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ ثورتها .. واخـذت تعض شفتيهـا وتردد فى صـوت خفيض : « ياله من رجل مسكين ! .. يا له من رجل مسكين ! » .

والواقع أن ثورتها كانت ضد زوجها بالذات .. فلقد

اخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن .. كان يلهو – عند تناول الحلوى – بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة .. وكان بعد الأكل يلعق اسنانه بلسـانه .. كما كان يرشـف الحساء بصوت منكر .. ولمـا كانت البدانة قد اصابته ، فان وجنتيه المنتفختين دفعتا بعينيه الصـغيرتين إلى اعلى نحـو الصدغين !

وكانت « ايما » تسوى له اطراف صداره الحمراء فى بعض الأحيان ، وتصلح من وضع رباط عنقه ، او تطوح جانبا بقفازين قذرين يهم باستعمالها .. والواقع انها لم تكن تفعل ذلك من اجله – كما كان يخال – وإنما كانت تفعله من اجل نفسها ، وبدافع من اثرتها وتوتر اعصابها ! .. وكانت تحدثه احيانا عن شىء مما تقرأ ، كفقـرة من رواية او مشـهد من مسرحية جديدة او حادث من انباء الطبقة الراقية المنشورة فى الصحف .. فقد كانت ترى انه – على اية حال – إنسان ، له اذن تسمع باستمرار .. وله استعداد للموافقة دائما على ما يسمع ! .. بل إنها كانت تبـوح باسرارها لكلبهـا .. ولحطب المدفأة ، وبندول الساعة !!

وكانت فى هذه الأثناء كلها لا تنى تنتظر فى اعماق نفسها حدثا ما ! .. كانت ، كالملاح المكروب ، تسرح ببصرها القانط فى وحشة حياتها ، بحثا عن شراع ابيض فى ضـباب الأفق البعيد ! .. وما كانت تدرى كنه ذلك الحدث ، ولا اى ريح ستسوقه إليها ، ولا إلى اى شاطىء سيدفعها .. وهل هو زورق ، او سفينة ذات ثلاثة طـوابق .. وهل يكون مفعما

بالأسى ، أو طافحا بالهناءة ! .. ولكنها كانت إذا استيقظت فى كل صباح تمنت لو يواتيها فى يومها .. كانت تنصـــت لكل صوت ، وتقفز ناهضة تستجليه ، ثم تشعر بصدمة لأن شيئا لم يحدث ! .. فاذا جنحت شمس اليوم للمغيب ، اشتد بها الأسى ، وراحت تتمنى لو تعجل الغد واقبل !

ووفد الربيع مرة اخرى ، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التى تهب حين تزهر أشجار الكمثرى .. حتى إذا بدأ شهر يوليو ، أخذت تعد الأسابيع على أصابعها فى ارتقاب شهر أكتوبر ، راجية ان يقيم « المركيز دى اندفيلييه » حفلا راقصا آخر فى (فوبيسار) ! .. بيد ان شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات او زيارات !

❊ ❊ ❊

● واحست مرة اخرى ــ بعد انقضاء المرارة التى خلفتها خيبة الرجاء ــ بفراغ فى فؤادها .. وبدأت من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرتيبة ، التى لا تتغير ، ولا تأتى بجديد ! .. لقد كان يصادف حياة سواها ــ مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة ــ حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف .. ولقد تؤدى مغامرة واحدة ــ أحيانا ــ إلى سلسلة لا تنتهى من الأحداث التى تغير إطار الحيـــاة .. أما هى ، فلم يكن يصادفها شىء .. كما لو كانت تلك هى إرادة الله ! .. كان المستقبل يمتد امامها كسرداب مظلم ينتهى بباب محكم الاغلاق !

واهملت الموسيقى .. فلمـــاذا تعزف ، ومنذا الذى يسمعها ؟ ! .. لم يكن ثمة ما يدعو إلى بذل الجهد فى المران ،

ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهى تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح « البيانو » العاجية فى حفل عام ، وقد ارتدت ثوبا من المخمل قصير الكمين ! .. كذلك ابقت لوحـــات الرســـم وقطع التطريز فى الصـــوان .. إذ ما جدواها ؟ .. واى نفع منهـــا ؟ .. اما الحياكة ، فقـــد اصبحت تثير اعصابها ! .. حتى القراءة ، انصرفت عنها قائلة لنفسها : « لقد قرأت كل شىء ! » .

واخذت تضع الملاقط فى النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر .. وترقب المطر وهو يتساقط بنظرات جـــوفاء ! .. ولشد ما كان يجتاحها الأسى إذا ما دق الناقوس لصلاة المساء فى يوم الأحد ! .. كانت تصغى بذهن شارد إلى دقات الجرس المشروخ وهى تتتابع .. بينما يخطر على سطح المبنى القائم فى مواجهتها قط احنى ظهره لأشـــعة الشمس الشاحبة .. والريح تثير غيوما فوق الطريق الرئيسية .. وقد ينبعث من بعد نباح احد الكلاب والناقوس مسترسل فى دقاته المملة ، يرسلها فى إيقاع رتيب ، فلا تلبث ان تتلاشى فوق الحقول ..

ثم يخرج الناس من الكنيســـة : النساء فى احذية لامعة ، والرجال فى اقمصة جديدة ، يتقدمهم الأطفال يقفزون ورؤوسهم عارية .. ويأوى الجميع إلى منازلهم فيما عدا خمسة رجال او ستة ، كانوا دائما يظلون ــ حتى يهبط الليل ــ امام الحانة يمارسون لعبة الفلين !

❊ ❊ ❊

● ثم اقبل الشتاء قارسا ، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ فى كل صباح ، فيبدو — إذ يخترقه الضوء — كالزجاج « المصنفر » .. وفى ذلك الجو المتجهم ، كان لابد من اضاءة المصابيح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر ..

وكانت « ايما » تهبط إلى الحديقة فى الأيام الرائقة ، فاذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشيا من الفضة ، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة إلى اخرى .. ولم تكن شقشقة العصافير تتردد ، بل كان كل شىء يبدو مخلدا إلى النوم ، والعرائس مكسوة بالقش ، والكروم تمتد — كثعبان كبير مريض — تحت اقبية الجدران ، حيث يرى الإنسان — إذا ما اقترب — الخنافس وهى تزحف ! .. وإلى جوار السياج من ناحية غابة الصنوبر كان تمثال القس ذى القلنسوة ماضيا فى قراءة كتاب الصلوات ، وقد فقد قدمه اليمنى ، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف على وجهه قرحا بيضاء !

ولا تلبث « ايما » أن تصعد إلى مخدعها فتغلق الباب ، وتبسط الوقود ، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها ، وتبعث فى نفسها مللا تخاله ثقلا فادحا يجثم على صدرها ، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم ، لولا أن يمنعها الحياء !

وفى ساعة معينة من كل يوم ، كان ناظر المدرسة ذو الطاقية الحريرية السوداء يفتح نوافذ منزله .. ويمر حارس الحقول حاملا سيفه فوق قميصه .. وكانت خيل البريد تعبر الشارع — فى الصباح والمساء — ثلاثة ، ثلاثة ، تسعى إلى البركة لترتوى .. ومن وقت إلى آخر ، يصلصل جرس بباب احدى الحانات .. فاذا هبت الريح ، انبعث

صرير من اللافتات النحاسية المعلقة على جانبى حانوت الحلاق ، الذى كانت كل زينته تتمثل فى صورة الصقت على لوح من زجاج النافذة ، وتمثال نصفى من الشمع لامراة ذات شعر اصفر زاه . وكان صاحب هذا الحانوت يندب — هو الآخر — موهبته التى تعطلت ، ومستقبله الذى ضاع .. ويحلم بحانوت فى بلد كبير مثل (روان) ، يقوم إلى جوار المسرح ، مطلا على الميناء ! .. وكان يقضى نهاره يتمشى جيئة وذهابا بين دار البلدية والكنيسة ، يرتقب العملاء فى اكتئاب .. فكلما اطلت مدام « بوفارى » الفته فى سيره هذا كديدبان فى نوبته ، وقد ارتدى سترة العمل التى لا يغيرها ، وقلنسوة يونانية !

وكان يبرز — فى اويقات العصر احيانا — راس رجل وراء زجاج البهو .. راس لفحته الشمس ويزينه شاربان اسودان ، وقد اخذت اساريره تنفرج فى تؤدة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن اسنان بيضاء .. ثم تبدأ رقصة — على نغمات « الفالس » المنبعثة من ارغن يديره الرجل — فى صالون دقيق صغير ، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الاصبع ! .. راقصون بينهم نساء بعمائم وردية ، ورجال من ابناء « التيرول » فى معاطفهم التقليدية ، وقردة فى ملابس سوداء ، ورجال فى سراويل قصيرة .. يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد ، وتنعكس حركاتهم مرارا فى مرايا التصق بعضها إلى بعض بشريط من ورق مذهب . وكان عازف الأرغن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره يمنة ويسرة ، ثم يتطلع إلى النوافذ .. وكان يرفع آلته — من

وقت إلى آخر ـ بركبته ؛ بعد ان تعيى كتفه حمالتها الغليظة ، وهو يرسل قذائف طويلة من بصاق بنى اللون على احجار الطريق .. والموسيقى الحزينة المتباطئة ـ تارة ـ والمرحة السريعة ـ تارة اخرى ـ تنبعث من صندوقه خلال ستارة من « التافتاه » وردية اللون ، علقت بمشجب نحاسى ذى زخرف عربى .. وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح ، او فى الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها فى السهرات ، وتحت الثريات المتلألئة .. فكانت بمثابة اصداء تصل إلى « ايما » من المجتمعات الراقية التى تهفو إليها ! .. وفى مخيلتها ، كانت تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهى ! .. وكان تفكيرها يقفز مع النغمات ـ كالراقص فوق بساط من زهور ـ متنقلا من حلم إلى حلم .. ومن شجن إلى شجن !

وكان الرجل ـ بعد ان يتلقى فى قلنسوته ما يجود به اهل الشارع من صدقات ـ يطرح فوق الأرغن غطاء قديما من الصوف الأزرق ، ثم يحمله على ظهره وينصرف فى خطى ثقيلة .. و « ايما » ترقبه وهو يبتعد !

وكان جلدها يغدو اقرب ما يكون إلى النفاد والانهيار فى اوقات الوجبات ، فى تلك القاعة الصغيرة بالطابق الارضى ، حيث الموقد الذى لا ينفك عن ارسال الدخان ، والباب الذى يبعث صريرا ، والجدران المنداة ، والأرضية الرطبة .. كان يخيل لها إذ ذاك ان مرارة الحياة بأسرها تخالط طعامها ! .. ومع بخار الحساء ، كانت تتصاعد من اعماق روحها نفثات من الإعياء والضيق ! .. ولما كان « شارل » بطيئا فى الاكل ، فقد كانت تنفق الوقت فى قرض بندقة ، او تعتمد بمرفقيها

على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المفرش !

واصبحت تهمل كل شىء فى دارها .. فلما اقبلت مدام «بوفارى» الام إلى (توست) لتقضى بضعة أيام اثناء الصوم، راعها هذا التغير ، فإن « ايما » ، التى كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها ؛ حريصة على اناقتها ، اصبحت تمكث اياما بطولها دون أن ترتدى ملابس زينتها ، وهى تروح وتغدو فى جوربين رماديين من القطن .. كما اصبحت تقتصر على استخدام الشموع فى اضاءة البيت ، مرددة ان لابد من الاقتصاد لانهم ليسوا من اهل الثراء ! .. وكانت تضيف إلى هذا انها سعيدة كل السعادة ، راضية كل الرضا ، وأن (توست) تروق لها .. وامثال هذه العبارات الجديدة التى كانت تغلق فم حماتها عن اللوم !

على أن « ايما » اضحت ـ إلى جانب ذلك ـ تبدى عدم استعداد لتقبل ارشادات حماتها ! .. وقد حدث مرة ان بدا لمدام « بوفارى » الام ان تشير إلى ان من واجب المخدومين ان يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين ، فأجابتها « ايما » بنظرة تتقد غضبا ، وابتسامة تفيض برودا ، مما حدا بالسيدة إلى ان تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها !

واصبحت « ايما » حادة المزاج ، كثيرة النزوات ، غريبة الاطوار .. فهى تطلب الوانا معينة من الطعام ثم لا تقربها .. وقد تصر يوما على ان لا تتناول سوى اللبن الصافى ، ثم تتقبل فى اليوم التالى على عشرات من اقداح الشاى ! .. وكانت تقرر احيانا عدم الخروج ، فتضيق

انفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدى ثوبا خفيفا ! .. وكانت تعنف مع الخادم ، ثم لا تلبث ان تسترضيها بالهدايا ، او ترسلها للنزهة لدى الجيران ! .. كذلك كانت احيانا تقذف للفقراء بجميع ما فى كيسها من نقود فضية ، رغم انها لم تكن يوما رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين !

* * *

● وحوالى نهاية شهر فبراير ، حمل الأب « روو » — بنفسه — إلى صهره ديكا روميا بديعا ، رمزا لذكرى شفائه . واقام فى (توستت) ثلاثة ايام . وإذ كان « شارل » فى تلك الاثناء مشغولا بمرضاه ، فقد بات على « ايما » وحدها عبء مصاحبته ، فامضها منه انه كان يدخن فى الغرفة ، ويبصق فى المدفأة ، ويتحدث عن الزراعة والعجول والأبقار والدجاج والمجلس البلدى .. حتى لقد عجبت من نفسها إذ احست بشعور من الارتياح يداخلها حين اغلقت الباب خلفه عقب رحيله ! .. والواقع انها لم تعد تتحرج من ان تبدى احتقارها لشىء أو ازدراءها لأحد .. وكانت تصدر عنها أحيانا آراء غريبة ، فتنتقد ما يرضاه الناس ، وتحبذ امورا لا تستقيم مع الاخلاق ، الامر الذى كان يترك زوجها مذهولا !

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها : أيلازمها هذا البؤس ابد السنين ؟ ! .. او ليس هناك من مخرج ؟ ! .. إنها لا تقل عن اولئك اللائى يعشن فى سعادة .. بل لقد رات فى (فوبيسار) دوقات أسوا منها قواما ، واقل رقة وتهذيبا ! .. واخذت تسخط على ظلم الاقدار .. وتسند راسها إلى الجدران لتبكى ! .. كانت تحسد اولئك الذين يحظون بحياة

صاخبة ، ويقضون الليالى فى حفلات تنكرية ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التى تثير سماعها فى نفسها مشاعر لا تدرك كنهها !

ومال لونها إلى الشحوب ، واضطربت دقات قلبها ، فاعطاها « شارل » دواء يهدىء اعصابها ، ووصف لها حمامات الكافور .. ولكن محاولاته لم تزدها إلا هياجا ! .. وكانت فى بعض الأيام تثرثر فى فيض محموم ، ثم لا يلبث ان يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجىء ، لا تنطق خلاله بلفظ ، ولا تأتى بحركة .. ولم يكن ينعشها إذ ذاك سوى زجاجة من ماء « الكولونيا » تسكبها على ذراعيها !

وإذ اخذت تشكو من (توستت) بلا انقطاع ، فقد حدس « شارل » أن مرضها ناشىء عن سبب محلي ، ورسخ فى نفسه هذا الرأى ، حتى انه اخذ يفكر جديا فى ان يبحث عن بلد آخر يقيمان فيه ..

ثم عمدت إلى شرب الخل لتزداد نحافة ، فاصيبت بسعال بسيط جاف ، وفقدت شهيتها إلى الطعام تماما ! .. وكان يعز على « شارل » ان يرحل عن (توستت) بعد ان اقام بها اربع سنوات توطد خلالها مركزه .. ولكنه مع ذلك لم يلبث ان خضع لاحكام الضرورة ، عندما صحبها إلى استاذه القديم فى (روان) ، فتبين — بعد ان فحصها — انها تعانى من مرض عصبى ، لا بد لعلاجه من ان تبدل الجو الذى تعيش فيه !

واخذ « شارل » يتحرى هنا وهناك ، حتى علم ان فى مقاطعة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (ايونفيل ـــ الدير) غادرها طبيبها ـ وكان من البولنديين اللاجئين ـــ منذ اسبوع ، فكتب إلى صيدلى القرية يسأله عن عدد سكانها ، وعن المسافة التى تفصلها عن أقرب قرية بها طبيب ، وعن الدخل الذى كان يصيبه سلفه فى العام .. الخ . ووجد فى الرد ـــ حين جاءه ـــ ما أرضاه ، فقرر أن ينتقل إلى تلك القرية فى الربيع التالى ، إذا ظلت صحة « ايما » دون ما تحسن !

وفيما كانت « ايما » تستعد للسفر ، أصيب أحد أصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها ، وهى ترتب أحد الأدراج ذات يوم . كانت براعم البرتقال ـــ فى الباقة ـــ قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها ، واخذت الأشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل .. ولم تحجم « ايما » عن إلقاء الباقة فى نار المدفأة ، فاذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف .. وما لبثت النيران أن التهمتها ، فراحت تتقلص ببطء وقد تفجرت حبيبات الورق المقوى ، والتوت الأسلاك ، وانصهرت الأشرطة المعدنية ، وتيبست أوراق الزهر الصناعى .. ثم اخذت اشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الأسود .. وما لبثت أن تطايرت خلال المدفأة !

وعندما غادر الزوجان (توست) فى شهر مارس ، كانت مدام « بوفارى » حاملا !!

———— ● ————

- ٢ -

الفصل الأول

● اخذت قرية (ايونفيل ـ الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين ، لم يتبق منه حتى الاطلال . وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان) ، وتقع بين طريق (آبفيل) وطريق (بوفيه) ، عند نهاية واد يرويه نهر (الرييول) .. وهو فرع صغير يصب فى نهر (الانديل) بعد ان يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه . وبه بعض السمك من نوع « البلطى » يصيده الغلمان بالشص فى ايام الآحاد .

فاذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسيير)، مضى فى طريق مستوية حتى يصل إلى أعلى هضبة (لو) ، حيث يشرف على الوادى .. ويشق هذا الوادى نهر يشطره إلى قسمين مختلفى المعالم .. فالشطر الممتد على الضفة اليسرى كله مراع ، فى حين ان الشطر المترامى على الضفة اليمنى كله حقول .. وتمتد المراعى تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل فى اقصاها بمراعى مقاطعة (بريد) ، بينما يصعد السهل فى رفق من الناحية الشرقية ، ثم ياخذ فى الاتساع .. وتمتد على مرامى البصر حقول القمح الشقراء ، والماء يجرى فى خط ابيض يفصل بين المروج من ناحية ، والأرض المزروعة من ناحية اخرى .. وكان المنظر ـــ فى مجموعه ـــ عباءة كبيرة بسطت امامك ياقتها التى صنعت من مخمل أخضر حف بشريط من فضة .

وعند نهاية الأفق ، تبدو للرائى اشجار البلوط فى غابة (ارجى) ، ومرتفعات هضبة (سان جان) ، تتخللها — فى خطوط تمتد من أعلى إلى أسفل — مسارب طويلة حمـراء غير متساوية من آثار المطر .. اما اللون الأحمـر الذى يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادى ، فناشىء عن توفر مادة الحديد ، التى تفيض بها العيون العديدة المتناثرة فى المنطقة المحيطة .

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورمانديا) و (بيكاردىا) و (ليل دى فرانس) .. مقاطعة تضم سكانا من عناصر شتى ، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة ، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص ! .. وهناك ايضا تصنع أردا انواع الجبن الذى يصنع فى مقاطعة (نيوشاتل) بأسرها .. فضلا عن ان الزراعـة فى هذه المنطقة تتطلب نفقات باهظة ، لأنها تحتاج إلى كثير من الأسـمدة لتخصب تلك التربة الهشـة المليئـة بالرمل والحصى .

ولم يكن فى هذه المنطقة — حتى سـنة ١٨٢٥ — طريق ممهد يفضى إلى (ايونفيل) . بيد ان طريقا ريفيا فرعيا انشىء فى ذلك العام ، فوصل بين طريقى (ابفيـل) و (اميـان) ، واصبحت تجرى عليه احيانا عربـات النقل الذاهبـة من (روان) إلى (الفلاندر) ..

* * *

● على ان (ايونفيل — الدير) ظلت على حالهـا ، بالرغم من الاصلاحات الجديدة . فبدلا من ان ينشط اهلها

لتحسين الزراعة بها ، ظلوا متشبثين بالمراعى على انخفاض دخلها وقيمتها . واخذت القرية الكسـول تنفصل بالطبيعة عن السـهل ، وتتبع فى اتساعها مجرى النهر ، حتى أن الرائى يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر ، كقطيع من البقـر يقيل على حافة المـاء !

وفى نهاية جسر مقام على النهر — فى اسفل الهضبة — يمتد طريق تحف بجانبيه اشـجار الحور الصغيرة ، يفضى بك مباشرة إلى طليعة منازل القرية .. وهى بيوت تحيط بها أسوار ، وقد اقيمت وسط ساحات تناثرت فيهـا المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير ، تحت الأشجار المتشابكة التى تستند إليهـا سـلالم متنقلة ، او تعلق باغصانهـا (الخطاطيف) والمناجل ..

وكانت الاسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيـات الفراء المنزلقة على عيون لابسيها ، إذ كانت تكاد تخفى ثلث النوافذ المنخفضة ، التى كان زجاجهـا السـميك المحدودب يتجمع عند وسطه فى عقدة كقاع الزجاجة .. وعلى الجدران المشيدة من الجص ، والتى تمتد بين زواياها المتقابلة اعمـدة خشبية سوداء ، كنت ترى أحيانا شـجره من شـجيرات الكمثرى الهزيلة .. وعند الباب الخارجى لكل دار ، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذى يتسلل إلى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع فى نبيذ التفاح ! .. وكلما تقدمت فى السير نحو القرية ، صغرت ابنية الدور ، وتقاربت المبانى واختفت الحواجز بينها .. وقد ترى هنا حزمة من نبات « النرخس » تهتز فى نهاية عصا مكنسة تحت احدى

النوافذ .. وهناك حانوت بيطار ، أو محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان أو ثلاث عربات جديدة .. وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت أبيض تمتد امامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال « كيوبيد » وإحدى أصابعه على شفتيه .. وإلى جانبى قمة الدرجات الأمامية آنيتان من النحاس .. وعلى الباب تلمع لافتتان تنمان عن ان هذا بيت موثق العقود .. اجمل بيوت البلدة !

وعلى الجانب الآخر من الشارع ، وعلى بعد عشرين خطوة ، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان ، تحيط بها مقبرة صغيرة ، يحتضنها سياج فى ارتفاع صدر الإنسان ، وقد اكتظ بالقبور حتى اصبحت الأحجار القديمة فى مستوى الارض ، تؤلف فيما بينها رصيفا طويلا ، امتدت الحشائش خلاله تقسمه إلى مربعات .. وكان مبنى الكنيسة قد جدد فى عهد شارل العاشر ، فاخذ سقفها الخشبى يبلى عند قمته .. وفى المكان المخصص للأرغن — فوق الباب — أقيمت شرفة للرجال ، تؤدى إليها سلم حلزونية تهتز تحت وقع الاقدام فى نعالها الخشبية !

وكان الضوء الذى ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط فى انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التى زينت — هنا وهناك — بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة « مقعد السيد فلان » . وعلى مسافة قليلة ، يضيق دهليز الكنيسة ، ثم يقوم كرسى الاعتراف إلى احد الجانبين ، وإلى الجانب الآخر تمثال للعذراء فى ثوب من الحرير ، وعلى رأسها

نقاب من التل مرصع بنجوم فضية ، وقد طليت وجنتاها باللون الاحمر كما لو كانت وثنا من أوثان جزر « سندويتش » !! .. واخيرا ، تطل على المذبح المرتفع صورة « الاسرة المقدسة — مهداة من وزير الداخلية » ، بين أربعة شمعدانات . أما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر ، فقد ظلت بلا طلاء !

* * *

● وكانت السوق — أو بالاحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عمودا تقريبا - تشغل حوالى نصف الميدان العام فى « ايونفيل » .. أما دار البلدية — التى شيدت وفقا لرسم اعده مهندس من باريس — فكانت تشبه معبدا إغريقيا ، وترسم مع حانوت الصيدلى شكل زاوية . وكانت فى الطابق الأرضى ثلاثة أعمدة يونانية .. وفى الطابق الاول بهو نصف دائرى تعلوه قبة يشغلها تمثال « ديك الغال » ، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور ، بينما أمسك بقدمه الأخرى ميزان العدالة !

على ان اكثر ما كان يسترعى الانتباه ، هو صيدلية السيد « هوميه » التى تقع فى مواجهة فندق « الاسد الذهبى » .. لا سيما فى المساء حين يضاء المصباح فيرسل اشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء ، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون .. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلى وهو متكىء إلى مكتبه يبدو كما لو كان غارقا فى اضواء الصواريخ ! .. وكانت داره مكسوة باعلانات كتبت

بخط اليد او بالحروف الكبيرة او بحروف الطباعة : « ميـاه فيشى . وســلتزد ، وباريج .. ومنقيات الدم .. وعقـار راسبيل .. والمزيج العربى .. و « باستيليا » دارسيه .. وبلسم رينيو .. واربطة .. وكمادات .. وشيكولاته » .. الخ . وفى مؤخرة الحانوت ، وخلف النضد الذى حمل الميزان الكبير كانت كلمة « المعمل » تبدو على باب زجاجى تكرر على وسطه اسم « هوميه » بحروف ذهبية ، فوق رقعة سوداء !

ولم يكن ثمة ما يشاهد فى « ايونفيل » عدء ذلك ، فان الشارع الأوحد ــ الذى لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف النارى والذى تقوم الحوانيت على جانبيه ــ كان لا يلبث أن ينتهى عند منعطف الطريق الزراعى .. فاذا خلفه المرء وانحرف إلى اليمين فى محاذاة منحدر هضبة (سان جان) ، وصل إلى المقابر .. وكان القوم ، عندما تفشت «الكوليرا» ، قد هدموا جانبا من جدارها ، وضموا إليها بضعة أفدنة لتوسيعها ، بيد ان القطعة الجديدة بقيت شبه خالية ، وظلت القبور تتكدس على مقربة من الباب ، كما كانت الحال من قبل . وقد استغل الحارس ــ الذى كان فى الوقت ذاته شماسا ، مما مكنه من مضاعفة الإفادة من موتى الابروشية ــ بقاء هذه الأرض على حالها ، فراح يستنبت البطاطس فيها . بيد أن حقله الصغير اخذ يضيق سنة بعد اخرى ، إلى ان تفشى الوباء ، فلم يعد يدرى : أيبتهج لكثرة المرضى ، أم يحزن لامتداد المقابر ؟ ! .. ولقد قال له القس يوما : «انك تعيش على الموتى يا لستيبودوا» ، فحملته هذه الملاحظة الكئيبة على التفكير ، وصدته زمنا عن حقله .. ولكنه ما زال حتى اليوم ــ (اى حتى كتابة هذه

القصة) ــ يواصل زراعة بطاطسه ، بل ويزعم فى صفاقة انها تنمو من تلقاء ذاتها !

ولم يتغير شىء فى «ايونفيل» منذ الأحداث التى سنرويها .. فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة ، والمصنوع من الصـفيح ، يدور فوق برج الكنيسة .. وما زالت ترفرف على متجـر الاقمشة رايتان من البفتة .. والأجنـة التى يحتفظ بهـا الكيميائى محنطة كحزم الصوفان الأبيض آخـذة فى التحلل يوما بعد يوم فى كحولها المعكر ! .. وما زال تمثال الأسـد الذهبى الحائل اللون يجثم على الباب الأمامى للفندق ، يطالع المارة بلبده الشبيه بفروة الكلب !

* * *

● وفى المساء الذى كان مقدرا ان يصل فيه « بوفارى » وزوجته إلى « ايونفيل » ، كانت الأرملة « لوفرانســوا » ــ صاحبة الفندق ــ كثيرة المشاغل إلى حد ان العرق اخـذ ينضح منها فى قطـرات كبيرة وهى تروح وتغـدو بآنيـة المطبخ ! .. كان اليوم التالى هو يوم السوق ، ولا بد من أن تقطع اللحم مقدما ، وتنظف الدجاج ، وتعد الحساء والقهوة . كما كان عليها ــ فوق ذلك ــ أن تجهز للنزلاء غداءهم ، وان تعد للطبيب وزوجته وخادمهما العشاء .. وكانت تتردد فى قاعة « البلياردو » ضحكات صاخبة . وفى غرفة الجلوس ، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون فى طلب الخمر ! .. وكانت النار تتاجج فى خشب الموقد ، والآنية النحاسية تئز فوقهــا بعد ان بدات محتوياتها فى الغليان . وعلى مائدة المطبخ الطويلة ،

وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة ، تكدست أكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التى كانت « الســـبانخ » تتقطع فوقها .. ومن فناء المبنى كانت تنبعث صـــيحات الدجاج الذى كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقه !

ووقف بجوار المدفأة — يدفىء ظهره — رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدرى، وقـــد ارتدى خفين أخضرين وقلنسوة من المخمل ذات « شرابات » ذهبية .. ولم يكن وجهه ينم عن شىء اللهم إلا الرضاء عن نفسه ، وقد بدا أنه يطمئن إلى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه .. كان ذلك الرجل هو : الصيدلى !

وعلى حين غرة ، صاحت السيدة صاحبة الفـــندق : « أرتميز .. شقى بعض الخشـــب ، واملئى الدوارق ، وأحضرى بعض الخمر ، وأيقظى حواسك .. آه ، لشـــد ما أنا حائرة فى اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه ! .. يا للسماء الرحيمة ! .. هاهم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم فى غرفة « البلياردو » بعد أن تركوا عربتهم أمام الباب ! .. أن « العصفورة » — (اسم عربة) — قد تصطدم بها إذا ما جاءت ، فادعوا بوليت لتقودها إلى الحظيرة .. تصور يا مسيو هوميه أنهم لعبوا نحو خمسة عشر دورا منذ الصباح ، وشربوا ثمانى قنينـــات من نبيـــذ التفاح ! .. إنهم يوشكون أن يمزقوا كساء منضدة البلياردو »!

وأخذت تتأملهم عن كثب ، بينما أجاب الســـيد هوميه : « لن يكون الضرر كبيرا ، فإنك مســـوقة حتمـــا إلى شراء غيرها » !

فهتفت الأرملة مأخوذة : « منضدة أخرى للبلياردو ؟ » .

— أجـــل ، إذ أن هـــذه أوشـــكت أن تتداعى يا مدام « لوفرانسوا » .. إننى أكرر ما قلت من قبل ، فإنك تؤذين نفسك أبلغ إيـــذاء ! .. ثم أن اللاعبين يطلبون الآن جيوبا ضيقة وعصيا ثقيلة للبلياردو ، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسى الآن .. لقد تغير كل شىء ! يجب أن يجارى المرء الزمن ! .. ألا انظرى إلى تلييه ! » .

واحمر وجه صاحبة المنزل استياء ، بينمـــا اســـتطرد الصيدلى : « لك أن تقولى فيه ما شئت ، ولكن « بلياردة » خير من « بلياردك » ، ولو أن أحدا فكر فى أن ينظم مباراة من أجل إغاثة بولندا ، أو ضحايا الفيضان فى ليون ! .. » .

فقطعت عليه صاحبة المنزل حديثه قائلة ، وهى تهز كتفيها السمينتين : «ان الصعاليك أمثاله لا يزعجوننى.. على رسلك يا مسيو هوميه ! .. لسوف يفد الناس على فندق « الأســـد الذهبى » طالما ظل على قيد الوجود .. ليس لدينا ما يدعو إلى القلق ، فى حين أنك لن تلبث أن ترى فنـــدق « المقهى الفرنسى » يوما مغلقا ، وقد سمرت أبوابه » ! .. واستأنفت وكأنها تحدث نفسها : « أغير « بلياردى » ! .. المائدة التى أعتمد عليها فى طى الغسيل ، والتى هيأت فوقها فراشا لستة نزلاء فى موسم الصيد ! .. ولكن ذلك المتسكع « هيفير » لم يصل بعد .. » .

— أو ترجئين تقديم العشاء لنزلائك حتى وصوله ؟

— وهل أملك هذا ؟ .. ماذا يفعل السيد بينيه ؟ .. ما إن تشرع الساعة فى اعلان السادسة حتى تراه مقبلا ، فليس له مثيل تحت الشمس فى دقة المواعيد ! .. ولا بد من أن يكون مقعده معدا فى قاعة الجلوس الصغيرة ، فانه يؤثر الموت على ان يتناول العشاء فى اى مكان آخر .. وهو حريص على الدقة، شديد العناية باختيار شرابه ! فهو ليس مثل كالسيد ليون الذى يفد احيانا فى السابعة ، بل وفى السابعة والنصف ، ولا يكاد يأبه لما يقدم إليه من طعام .. ما أظرفه ! .. إنه ما تلفظ مطلقا بكلمة نابية ! » .

— لا أشك فى أنك تدركين ان ثمة فارقا شاسعا بين الرجل المثقف وبين جندى متقاعد أصبح يعمل محصلا !

* * *

● ودقت الساعة مؤذنة بالسادسة ، فدخل « بينيه » .. كان يرتدى « ردنجوت » أزرق يستوى على جسده الناحل فى استقامة ، وقلنسوة جلدية ثبتت إلى رأسه برباط ، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض ، خلفت كثرة ارتداء الخوذات أثرا عليه ! .. وكان يرتدى كذلك صدارا اسود وياقة من الفرو وسروالا رماديا .. ثم حذاءين بالغى النظافة ، يتنقل بهما طوال العام ، وقد برز فى جانبيهما نتوءان يشيان بموقعى أصبعى قدميه الكبيرتين! .. ولم تكن ثمة شعرة واحدة فى سوالفه تشذ عن النظام ! .. وقد كانت هذه السوالف تستطيل إلى فكيه على نمط العشب الذى يحيط بالحديقة ،

محتضنة وجهه الجامد الطويل، ذا العينين الصغيرتين والأنف المعقوف .. وكان بارعا فى جميع الألعاب ، ماهرا فى الصيد ، ذا خط جميل ، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التى كان يحتفظ بها فى غيرة الفنان وانانية الثرى ، الحديث الثراء ، حتى ملأ بها بيته !

وبهم شطر قاعة الجلوس الصغيرة ، ولكن .. كان لا بد من إخراج الطحانين الثلاثة منها اولا ! .. وظل بينيه صامتا فى مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذى استغرقه اعداد المائدة ، حتى إذا تم ذلك ، اغلق الباب وخلع قلنسوته جريا على عادته !

وما ان خلا الصيدلى إلى صاحبة المنزل ثانية ، حتى بادر قائلا : « ما كان إلقاء التحية لينقص شيئا من لسانه ! » .

فأجابته : « إنه لا يتكلم قط اكثر مما تدعو إليه الضرورة . لقد كان لدينا فى الأسبوع الماضى نزيلان من تجار الأقمشة .. وكانا مرحين ، ظلا يرويان لنا فى المساء من الفكاهات ما جعلنى أبكى من كثرة الضحك .. بينما كان هو قابعا كالسمكة ، فلم ينبس قط ببنت شفة » !

قال الصيدلى : « أجل .. لا خيال ، ولا فكاهة ، ولا شىء مما يكون رجل المجتمع » .

فقالت محتجة : « ومع ذلك ، فانهم يقولون ان له اصدقاء ومجالس » !

— مجالس ! .. مجالس ! .. من المحتمل ان تكون على شاكلته !

وما لبث ان استطرد قائلا : « انني ادرك ان التاجر ذا الصلات الواسعة ، والقنصل ، والطبيب، والصيدلى، يجدون من اعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم ، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الأطوار ، أو جافا .. ان التاريخ حافل بقصص هؤلاء . ولكن المهم ان عذرهم فى هذا راجع إلى ان لديهم ما يشغل تفكيرهم . . فأنا مثلا كثيرا ما ابحث عن قلمى على المكتب لأدون تذكرة ، فلا البث ان اتبين فى النهاية انني وضعته خلف أذنى! . . » .

وفى تلك اللحظة ، سارت مدام «لوفرانسوا» إلى الباب لترى إذا كانت العربة المرتقبة — « العصفورة » — مقبلة . . ولكنها اجفلت إذ ولج المطبخ فجأة رجل فى ثياب سوداء . . وكان فى وسع المرء أن يتبين على ضوء آخر فلول الغسق ، ان له وجها متوردا ، وجسما رياضيا .

وسألته ربة المنزل وهى تتناول من فوق المدفأة احد الشمعدانات النحاسية التى كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع : « اية خدمة املك ان اؤديها لك يا سيدى القس . . هل لك فى تناول شراب ما ؟ . . جرعة من نبيذ « كاسى » الأسود ؟ . . أو زجاجة من النبيذ الأحمر ؟ ! » .

وهز رجل الدين رأسه فى أدب بالغ ، وقال انه جاء من أجل مظلته التى نسيها منذ أيام فى دير « ايرنمو » . وبعد ان سأل مدام « لوفرانسوا » أن تعمل على ارسالها إليه فى دار «الخورى» فى المساء، انصرف إلى الكنيسة التى كان ناقوسها يدق مؤذنا بصلاة المساء .

ما إن اطمأن الصيدلى إلى انه لم يعد يسمع وقع قدمى

القس فى الميدان ، حتى ابدى رأيه فى مسلكه فوصفه بانه ناب ! . . فقد بدا رفضه — فى رأى الصيدلى — ابغض الوان الرياء ، إذ ان كل القساوسة يحتسون الخمر فى الخفاء ، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التى كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها !

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة : «انه رغم قولك يستطيع ان يطوى أربعة من امثالك على ركبته ! . . لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف فى العام الماضى ، فبلغ من قوته انه كان يحمل ستا من الحزم فى آن واحد » ! . .

فهتف الصيدلى : « مرحى ! . . ارسلوا بناتكم اذن ليعترفن امام رجال من هذا الصنف ! . . لو انني كنت فى مركز الحكم لأمرت بان يفصد دم القساوسة مرة فى كل شهر . . اجل يا مدام لوفرانسوا . . فى كل شهر . . وفصدا جيدا ، فى سبيل مصلحة البوليس والأخلاق » !!

— كف عن هذا يا مسيو هوميه ، فانت كافر ، لا دين لك!

فاجاب الصيدلى : «بل لى دين . . دينى الخاص . . وإن لدى من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعا ، رغم نفاقهم ودجلهم . . انني على العكس اعبد الله . . اؤمن بالكائن الاعلى . . اؤمن بوجود خالق ، كيفما يكن كنهه . . ومهما يكن هذا الخالق الذى اوجدنا هنا لنؤدى واجباتنا كمواطنين وارباب اسرات . . ولكنى فى غير حاجة لأن اذهب إلى الكنيسة لاقبل اطباقا فضية ، ولأسمن من مالى رجالا لا يصلحون لشىء ولا نفع منهم ، ويحظون بمعيشة انعم مما

نحطى ! .. ان المرء ليستطيع ان يهتدى إلى الله فى غابة ، او فى حقل ، او حتى بمجرد تأمل قبة الاثير ، كما كان القدماء يفعلون ! .. ان الهى هو اله سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه ! .. إننى من انصار الايمان الذى دعا إليه « قس سافوا »[1] .. ومن المؤمنين بمبادىء ثورة سنة ١٧٨٩ الخالدة ! .. ولا استطيع ان اعبد إلها مزعوما ، يسير فى حديقته وعصاه فى يده ، ويودع اصدقاءه أجواف الحيتان ، ويموت صارخا ، ثم يبعث بعد ثلاثة ايام ! .. هذه جميعا — فى حد ذاتها — سخافات، تناقض تماما كل قوانين الطبيعة.. وفى هذا ما يوضح لنا — ضمنا — كيف ان القسس ظلوا دائما متشبثين بجهل صلد لا يلين ، يحاولون ان يدفنوا البشر معهم فى جوفه » !!

وامسك عن الكلام ، واجال بصره فيما حوله وكأنه يتامل جمهورا يحيط به .. فقد ظن الصيدلى فى انفعاله انه فى قاعة المجلس البلدى ! .. على ان ربة المنزل لم تكن تنصت إليه ، بل اصاخت بسمعها تحاول أن تستبين صوتا انبعث عن بعد ، اختلطت فيه ضوضاء انعجلات بسنابك حديدية تضرب الارض .. وما لبثت « العصفورة » أن وقفت امام الباب اخيرا !



(1) يشير الى فصل فى كتاب « اميل » لجان جاك روسو ، وفيه يقود القس تلميذه اليافع الى اعلى جبال « سفوا » ليحدثه عن الله والايمان ، فى غمرة من جلال الطبيعة .

وما لبثت « العصفورة » ان وقفت امام الباب اخيرا !

● كانت « العصفورة » تتكون من صندوق أصغر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما إلى مستوى سقفه ، فيحولان بين المسافرين ورؤية الطريق ؛ ويلطخان أكتافهم بالقاذورات ! .. وكان زجاج نوافذها الضيقة يهتز فى إطاراته إذا ما أغلقت أبوابها .. فضلا عن أنها كانت ملطخة — هنا وهناك — ببقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع أمطار العواصف أن تزيلها تماما .. وكان يجرها ثلاثة جياد ، ربط أولها أمام زميليه .. وعند انحدارها من المرتفعات ، كان قاعها يمس الأرض فيرتج ارتجاجا شديدا .

وأقبل على الميدان عدد من أهالى « ايونفيل » ، أخذوا يتكلمون معا فى آن واحد : يتساءلون عن الأخبار ؛ ويستفسرون عن سلال الهدايا . ولم يكن «هيفير» — السائق — يدرى أيهم يجيب أولا ، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان) ، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الأحذية ، والحديد للبيطار ، وبرميل « الرنجة » لمخدومته — ربة النزل — والقبعات من صانعها ، والشعور المستعارة من الحلاق .. وكان يوزع الحزم على طول الطريق وهو عائد ؛ فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الأسوار صائحا بملء فيه ، والخيل ماضية !

وكان تأخره فى العودة راجعا إلى حادث بسيط ، فقد هربت كلبة مدام « بوفارى » فى الحقول ، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها .. بل ان « هيفير » رجع مسافة نصف الفرسخ

أملا فى العثور عليها ، متوهما فى كل لحظة انه قد لمحها ! .. وبكت « ايما » ، وسخطت ، واتهمت « شارل » بأنه كان السبب . وقد حاول السيد « ليريه » — تاجر الأقمشة الذى كان يرافقهما فى العربة — أن يواسيها ، فضرب لها أمثلة بكلاب ضاعت ثم « اهتدت » إلى أصحابها بعد سنوات طويلة! .. بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد إلى باريس من القسطنطينية ! .. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلا فى خط مستقيم ، وعبر أربعة أنهار سباحة ! .. وتمادى فذكر لها أن أباه كان يملك كلبا فقده اثنى عشر عاما ، ثم فوجىء به يقفز على ظهره ذات مساء ، وهو فى طريقه لتناول العشاء فى المدينة !!

———— ● ————

الفصل الثانى

● كانت « ايما » اول من هبط من العربة ، وتبعتهـا « فيليسيتيه » فالسيد « ليريه » ، فمرضعة .. واضطروا إلى أن يوقظوا « شارل » الذى كان قد استسلم فى ركنه لنوم عميق ، مذ أرخى الليل سدوله !

وقدم « هوميه » نفسـه ، مزجيا احتراماته للسيدة ، وتحياته للسيد ، معربا عن شدة اغتباطه إذ أتيح له ان يؤدى لهما بعض الخدمات .. واضاف فى لهجة الصديق انه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما ، إذ ان زوجته غائبة عن البلدة !

وعندما دلفت مدام « بوفارى » إلى المطبخ ، اقتربت من الموقد ، وامسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف أناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبيها، ثم مدت قدميها بحذاءيهما الاسودين نحو اللهب ، فوق « الفخذة » التى كانت تئز ، فاذا اللهب يضىء كل كيانها ، ويتغلغل نوره فى نسيج ثوبها ، ومسـام جلدها البض الأملس ، بل وفى جفون عينيها اللتين اخـذت تغمضهما من وقت لآخر ! .. ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجا دائما هب عليها .. وكان ثمة شاب أشقر يرقبها فى صمت من الجانب الآخر للمدفأة .

كان السيد « ليون ديبوى » ــ الشاب الأشقر ــ ثانى النزلاء الدائمين فى « الأسد الذهبى » ، وقد اعتاد ان يؤخر تناول عشائه فى كل مساء على أمل ان ينزل بالفندق مسافر

يستطيع ان يجاذبه الحديث ، إذ اشتد به السأم فى « ايونفيل » حيث كان يعمل كاتبا لدى الأستاذ «جويومان» موثق العقود.. غير انه لم يكن يملك ــ إذا ما فرغ مبكرا من عمله ــ سوى ان يعود إلى الفندق ، ومن ثم يضطر إلى مصاحبة « بينيه » طوال العشاء . لهذا رحب مغتبطا فى تلك الليلة باقتراح ربة الفندق ان يتناول عشاءه فى صحبة القادمين فى القاعة الكبرى، حيث افتنت مدام « لوفرانسوا » فى اعداد المائدة لأربعـة اشخاص !

وابدى « هوميه » رجاءه فى ان يسمحوا له بأن يظـل مرتديا طاقيته الإغريقية خشية « الانفلونزا » ، ثم التفت إلى جارته قائلا : « لا ريب فى ان السيدة متعبة فان « عصفورتنا » ترج المرء رجا » .

واجابت « ايما » : « هذا حق ، بيد ان السفر يلذ لى ، فانا احب التنقل من مكان لآخر ! » ..

وتنهد كاتب الموثق قائلا : « من أبشع ما يسئم النفس ان يظل المرء مرتبطا بمكان واحد » ! .. فسأله « شارل » : « وماذا كنت تفعل لو انك كنت مثلى مضطرا إلى امتطاء جوادك دائما ؟ » .. فأجاب ليون وهو يتجـه بحديثـه إلى مـدام « بوفارى » : « ولكنى لا ارى شيئا أمتع من هذا ، لو كان فى إمكان المرء .. » .

وهنا قال الصيدلى : « على ان ممارسة الطب ليست بالغة المشقة فى هذا الجزء من العالم ، إذ ان طرقنا تسمح باستخدام العربات .. ولما كان المزارعون فى حالة من اليسر ،

فانهم يدفعون بسخاء عادة ! .. ومن الناحية الطبية لدينا — فضلا عن الحالات العادية كالتهاب الأعصاب والنزلات الشعبية والأمراض الناشئة عن الصفراء ... الخ — بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقت إلى آخر في موسم الحصاد . وبالاجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل ، وليس ثمة أحوال خاصة تستدعي الانتباه اللهم إلا كثرة الأمراض الناشئة عن غدد الرقبة ، وهي كثرة مرجعها بلا شك إلى سوء الحالة الصحية في منازل الفلاحين .. آه ، لسوف تضطر يا سيد « بوفاري » إلى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي ستصطدم بها مجهوداتك العلمية في كل يوم .. فهم ما زالوا يلجأون إلى الرقى والتمائم ، وإلى القس ، بدلا من ان يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا إلى الطبيب او الصيدلي ! .. على أن الطقس ليس رديئا عندنا في الحق ، حتى انك لتجد في المقاطعة أفرادا في الحلقة التاسعة من اعمارهم ! .. وقد خرجت من ملاحظاتي بأن درجة الحرارة تهبط في الشتاء إلى الرابعة المئوية . اما في موسم الحر فترتفع إلى خمس وعشرين او ثلاثين درجة مئوية على الاكثر .. اي ما لا يتجاوز اربعا وعشرين درجة بميزان « ريومير » ، او — بعبارة اخرى — ٥٤ درجة بميزان « فهرنهيت » الإنجليزي ! .. والواقع اننا في مأمن من رياح الشمال — من ناحية — بفضل غابة (ارجي) ، ومن الرياح الغربية — من الناحية الاخرى — بفضل هضبة (سان جان) .. وفضلا عن هذا ، هناك الحرارة الناشئة من ابخرة الماء المتصاعدة من النهر ، ومن الماشية الكثيرة التي تنطلق

في المراعي وترسل — كما تعلم — الكثير من النوشادر — (الأمونيا) — او بالأحرى النيتروجين والهيدروجين والاوكسجين .. لا، بل النيتروجين والهيدروجين فقط ، ومن ثم تمتص رطوبة الأرض ، وتخلط جميع هذه العناصر الغازية معا ، وتوحدها في حزمة — إذا صح هذا القول — ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة في الفضاء إذا ما وجدت ، فلا تلبث بمضي الزمن أن تولد ابخرة عفنة ، كما يحدث في البلاد الحارة ! .. هذه الحرارة المتولدة كما ذكرت تجد تلطيفا تاما من حيث تنبعث ، او بالاحرى من حيث ينبغي ان تنبعث — في اي مكان من الناحية الجنوبية — بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التي تصل إلينا باردة — بعد أن ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) — وكانها نسمات من روسيا ! » .

وفي ذلك الوقت كانت « ايما » تواصل حديثها مع الشاب قائلة : « .. على انك ولا بد تجد مجالا للنزهة .. في البقاع المجاورة على الأقل » .

واجاب الشاب : « انها جد قليلة .. فهناك مكان يسمونه (لاباتير) — اي المرعى — على قمة التل عند حافة الغابة .. وإليه اسعى احيانا ، في أيام الآحاد ، فامكث في صحبة كتاب حتى اشهد مغيب الشمس » .

قالت معقبة : « ما احسب ان هناك ما هو ابدع من غروب الشمس ، وخاصة عند شاطيء البحر » .

فهتف مسيو ليون : « آه انني اعبد البحر ! » .

— ثم ، الا ترى ان الذهن يكون اكثر تحررا فى الفضاء الذى لا حد له ، والذى يسمو تأمله بالنفس ، ويوحى بأفكار عن اللانهاية .. والخيال المثالى ؟

— كذلك حال المناظر الجبلية .. فان لى ابن عم سافر إلى سويسرا فى العام الماضى ، وحين عاد قال لى ان المرء لا يستطيع ان يتصور ما فى البحيرات من شاعرية ، وما فى مساقط المياه من سحر ، وما للأنهار من اثر هائل فى النفس .. فالمرء يرى هناك اشجار الصنوبر التى لا يتصور العقل حجمها ، عبر الممرات التى حفرتها السيول .. والاكواخ معلقة على حواف الوهاد .. وتحت قدمى المرء بألف قدم ، تبدو — إذا ما انقشعت السحب — وديان فسيحة .. مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك المشاعر ، وتبعث الشوق فى النفس إلى العبادة والتأملات السامية .. ومن ثم لم اعد اعجب من ذلك الموسيقى المبرز الذى اعتاد ان يوقظ إلهامه بان يجلس لوضع موسيقاه أمام منظر رائع يسيطر على المشاعر !

فسألته : « وهل تعزف شيئا من الموسيقى ؟ » .

— لا ، ولكنى جد مشغوف بها ..

وقطع «هوميه» الحديث إذ قال وهو ينحنى على طبقه : « آه ! .. لا تلقى إليه سمعا يا مدام « بوفارى » .. هذا مجرد تواضع .. كيف يا عزيزى وقد كنت منذ ايام تغنى « الملاك الحارس » فى إبداع يملك الحواس ؟ .. لقد سمعتك من المعمل ، فاذا بك تؤديها كما لو كنت مغنيا محترفا ! » .

وبالفعل كان ليون يسكن حجرة صغيرة فى الطابق الثانى من منزل الصيدلى تطل على الميدان .. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت ، الذى كان قد تحول إلى الطبيب واخذ يحصى له أهم سكان « إيونفيل » ، واحدا واحدا ، ويروى له تفصيلات ، ونوادر .. فمثلا لم يكن ثمة من يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود ، كما كان « آل توناش » يظهرون فى افخم مظهر ! .

وعادت « ايما » تقول : « واى موسيقى تؤثر ؟ » .

— آه .. الموسيقى الالمانية .. تلك التى تسلمك إلى الاحلام !!

— وهل ذهبت إلى الاوبرا ؟

— لم اذهب بعد ، ولكنى سأفعل فى العام التالى ، حين اسافر إلى باريس لأتم دراسة القانون ...

وقطع الصيدلى الحديث مرة اخرى قائلا : « انكما ستجدان — بفضل فرار ذلك المسكين « يانودا » وبفضل حماقاته — ان بوسعكما ، كما تشرفت بشرح الامر للسيد زوجك ، أن تستمتعا ببيت من افضل بيوت « ايونفيل » .. وابدع ميزاته بالنسبة لطبيب هى ان له بابا يفضى إلى الحارة ، يستطيع المرء ان يلج وان يخرج عن طريقه دون ان يراه احد . كما انه مستوف لكافة الاحتياجات المنزلية : من حجرة للغسيل ، ومطبخ الحقت به غرفة للتحضير ، وقاعة للجلوس ، وبستان للفواكه .. الخ ، فلقد كان صاحبه فتى

مسرفا ، لا يقيم وزنا للمال ، وقـد اقام فى نهاية الحديقة ، بجـوار المـاء ، خميلة ليحتسى فيهـا « البيرة » فى ليالى الصيف .. وإذا كانت السيدة تهوى فلاحة البساتين ، ففى وسعها .. » .

وإذ ذاك قال « شارل » : « إن زوجتى لا تحفل بهذه الاعمال .. ومع انه اشير عليهـا بالرياضـة والحـركة ، إلا انها تؤثر أن تقضى الوقت فى غرفتها تقرأ ! » .

فقال « ليون » : إنهـا مثلى .. فاى شىء اجمـل فى الواقع من ان يقضى المرء المساء مع كتاب إلى جوار المدفاة ، والريح تلفح زجاج النافذة والمصباح يشتعل ؟ » .

قالت « ايما » وهى تحدق فيـه بعينيها السوداوين الواسعتين : « اليس كذلك ؟ » .

ومضى يقـول : « ان المرء لا يفكر فى شىء إذ ذاك .. والساعات تمر متلاحقة ونحن نتنقل ــ ـون ان نتحرك من مكاننا ــ بين بلدان نخـال اننا نراها .. وافكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق ، ولتوضح لك معالم المغامرات .. إنها تندمج فى الشخصيات حتى لتخال ان قلبك هو الذى ينبض تحت ثيابها ! » .

قالت : « هذا حق ! .. هذا حق ! » .

واستأنف « ليون » الحديث قائلا : « او لم يحدث لك قط ان عثرت فى كتاب على فكرة مبهمة كانت قد راودتك .. او على صورة معتمة تعود إليك من آفاق بعيدة وكانها تعبر

عن ادق احاسيسك ؟ » .. فاجابت : « لقد شعرت بهـذا فعلا » .

قال : « هذا هو السر فى اننى احب الشعراء ، فإنى اجد الشعر اكثر رقة من النثر .. إنه يشجى المرء بسهولة حتى يبكيه ! » .

قالت « ايما » : « على ان الشـعر لا يلبث مع طول الوقت أن يثير السأم .. اننى الآن اهيم ــ على العكس ــ بالقصص التى تبهـر الانفاس ، وتثير الخوف .. واكـره الابطال العاديين ، والمشاعر المعتدلة ، على نحو ما نرى فى الطبيعة !! » .

قال الكاتب : « الواقع اننى ارى ان هذه الكتب ــ التى لا تمس القلب ــ تنحرف عن الغاية الحقيقيـة للفن . ما اعذب ان ينتقل المرء بفكره من مضايقات الحياة ليجـول بفكره مع شخصيات نبيلة ، وعواطف خالصة ، وصـور للسعادة . إننى ــ إذ اقيم هنا بمناى عن الدنيا ــ اجـد فى هذا ملهاتى الوحيدة .. بيد ان (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل ! » .

فردت « ايما » قائلة : « انها ولابد مثل (توست) ، ومن ثم اشتركت فى مكتبة تعير الكتب » .

وسمع الصيدلى كلماتها الاخيرة فقال : « هل للسيدة ان تشرفنى بالافادة من مكتبتى الخاصة .. إن لدى ــ تحت تصرفها ــ مكتبة تضم خيرة المؤلفين ، مثل ، فولتير ، وروسو ،

ودوليل ، وولتر سكوت، وصحيفة «صدى الادب» .. الخ .
كما اننى اتلقى صـحفا كثيرة ، بينهـا « منـــار روان »
اليومية ، إذ اننى مراسـلها فى منـاطق بوشى ، وفورج ،
ونيوشاتل ، وايونفيل وما حولها » .

* * *

● وانقضت عليهم حـول المـائدة ساعتان ونصـف
الساعة، إذ كانت الخادم « ارتميز » تحضر طبقا بعد آخر فى
بطء وهى تجر خفيها فى كسل فوق البلاط ، وقد غفلت عن كل
شىء ، واخذت فى كل مرة تنسى إغلاق باب حجرة البلياردو ،
فيرتطم بالجدار ..

وكان « ليون » قد وضع قدمه على احد قضبان مقعد
مدام « بوفارى » — اثناء الحديث — دون أن يشـعر ! ..
وكانت «ايما» تلف حول عنقها وشاحا حريريا ازرق صغيرا ،
يشد باقة « مكشكشـة » مجعدة من « الباتيستة » . وكان
الجزء الأسفل من وجهها يغوص برفق فى ذلك الوشـاح او
يرتفع عنه ، تبعا لحركات راسها ! .. وبينما كان « شارل »
والصـيدلى يثرثران ، اندمج الشـابان — اللذان تجاور
مقعداهما — فى احـد تلك الاحـاديث المبهمة التى تقودك
العبارات خلالهـا دائما إلى مركز ثابت تتلقى عنده الميـول
والمشـاعر .. فتحدثا عن مسـارح باريس ، وعناوين
القصص ، وأنواع الرقص الحديثة ، والمجتمع الذى لم يكونا
يعرفانه ، و (توسـت) التى كانت « ايما » تقيم فيهـا ،
و (ايونفيل) حيث كانا إذ ذاك .. وتناقشـا حتى نهـاية
العشاء فى كل موضوع خطر لهما !

وبعد ان قدمت القهوة ، ذهبت « فيليسيتيه » لتعـد
المخدع فى المنزل الجديد . وما لبث الضيوف أن نهضوا بعد
قليل ، فاذا مدام « لوفرانسوا » قد اغفت على مقـربة من
النار المحتضرة ، بينما كان السائس فى انتظـار السـيد
« بوفارى » وزوجته ، وهو يحمل مصباحا ليرشدهما إلى
منزلهما ، وقد علقت بشعره بعض اعواد القش واخذ يعرج
بقدمه اليسرى ! .. وشرعوا فى الانصراف عندما حمل بيده
الاخرى مظلة القس .

وكانت البلدة قد نامت ، واعمدة السوق تلقى ظلالا كبيرة
على الارض الرمادية ، كما كانت تبدو فى ليالى الصيف ..
وإذ كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق باكثر من خمسـين
خطوة ، فان القوم سرعـان ما تبادلوا تحية الوداع ، ثم
انفضوا ..

وما إن ولجت « ايما » الردهة حتى احست برطوبة
الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش .. وكانت
الجدران جديدة ، وللدرجات الخشبية صرير .. وفى المخدع —
بالطابق الاول — كان ثمة ضوء يميل إلى البياض ، ينفـذ
خلال النوافذ التى لم تحجبها ستائر .. ولاحت لها رؤوس
الاشجار ومن خلفها الحقـول تكاد تتوارى فى احضـان
الضباب الذى انتشر فى ضوء القمر على طول مجرى النهر ..
وفى وسط الحجرة ، تناثرت فى غير نظام ادراج الدواليب ،
والزجاجات ، وقضبان الستائر ، وعصى من المعدن المطلى ..
وعلى المقاعـد كانت ثمـة حشايا ، وعلى الأرض اوان

وأوعية .. فقد ترك الرجلان اللذان حملا الاثاث كل شىء فى غير ترتيب ..

تلك كانت المرة الرابعة التى تنام « ايما » فيها فى مكان لم تألفه .. كانت المرة الاولى يوم التحقت بالدير ، والثانية يوم انتقلت إلى (توست) ، والثالثة فى (فوبيســـار) .. وهاهى ذى الرابعة ! .. وكانت كل مـــرة بدايـــة لمرحلة جديدة .. ولم تعتقد ان الامور تجرى على وتيرة واحدة فى كل مكان .. وإذ كان الشطر الذى عاشته من حياتها سيئا ، فقد وقر فى نفسها ان الشطر الباقى سيفضله !

الفصل الثالث

● عندما استيقظت « ايما » فى اليوم التـــالى ، لمحت كاتب الموثق يســـير فى الميدان .. وكانت فى ثـــوب المنزل (الروب دى شامبر) . ورفع الشاب رأسه إليها محييا ، فردت بايماءة سريعة ، واغلقت النافذة ! .. وقضى «ليون» نهاره كله فى ارتقاب الساعة السادسة .. ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد « بينيه » يجلس إلى المـــائدة !

كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة فى نظره ، إذ لم يقدر له قبل ذلك ابـــدا أن يقضى ســـاعتين متتاليتين فى الحديث مع « سيدة » ، فكيف إذن وسعه ان يكلمها بمثل تلك اللغة ، وعن كل تلك الامور التى لم تكن — من قبل — يجيد التعبير عنها على هذا النحو ، وهو الذى كان فى العادة خجولا ، يلتزم ذلك التحفظ الذى يجمع بين الحياء والتكتم فى آن واحد !؟ لقد كان أهـــل « ايونفيل » يعتبرونه « حســـن التربية » ، إذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون ، ولم يكن يبدو مصابا بالهوس السياسى ، وهـــذه خلة هامة بالنسبة لأى شاب ! .. فضـــلا عن انه كان موهوبا ، يرسم بالالـــوان المائية ، وعلى إلمـــام بمبادىء الموســـيقى ، ويســـتطيب الحديث فى الادب بعد العشاء ، إذا لم يلعب الورق ، وكان السيد «هوميه» يحترمه لثقافته ، ومدام «هوميه» تحبه لطيبته، إذ كثيرا ما كان يصحب ابناءهما إلى الحديقة ! .. وكانوا اطفالا ملطخين دائما بالقذارة ، مدللين إلى درجة افسدتهم كثيرا ، ميالين للكســـل والتراخى مثل امهم ! .. وكان يعنى

بهم — إلى جانب الخادم — « جوستان » الشاب ، مساعد الصيدلى ، الذى كان من ابنـــاء عمومة مسيو « هوميه » فآواه هذا فى البيت على سبيل الإحسان ، وكان يســتغله — فى الوقت ذاته — كخادم !

واثبت الصيدلى انه خير جار ، إذ كان يرشد مــدام « بوفارى » إلى الباعة ، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح ، ويذوق بنفسه الشراب ، ثم يستوثق من ان القنينات وضعت كما ينبغى فى قبو البيت ! .. كما كان يرشدها إلى طــرق الحصــول على كميات من الزبــد بثمن زهيد ، ويتفق مع « ليستيبودوا » الذى كان — إلى جانب مهـــامه الكنســية والجنازية — يتعهــد حدائق الدور الكبرى فى (ايونفيل) مقابل اجر يحسب بالساعة او بالعام ، وفقا لرغبة العميل !

ولم تكن الرغبة فى مساعدة الغير هى الحافز الوحيد الذى دفع الصيدلى إلى هذا التودد والمروءة ، بل انه كان يخفى قصدا آخر .. إذ كان قد خرق المادة الأولى من قانون ١٩ « فنتوز » من العام الحادى عشر للثورة — وهى المادة التى تحظر على كل من لا يحمل شهادة أن يزاول مهنة الطب — حتى انه استدعى إلى (روان) بنــاء على بلاغات قــدمت ضـــده من مجهولين ، نمثل امـــام وكيل النيـــابة فى مكتبه الخاص .. وقد استقبله النائب بوشـــاحه واقفا ، وعلى كتفه شريط القضاء ، وعلى رأسه قلنســـوته .. وكان ذلك فى الصباح ، قبل ان تفتح المحكمة ابوابها .. وكان يسمع وقع أحذية الشرطة الثقيلة فى الردهة ، وصوتا ينبعث عن

بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق .. واحس الصيدلى بطنين فى اذنيه كذاك الذى يسبق نزلة الشـــلل .. ورأى بعين الخيال أعماق الزنزانات ، وأسرته فى دموعها ، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها .. حتى لقد اضـــطر إلى ان يلجأ إلى مقهى تناول فيه كأسا من « الروم » الممزوج بمـــاء « سلزر » ليتمالك جأشه !

بيد ان ذكـــرى هـــذا الانذار ما لبثت ان اخـــذت فى الاضـــمحلال ، وعاد إلى ما كان يمارســه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها فى الغرفة الخلفية بالصيدلية. غير ان العمدة كان يحقد عليه ، وزملاؤه يغارون منه ، فكان لابد له من ان يحسب حسابا لكل شىء ، ومن ثم راى ان الســـيد « بوفارى » ســـيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات ، وسيحمله الاعتراف بالجميل على ان يمسك لسانه إذا ما لمح شيئا ! .. ومن ثم اعتـــاد أن يحمل إليه الصحيفة فى كل صـــباح ، وأن يبرح الصـــيدلية بعد الظهر ليقضى فترة فى الحديث مع الطبيب !

وكان « شارل » مكتئبا لأن العملاء لم يقبلوا عليه .. وكان يجلس ساعات طويلة دون ان ينبس ببنت شفة ، او يلجأ إلى مكتبه لينـــام ، او يتأمل زوجته وهى مســـتغرقة فى الحياكة . ثم اخذ يعمل فى البيت كالأجير ليتلهى عن افكاره .. بل إنه حاول ان يطلى جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون .. بيد ان الشئون المالية كانت تشغل باله ، فقد انفق الكثير فى الإصـــلاحات التى ادخلها على داره فى

(توست) ، وفى توفير أدوات الزينة لزوجته ، وفى نقل الأثاث ، حتى أن البائنة — التى نالها عند زواجه — تسربت كلها خلال عامين ، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار .. وكم من اشياء تلفت او ضاعت اثناء نقلها من (توست) إلى (ايونفيل) .. ناهيك بتمثال القس الذى هوى من العربة اثر عثرة عنيفة ، فتحطم على طريق (كونيكا مبوا) إلى الف قطعة !

* * *

● ثم اقبلت مهمة سارة تشغله عن أفكاره .. تلك هى : حمل زوجته ! .. وكان كلما اقترب موعد الوضع ازداد حدبا عليها .. فهذه رابطة اخرى — من لحم — تعزز صلتهما وتوجد فيهما إحساسا مستمرا بالرباط المشترك . وكان إذا رآها عن بعد تمشى متثاقلة ، وقوامها يلتف فى طراوة فوق ردفيها ، بعد أن تحرر من الحزام الذى كان يشده ، أطال النظر إليها .. فاذا جلسا متقابلين ، راح يتأملها فى تمعن وهى تتململ متقلبة بين الأوضاع فى مقعدها ، فتفيض به السعادة ، وينهض فيقبلها ، ويمسح وجهها بيده ، ويناديها بالأم الصغيرة ، ويسعى لحملها على الرقص ، ويروى لها — بين الضحك والبكاء — كافة النكات اللطيفة التى تتبادر إلى ذهنه ! .. كانت تطربه فكرة إنجاب طفل .. ومن ثم لم يعد يعوزه شىء آخر ، فقد أصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها إلى نهايتها ، فكان يتدبرها فى خاطره مطمئنا ساكن النفس !

وكانت « ايما » فى دهشة بالغة — فى البداية — ثم اصبحت تتوق إلى ان تضع حملها اتعرف كيف تكون الأمومة ! .. ولما لم تكن تملك ان تنفق عن سعة لتعد للطفل مهدا متارجحا — على شكل زورق — ذا ستائر من الحرير الوردى ، وطاقيات مطرزة ، فقد عدلت — والمرارة تمضها — عن كل هذا ، وعهدت إلى امراة تشتغل بالتطريز فى احدى القرى بإعداد ما يلزم ، دون أن تختار بنفسها شيئا ! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التى تذكى الحنان فى الأمهات ، حتى لقد بدا ان حبها للصغير قد فتر — بعض الشىء — عنه فى البداية ! .. على انها لم تلبث ان أخذت تفكر فيه باسترسال متواصل ، إذ كان « شارل » لا يفتأ يتحدث عنه اثناء كل وجبة !

وتمنيت ان ترزق بولد ، قوى ، اسمر ، تسميه «جورج» ! .. وكانت ترمق الفكرة كما لو كان إنجاب الذكر انتقاما مأمولا من كل ما أصابها فى الماضى من تصور واستضعاف . فالرجل حر .. يستطيع على الأقل ان يجتاز كافة الانفعالات ، وأن يجوب الأقطار ، وأن يتخطى العقبات ، وان يتذوق ابعد الملذات منالا ! .. فى حين ان المراة تتعثر دائما فى المثبطات .. فاذا نشطت وتذرعت بالمرونة ، لا تلبث ان تجد ضعف جسدها والحياة التى فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها ، عوامل تقعد بها .. وما اشبه عزيمتها بنقاب تبعتها المعلق بخيط ، وهو يرفرف فى الهواء !

* * *

● وواتاها المخاض فى نحو الساعــة السادسة من صباح يوم من ايام الآحاد ، والشمس تشرق .. وما لبث « شارل » أن قال : « إنها بنت ! » .. فاشاحت براسها ، وراحت فى إغماء !

واقبلت مدام « هوميه » ومــدام « لوفرانسوا » — صاحبة نزل الأســد الذهبى — مسرعتين لتقبلاها ، فــور سماعهما النبأ .. اما الصيدلى ، فقد اكتفى — كرجل مهذب ، حيى ! — بأن أزجى إليها بعض التهانى خلال الباب المنفرج ، ثم رغب فى رؤية الوليدة ، واعرب عن ارتياحه إلى حســن تكوينها !

وشغلت « ايما » كثيرا — خلال فترة النقاهة — باختيار اسم لابنتها .. فاتجهت فى اول الامر إلى الأسماء التى تنتهى بمقاطع معينة ، على الطريقة الإيطالية ، مثل كلارا ، ولويزا ، واماندا ، واتالا .. ومالت كثيرا إلى اسم « جالسويند » .. وكانت اكثر ميــلا إلى « ايزولته » أو « ليوكادى » . ورغب « شارل » فى ان تحمل الطفلة اسم امه ، ولكن « ايما » عارضته .. ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من اسماء القديسات ، واخذا يستشيران الاغراب . فقــال الصيدلى : « كنت اتحدث منذ ايام مع السيد ليون ، فابدى عجبه لانكم لا تختارون اسم « مادلين » الذى يقبل الجميع عليه فى هذه الأيام ! » .

ولكن مدام « بوفارى » الكبيرة ، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذى كانت تحمله إحدى الخاطئات ! .. اما السيد « هوميه » فكان يفضل الاسماء التى تبعث إلى الذهن ذكرى

عظيم ، او واقعة بهيجة ، أو فكرة كريمة .. وعلى هــذا النحو سمى ابناءه الأربعة ، فكان « نابوليون » يمثل المجد ، و « فرانكلين » رمزا للحريــة ، وربما كان اســم « ارما » مظهرا لتأثره بالخيال القصصى العاطفى .. اما اسم « اتالى » فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنســية ! .. إذ ان عقائده الفلسفية لم تكن تتعارض مع ميوله الفنية .. ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها فى نفسه شخصية رجل العاطفة ، بل كان يعــرف لكل حدودها ، وكان يفــرق بين الخيال والتطرف المتعصب .. ففى مأساة «اتاليا» المسرحية — مثلا — كان ينتقد الآراء ولكنه يعجب بالاســلوب .. يكــره الموضــوع ، ولكنه يصفق للتفصــيلات جميعــا .. يزدرى الشخصيات ، ولكنه يزداد تحمســا لحوارها ! .. وكان يسرح مع الخيــال إذا ما قرا فقــرات بديعة ، ولكنــه كان يغتم إذا ما تذكر اهل المجــون والمهرجين قد يستغلونها فى الاعيبهم على الغير ! .. وفى خضم هــذه المشاعر المتضاربة التى كانت تجتاحه . كان يود ان يتوج لفوره « راسين » — مؤلف المسرحية — بكلتــا يديه ، وان يقضى ربع ســاعة فى نقاش معه !

وتذكرت « ايما » اخيرا انهــا سمعت المركيزة فى قصر (فوبيســار) تنادى شابة باسم «بيرت» .. ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم ! .. ولما لم يستطع السيد « روو » الحضور ، فقد سئل السيد « هوميــه » أن يكون اشبينا للطفلة .. وكانت كل هداياه من المنتجات التى تحويها صيدليته : ست علب من ثمار العناب المحفوظة ، وقنينة مملوءة

بإكسير مقو ، وثلاث انابيب من معجون الشيح ، فضلا عن ست أصابع من سكر النبات عثر عليها فى أحد الصوانات . وفى أمسية الاحتفال ، اقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس ، وتخللها هرج ومرج .. وعندما حان موعد الشراب ، اخذ السيد « هوميه » ينشد : « الله رب العالمين » ، وغنى السيد « ليون » إحدى اغانى الجندول ، والقت مدام « بوفارى » الكبيرة — وكانت اشبينة الطفلة — إحدى اغانى العصر الإمبراطورى العاطفية ! .. واخيرا ، اصر مسيو « بوفارى » — الكبير — على احضار الوليدة ، وشرع يعمدها بأن سكب على راسها كوبا من الشمبانيا .. واثارت هذه السخرية من اقدس الشعائر الدينية غضب الأب « بورنيزيان » ، فرد عليه « بوفارى » الشيخ بفقرة من كتاب : « حرب الآلهة » ! .. وهم القس بالخروج ، فتضرعت إليه النسوة ، وتدخل السيد « هوميه » ، حتى افلحوا فى حمل القس على الجلوس ، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقى فى قدح القهوة ، فى هدوء !

ومكث مسيو « بوفارى » الكبير شهرا فى « ايونفيل » بهر خلاله اهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة ، يتدلى منها زر فضى ، كان يرتديها فى الصباح وهو يدخن غليونه فى الميدان ! .. وإذ كان من عادته الافراط فى الشراب ، فكثيرا ما كان يوفد الخادم إلى «الأسد الذهبى» لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه . واستنفد — ليعطر مناديله — كل ما كان لدى زوجة ابنه من ماء « الكولونيا » .. بيد ان هذه لم تكن تضيق بصحبته اطلاقا ، إذ كان قد جاب الاقطار ، فكان يحدثها من برلين وفيينا وستراسبورج ، وعن ايام الجندية ، وعن

العشيقات اللاتى احببنه ، والولائم الحافلة التى اقامها ! .. ثم إنه كان لطيفا .. بل لقد كان فى بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه — على السلم او فى الحديقة — ويصيح : « شارل .. احترس لنفسك ! » .

إذ ذاك خشيت السيدة « بوفارى » — الأم — على سعادة ابنها ، وخافت ان ينتهى زوجها مع مرور الوقت إلى ان يترك اثرا غير خلقى فى ما للمرأة من آراء وأفكار ، فعملت على التعجيل بالرحيل .. ولعلها كانت تكتم اسبابا اخطر من ذلك لقلقها ، إذ ان السيد « بوفارى » لم يكن بالرجل الذى يحترم شيئا !!

واحست « ايما » يوما برغبة مفاجئة فى ان ترى ابنتها — التى كانت قد اسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها — وبدون أن ترجع للتقويم لتتبين ما إذا كانت اسابيع العذراء الستة قد انقضت ، انطلقت إلى بيت « روليه » — النجار — فى الطرف الاقصى من القرية ، بين الطريق الرئيسية والحقول .. وكان الوقت ظهرا ، وقد اوصدت ابواب الدور ونوافذها ، وتألقت السقوف الأردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شررا من ابراجها ! .. وكانت الريح تهب بشدة ، وما لبثت « ايما » ان شعرت خلال سيرها بوهن ، واخذت احجار الأرصفة تؤلم قدميها .. وترددت بين ان تعود إلى البيت ثانية ، أو تلوذ باى مكان .. وفى هذه اللحظة ، برز السيد « ليون » من منزل مجاور ، وقد تأبط حزمة من الورق ، فخف لتحيتها ، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة امام حانوت « روليه » .

وقالت مدام « بوفارى » انها فى طريقها لرؤية ابنتها ، بيد ان التعب اخذ يشتد بها ، فقال ليون : « هل لك ... » ، ثم امسك لا يجرؤ على أن يتم عبارته ، فسألته : « هل لديك اى عمل يشغلك الآن ؟ » .. وإذ اجابها بالنفى ، رجته أن يصحبها .. فلم يحن المساء حتى كانت « ايونفيل » باسرها قد عرفت النبأ .. وصرحت مدام «توفاش» – زوجة العمدة – امام خادمتها بأن « مدام بوفارى قد ورطت نفسها ! » .

❋ ❋ ❋

● كان لابد « لايما » ، كي تصل إلى بيت المرضعة ، من أن تعرج إلى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى إلى المقابر ، ثم تسلك – بين الدور والأغنية – طريقا ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والفيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة، وبالعوسعج المنبعث من الاحراش. وخلال ثغرات فى الأسيجة ، كانت الابقار تلوح فى الخرائب وهي تحك قرونها فى جذوع الاشجار .. وسارا فى هوادة ، جنبا إلى جنب ، وقد استندت السيدة إلى زميلها الذى كان يضيق من خطاه كى تلائم خطاها ! .. وكان يحوم امامهما سرب من الذباب يطن فى الهواء الدافىء ..

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله ، وكان بيتا منخفضا ، مغطى بقرميد بنى اللون ، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل .. وخلف الحاجز الشوكى ، قامت عدة اغصان جافة تحيط بحوض زرع خسا ، وبعض عقل من « اللاوندة » ، وفروع من البازلاء المزدهرة



وما لبثت « إيما » ان شعرت خلال سيرها بوهن واخذت احجار الأرصفة تؤلم قدميها

استندت إلى عصى صغيرة ، والماء القذر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة اشياء بالية غير واضحة المعالم : جوارب من نسج اليد ، وصدار من الحرير الهندى الاحمر ، وملاءة من القماش السميك منشورة على طول السياج ..

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضعة تحمل على ذراعها طفلا يرضع ، وتسحب باليد الاخرى طفلا هزيلا مسكينا كست وجهه البثور، وكان ابن صانع قبعات فى (روان)، تركه ابواه فى الريف لفرط انصرافهما إلى تجارتهما . وقالت المرضعة : « تفضلى .. إن طفلتك نائمة هناك ! » .

وكانت الغرفة التى بالطابق الارضى - وهى الغرفة الوحيدة بالمسكن ، وقد أقيم لصق الجدار — فى اقصاها — سرير واسع بدون ستائر ، بينما شغل حوض العجين الجدار الذى تخللته النافذة ، وقد الصق فى مكان الزجاج المكسور فى هذه ، ورق ازرق .. وفى الركن القائم خلف الباب رصت احذية ذات مسامير لامعة ، تحت حافة المغسل ، بجوار زجاجة زيت دست فى فوهتها ريشة . وعلى رف المدفأة المغبر كانت ثمة نسخة من تقويم « ماتيولانزبرج » وسط قطع من الصـــوان واعقاب الشموع والصوفان . واخيرا ، كانت آخر مظاهر الترف فى المسكن ، لوحة تمثل « الشهرة » تنفخ فى بوق ، يدل مظهرها على انها قصت من إعلان للعطور ، وثبتت إلى الجدار بستة من مسامير الاحذية الخشبية (القباقيب) !

وكانت طفلة « ايما » ترقد فى سرير من الغاب ، فحملتها فى الغطاء الذى كان يلفها واخذت تغنى لها برفق وهى تهزها ..

ومضى « ليون » يذرع الغرفة ، وقد بدا له من الغريب أن يرى سيدة جميلة فى ثوب انيق وسط كل هذا البؤس والفاقة .. وتضرجت وجنتا مدام « بوفارى » فاشاح ببصره إذ خطر له ان نظرة فضولية بدت فى عينيـــه .. وما لبثت الأم ان ردت الطفلة إلى مهدها بعد أن تقيأت على صدر مرولتها ، فاقبلت المرضعة لمسح القىء فورا ، مؤكدة انه لن يخلف اثرا .. وقالت : « كم من افعال لها تشغلنى ، فإننى احرص على تنظيفها باستمرار ، ولو انك تفضلت فامرت « كاميس » البدال بأن يعطينى بعض الصابون ، لكان هذا ادعى لراحتك ، لاننى لن اضطر لازعاجك » !

فقالت « ايما » : « حسنا .. ليكن ! .. طاب يومك ياسيدة روليه » .

وخرجت وهى تمسح نعليها عند العتبة .. وتبعتهـــا المرضعة حتى نهاية الحديقة ، وهى تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذى تلاقيه طيلة الليل ، قائلة : « ان الضنى يبلغ بى احيانا ان استغرق فى النعاس وانا جالسة فى مقعدى ، وأعتقد انه يخلق بك ان تمنحينى رطلا على الأقل من البن المجروش ، يكفينى شهرا ، لأتناول منه قدحا مع اللبن فى كل صباح» .

وانصرفت مدام « بوفارى » بعد ان استمعت مكرهة لعبارات الشكر . على انها لم تكد تبتعد بضع خطوات حتى انتبهت إلى وقع حذاءين خشـــبيين .. وإذا بالمرضـــعة ، فسالتها : « ماذا هناك ؟ » .. وإذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانبا خلف إحدى اشجار الدردار ، وراحت تحدثها عن زوجها الذىاوتى حرفة ، لا تدر عليه غير النذر الضئيل .. وقاطعتها

« ايما » قائلة « اسرعى ! » ، فاستأنفت وهى تتنهد بين كل كلمة واخـرى : « آه .. اخشى أن يغتم إذا رآنى اتنـاول القهوة وحدى .. فانت تعرفين الرجال ..... » .

قالت « ايمـا » : « لسـوف تحصـلين على البن .. ساعطيك اياه .. انك تضايقيننى ! » .

— أواه يا سيدتى العزيزة المسكينة ! .. إنه يعانى — بسبب جراحة — من انقباضـات مزعجة فى الصدر .. ويقول أن شراب التفاح يضعفه !

— عجلى ايتها الام روليه !

فاستطردت المرضعة وهى تنحنى احتراما : « اذن ، فاذا لم اكن قد تماديت .. » ، وانحنت مرة أخرى .. « فلو تكرمت » .. وبدت فى عينيها ضراعة ، ثم افضت بغايتها أخيرا : « .. بقنينة براندى ! ولسوف ادلك منها قدمى طفلتك، فهما رقيقتان كاللسـان » !

* * *

● ما أن تخلصت « ايما » من المرضعة ، حتى امسكت بذراع « ليون »، وسارت مسرعة بعض الوقت، ثم تباطأت.. وفيما كانت تتطلع إلى الامام ، وقع بصرها على كتف الشـاب الذى كانت لسترته ياقة من المخمل الاسود ، يتدلى فوقهـا شعره الكستنائى الذى نسق فى عناية ، ولاحظت ان اظافره كانت أطول مما اعتاد الناس فى « ايونفيل » ان يتركوا عليه اظافرهم ! .. وكانت العناية بها من المهام الرئيسـية التى

تشغله .. ومن ثم كان يحتفظ فى درج مكتبه بمطواة خاصـة لذلك !

وعادا إلى « ايونفيل » سائرين بمحاذاة مجرى الماء .. كانت الضفة تتسع فى الموسم الحار عنها فى الأوقات الأخرى ، فتكشف عن أساس جدران الحدائق ، حيث تنحدر إلى مجرى النهر بضع درجات .. وكان الماء يجرى سريعا ، هادئا ، تكاد العين تلمس برودته ! .. والاعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع ، والتيار يدفعها ، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النمير كالشعر المسترسل .. وكانت تبدو على قمم البوص أو على إحدى أوراق زنابق الماء — فى بعض الأحيان — حشرة دقيقة الأطراف تزحف او تتبع مستريحة .. وكانت الشمس تخترق بأشعتها الفقاقيع الزرقاء الصغيرة التى تخلفها الأمواج، والتى كانت تتتابع متكسرة .. واشجار الصفصاف العتيقة العارية الأغصان ، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة .. وفى المؤخرة ، بدت المراعى محيطة بالمنظر ، ممتدة على مدى البصر ، خالية من كل شيء .. كانت ساعة العشاء قد حانت فى المزارع، فلم تسمع الشابة وزميلها اى صوت وهما يسيران، اللهم إلا وقع خطواتهما على ارض الطريق ، والكلمات التى كانا ينطقان بها ، وحفيف ثوب « ايما » .

وكانت أسوار الحدائق — التى بدت من فوقهـا قطع الزجاج — ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة ، وقد نبتت الزهور البرية بين احجارها ، فكانت مدام « بوفارى» تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة ، وهى تمر بها ، فتتساقط ترابا أصفر .. كما كان يشتبك بحافة

المظلة احيانا غصن من اللبلاب المتدلى ، ويتارجح فوق حريرها لحظة .

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الإسبانيين مرتقبة الوصول إلى مسرح (روان) ، فسألته : « هل ستذهب لرؤيتها ؟ » .. وأجاب : « إذا استطعت » ! ..

او لم يكن لديهما ما يقال غير هذا ؟ ! .. كانت عيونهما مفعمة بحديث اكثر جدية .. وكانا ، إذ يجهدان نفسيهما فى البحث عن عبارات تافهة ، يحسان بنوع واحد من الخدر يسرى فيهما .. ذاك كان همس الروح .. همس عميق ، مستمر ، يطغى على صوتيهما ! .. واخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة ، فلم يخطر ببالهما ان يتكلما عن هذ الاحساس او ان يبحثا عن سببه .. فان المسرات فى إقبالها تلقى ـ كالشواطىء الاستوائية ـ على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطريه ، وتبعث فى الجو نسيما متضوعا .. فاذا هذه النشوة تسلمنا إلى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير فى الأفق الذى نجهله !

وكانت الارض قد مادت فى إحدى البقاع تحت اقدام الماشية ، فكان لابد لهما من أن يقفزا على أحجار كبيرة خضراء تناثرت فى الوحل .. وكثيرا ما كانت « ايما » تتريث لتستبين موقع قدمها ، وهى تتارجح على حجر مهتز ، وقد بسطت ذراعيها فى الهواء ، وانحنت قامتها فى حيرة ، وراحت تضحك وهى تخشى أن تهوى فى برك الماء !

وعندما بلغا حديقة دارها ، دفعت مدام « بوفارى » الباب ، وطوت السلالم عدوا ، واختفت .. فعاد « ليون »

إلى مكتبه ـ وكان رئيسه غائبا ـ فالقى على الملفات نظرة ، وشحذ لنفسه قلما ، ثم تناول قبعته اخيرا وانصرف متجها إلى المرج باعلى هضبة (ارجى) ـ عند مدخل الغابة ـ حيث استلقى على الارض تحت اشجار الصنوبر ، واخذ يتطلع إلى السماء من خلال اصابعه محدثا نفسه : « ما اشد ضجرى ! » .

كان يحس انه خليق بالرثاء لإقامته فى هذه القرية ، حيث لا صديق سوى « هوميه » .. ومع السيد « جويومان » رئيسه ! .. وكان الأخير ، بمنظاره ذى الإطار الذهبى ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ، يكب على عمله ، ولا يفقه شيئا من المتع الفكرية ، وإن اتخذ لنفسه مظهرا إنجليزيا صارما بهر الكاتب فى الايام الاولى !

اما زوجة الصيدلى ، فكانت خير زوجة فى (نورمانديا) .. وديعة كالحمل ، تحب اولادها واباها وامها وبنى عمومتها ، وتبكى لأحزان الآخرين ، مهملة فى الوقت نفسه كل شئون دارها ! .. وكانت تكره المشدات (الكورسيهات) ، غير أنها كانت بطيئة الحركة ، مملة الحديث ، مبتذلة المظهر ، ضيقة الأفق ، حتى ما كان احد ليتصور انها تصلح زوجة لغير الصيدلى ، او انها اوتيت شيئا من خصائص جنسها فيما عدا الثوب ! .. وكانت هى فى الثلاثين بينما كان هو ـ (اى ليون) ـ فى العشرين ، وكان مخدعه ملاصقا لمخدعها ، ومن ثم كان يخاطبها يوميا !

ثم .. ماذا كان هناك غير ذلك ! .. « بينيه » ، وبعض أصحاب الحوانيت ، واثنان او ثلاثة من اصحاب الحانات ، والقس ، واخيرا مسيو « توماش » ، العمدة ، وأولاده : وكلهم ثراة ، متغطرسون ، اغبياء ، يزرعون الأرض بانفسهم ، ويستاثرون بالولائم فيما بينهم ، متزمتون ، لا تطاق صحبتهم !

ولكن .. ماذا عن « ايما » ؟ .. لقد كانت تقف بمعزل عن كل الإطار العام الذى يضم هذه الوجوه البشرية .. وبعيدا عنه هو الآخر ، إذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة ! .. كان قد زارها مع الصيدلى عدة مرات فى البداية ، فلم يبد « شارل » ميلا واضحا إلى ان يراه مرة اخرى ، فلم يدر « ليون » ماذا يفعل ، إذ حار بين الخوف من ان يبدو متطفــلا ، والرغبة فى الفة جميلة تكاد تلوح مستحيلة !

———— ● ————

الفصل الرابع

● نقلت « ايما » — عندما بدات ايام الشتاء — مخدعها إلى حجرة الجلوس .. وكانت قاعة طويلة ، منخفضة السقف ، استقرت على رف مدفأتها — امام المرآة — حزمة كثيفة من المرجان . وكانت تجلس فى مقعدها الوثير بجوار النافذة ، حيث تشهد اهل القرية وهم يمرون على الإفريز .

وكان « ليون » يسعى بين مكتبه وفندق « الأسد الذهبى » مرتين فى اليوم ، فكانت « ايما » إذا سمعته عن بعد انحنت لتصيخ السمع ، بينما يمر الشاب دون أن يلتفت ، فتراه من خلف الستائر فى نفس المظهر والملبس دائما .. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التى تطرزها تسقط على ركبتيها ، وتستند بذقنها إلى يدها اليسرى — عنـد الغروب — كانت تسرى فى جسـدها رجفة لظهـور هـذا الشـبح ومروره بالبيت ! .. وكانت لا تلبث أن تنهض وتأمر بإعداد المائدة .

وكان السيد « هوميه » يصل اثناء العشاء ، وطاقيته الإغريقية فى يده ، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كى لا يزعج احدا ، وهو يردد نفس العبارة دائما : « مساء الخير ايهـا الزميلان ! » .. فاذا اتخذ مجلسـه إلى مائدة الزوجين ، سال الطبيب عن انباء المرضى ، فيستشيره هذا فيما يقدر من اتعاب ، ثم يخوضان فى الحديث عما جاء بالصحيفة التى يكون «هوميه» قد استظهر كل ما فيها تقريبا ! .. فكان يرويه ، مع التعليقات ، كما كان يروى جميع النكبات الفردية التى وقعت فى فرنسا او فى الخارج . ولم يكن يتوانى — إذا ما نضب موضوع الحديث —

عن أن يلقى ببعض الملاحظات عن أصناف الطعام التى
يراها ! .. بل إنه كان ينهض أحيانا عن مقعده ليرشد السيده
إلى أطرى قطع اللحم ، أو يتحول إلى الخادم يوجه إليها
إرشادات فى معالجة اللحوم ، والقواعد الصحية لاستخدام
التوابل .. ويتكلم عن البهار ، والمقات ، وأنواع العصير
والهلام (الجيلاتين) .. على نحو مدهش ! .. ولما كان رأس
« هوميه » يحفل بتركيبات تفوق فى الكثرة ما تزخر به صيدليته
من قنينات ، فانه كان يحذق صنع جميع أنواع المربى ، والخل ،
والمشروبات الروحية الخفيفة ، كما كان ملما بكافة المخترعات
الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية ، فضلا عن أصول
صيانة الجبن ، وعلاج النبيذ الفاسد !

وكان « جوستان » يأتى فى الساعة الثامنة يستدعيه
لاغلاق الصيدلية ، فيرمقه السيد « هوميه » بنظرة خبيثة ،
لا سيما إذا كانت « فيليسيتيه » واقفة ، إذ كان قد فطن إلى
أن مساعده يميل إلى التردد على بيت الطبيب ! .. وكان
يقول : « ان هذا « الفحل » بدأ يفكر .. وليأخذنى الشيطان
إذا كنت مخطئا فى ظنى انه يحب خادمتكما ! » .

بيد أن أخطر عيب كان يؤاخذ « جوستان » عليه ، هو
أنه كان ينصت دوما إلى الحديث . فلم يكن من السهل إبعاده
عن « الصالون » فى يوم الأحد مثلا ، عندما تناديه مدام «هوميه»
لينقل الأطفال الذين ناموا فى مقاعدهم ، وأخذوا يسحبون
بظهورهم مفارشها عنها ! .. ولم يكن يحضر سهرات
الصيدلى أناس كثيرون ، إذ نجح ميله للخوض فى الفضائح

والآراء السياسية فى تنفير مختلف الأشخاص المحترمين منه .
على أن الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته ، وكان إذا سمع
جرس الباب بادر مسرعا إلى استقبال مدام «بوفارى» ، فيأخذ
عنها شالها ، ويضع تحت نضد الصيدلية الخفين السميكين
المزدانين بالشرائط ، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءيها إذا
كان الجليد يملأ الشوارع .

وكانوا يلعبون أدوارا من لعبة الورق المعروفة برقم ٣١ ،
ثم ينفرد السيد « هوميه » باللعب مع « إيما » ، و « ليون »
من خلفها يقدم لها النصائح ، وقد وقف معتمدا بيديه على ظهر
مقعدها ، محدقا فى أسنان المشط التى تعض عقصة شعرها .
وكان الجانب الأيمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها
لالقاء الورق ، وينبعث من شعرها لون أسود ينساب على
ظهرها ، ويأخذ فى الشحوب تدريجيا ، حتى يتلاشى فى
الظلال .. ثم يتهدل ثوبها على جانبى المقعد ، منتفخا ، مليئا
بالثنايا ، وينساب حتى يبلغ الأرض .. فاذا أحس « ليون »
بأن نعله وقع على طرف منه ، ارتد مجفلا وكأنما داس
شخصا !

وعندما كان ينتهى لعب الورق ، كان الصيدلى والطبيب
يلعبان « الدومينو » ، فتنتقل « إيما » إلى مقعد آخر لتتكىء
على المائدة وتقلب صفحات مجلة « الالستراسيون » .. كما
كانت تحضر معها مجلتها النسوية ، فيجلس « ليون » يتأمل
الصور إلى جانبها ، ويتريث أحدهما عند نهاية كل صفحة
ريثما يفرغ منها الآخر . وكثيرا ما كانت ترجوه أن ينشدها
شعرا ، فكان « ليون » يفعل بصوت متراخ كان يعنى بخفضه

عند العبارات الغرامية ، لتطفى عليه جلبة « الدومينو »! ..
وكان السيد « هوميه » بارعا فى هذه اللعبة ، إلى حد أنه كان
يفوز على « شارل » بدورين ، حتى إذا فرغا من الدور الثالث ،
اضطجعا معا امام المدفأة ، فلا يلبثان ان يغفوا ! .. وتموت
النار .. ويخلو ابريق الشاى .. و « ليون » ماض فى
القراءة ، و « ايما » تنصت إليه ، وهى تعبث بمظلة المصباح
فى حركة آلية ، وتحدق فى الرسوم المنقوشة عليها : من
عصافير فى عربات ، إلى راقصين على الحبال ممسكين بالعصى
التى يحفظون بها توازنهم .. وكان « ليون » لا يلبث ان يمسك
عن القراءة ليشير بإيماءة إلى النائمين .. وإذ ذاك يشرعان فى
الحديث بخفوت ، فكان هذا الحديث يبدو لهما اعذب من
اى حديث ، لأن احدا لم يكن يسمعه !

.. وهكذا توثقت بينهما رابطة من نوع خاص ، واخذا
يتبادلان الكتب والروايات . ولم يكن السيد « بوفارى » ليشغل
باله بهذا .. فقد كان قليل الانسياق للغيرة :

وتلقى « شارل » فى عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون
الأزرق ، لبيان الجهاز العصبى ، وقد انتشرت عليه الأرقام
والبيانات حتى التنفس الصدرى ! .. تلك كانت هدية من
الكاتب الذى اخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات ،
حتى لقد كان يقضى للطبيب حوائجه فى (روان) . وكان احد
الروائيين قد اورد فى كتاب له فصلا عن نبات « الصبار »
جعله بدعة لقيت رواجا ، فابتاع « ليون » بعض نبتات منه
لمدام بوفارى ، وقد ادمى بعض اشواكها اصابعه ، إذ حملها

فى « العصفورة » على ركبتيه ! .. واقامت السيدة خارج
نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص . ولما كانت
للكاتب حديقة صغيرة معلقة ، فقد اخذ كل منهما يشاهد الآخر
وهو يعنى بازهاره عند النافذة !

ومن بين نوافذ القرية ، كانت ثمة نافذة ينبعث منها اكبر
قدر من النشاط .. فطيلة ايام الآحاد — نهارها ومساؤها —
وبعد ظهر كل يوم ، حين يصحو الجو ، كان المرء يرى خلال
كوة مخزن الغلال منظرا جانبيا لوجه « بينيه » وقد انحنى
على مخرطته فانبعث طنينها الرتيب حتى صار يسمع فى فندق
« الأسد الذهبى » .

وولج « ليون » غرفته ذات يوم ، فألفى فيها سجادة من
المخمل والصوف ، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة ،
فاستدعى مدام « هوميه » والسيد « هوميه » و « جوستان »
والأطفال والطباخة ليشهدوها ! .. وتحدث إلى رئيسه
عنها .. ورغب الجميع فى أن يروا هذه السجادة ، وهم
يسائلون انفسهم : ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتب
هدايا ؟ .. إنه لأمر جد عجيب ! .. ووقر فى نفوسهم انها لابد
حبيبته ، لا سيما وقد كان فى مسلكه ما يبرر هذا الظن ؛ إذ كان
دائم الحديث عن سحرها وذكائها ، حتى لقد رد عليه « بينيه »
مرة فى عنف قاس : « وماذا يعنينى من امرها وانا لست من
اصدقائها ؟ ! » .

واخذ « ليون » يعتصر ذهنه بحثا عن وسيلة يعلن بها
حبه لها .. فقد كان يتردد بين الخوف من ان يثير استياءها وبين

الخجل من جبنه ! . . كان يبكى من الرغبة وعدم الجراة ، ثم لا يلبث ان يستجمع عزيمته ويعمد إلى كتابة خطابات يمزقها بعد ان ينتهى منها ، ويرجىء الأمر إلى أوقات اخرى ، ثم يعود فيرجئه من جديد ! . . وكثيرا ما كان يهم بمواجهة الأمر فى عزم ، فلا تكاد تحضر « ايما » حتى يتبدد هذا العزم ! . . وكان إذا دعاه « شارل » إلى مرافقته فى عربته لعيادة مريض فى قرية مجاورة لبى الدعوة لفوره ، فيحيى السيدة وينصرف . . ولم لا ، أليس زوجها جزءا منها ؟

أما « ايما » فلم تسائل نفسها قط عما إذا كانت تحبه . فهى تعتقد ان الحب يفد فجاة مصحوبا برعد وبرق ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الارض ، فتقلب كيانها ، وتنتزع الإرادات انتزاعها لأوراق الشجر ، وتجرف القلب ! . . ولم تفطن إلى ان المطر يحيل الشرفات بحيرات إذا كانت المازيب مغلقة . . وهكذا ظلت مطمئنة ، حتى اكتشفت فجاة صدعا فى الجدار . . جدار قلبها !!

الفصل الخامس

● كان ذلك فى أصيل يوم احد من شهر فبراير ، والجليد يتساقط . . وهم جميعا — السيد بوفارى وزوجته ، وهوميه ، والسيد ليون — على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل) ، وقد خرجوا فى رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جاريا فى إقامته فى الوادى . . وكان الصيدلى قد اصطحب معه « نابوليون » و « اتالى » للرياضة ، كما رافقهم « جوستان » حاملا المظلات على كتفه .

بيد انهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئا يثير الفضول . . مساحة ارض واسعة ، خالية ، تناثرت فى ارجائها بين اكداس الرمل والحصى الملقاة فى غير انتظام ، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدأ . ووسط هذه الأرض قام مبنى مستطيل ، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة . . ولم يكن البناء قد اكتمل ، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذى علقت باحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف فى الهواء بالوانها الثلاثة . . وانطلق « هوميه » يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من اهمية ، وما ستكون عليه أرضها الخشبية من متانة ، وجدرانها من سمك . . وابدى اسفه إذ لم يكن يملك عصا للقياس كتلك التى كان السيد « بينيه » يقتنيها لاغراضه الخاصة !

وكان يتأبط ذراع « ايما » التى راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشىء ، لتتطلع إلى الشمس التى كان قرصها

يرسل من بعد — خلال الضباب — ضوءا اخذ يســطع فى
شحوب .. وحانت منها التفاتة ، فرأت « شارل » قد كبس
قلنسوته حتى حاجبيه ، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان ،
مما اضفى على وجهه مزيدا من الغباء ! .. حتى ظهره ..
ظهره الساكن .. كان يثير الاشمئزاز ، وكأنما انتشرت على
« ردنجوته » مظاهر تفاهة شخصيته !!

وفيما كانت تتأمله ، مستشعرة فى اشمئزازها لونا من
المتعة الشاذة ، اقترب « ليون » خطوة ، وقد لاح ان البرد
الذى أصابه بالشحوب قد أسبغ على وجهه استرخاء زاده
بهاء .. وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشىء ، تكشف
— بين الرقبة ورباطها — عن بشرته .. وبرز طرف اذنه من
خلال خصلة من الشعر .. وخيل لايما ان عينيه الواسعتين
الزرقاوين — اللتين كانتا تتطلعان إلى السحب — اكثر صفاء
وجمالا من البحيرات الجبلية التى ينعكس لون السماء على
مياهها !

وهتف الصيدلى فجاة : « يا للشقى ! » .. ثم عدا نحو
ابنه الذى قفز إلى كومة من الجير ليطلى حذاءيه بلون ابيض..
وراح « نابوليون » يصرخ إذ انهال عليه توبيخ ابيه ، بينما
اسرع « جوستان » ينظف له حذاءيه بحزمة من القش . بيد
انه احتاج إلى سكين ، فقدم إليه «شارل» واحدة.. وإذ ذاك
حدثت « ايما » نفسها قائلة : « آه ! .. إنه يحمل سكينا فى
جيبه كالفلاحين ! » .

وتساقط الصقيع ، فعادوا إلى « ايونفيل » .. ولم تذهب
مدام «بوفارى» لزيارة جيرانها فى ذلك المساء.. وإذ غادرها

« شارل » وخلت إلى نفسها ، عادت إليها المفارقة بوضــوح
الاحساس المباشر الذى يكاد يكون واقعا ، وبالعمق الذى
تخلعه الذاكرة على الأشياء ! .. وتمثل لعينيها — وهى تتأمل
من سريرها النار وهى تستعر صافية فى المدفأة — المنظر الذى
رأته هناك ، وكأنه لا يزال امامها : « ليون » وقد وقف يثنى
عصاه باحدى يديه ، ويمسك « اتالى » باليد الأخرى ، وهى
تستحلب فى هدوء قطعة من الثلج .. وبدا لها فاتنا ! .. ولما
لم تستطع ان تنتزع نفسها عنه ، اخذت تستعيد مواقف اخرى
له فى ايام غير ذاك اليوم ، وكلمات صدرت عنه ، وجـرس
صوته ، وكل كيانه .. ومضت تردد وهى تمط شفتيها كأنها
تقبل احدا : « اجل .. فاتن .. فاتن ! .. الا تراه قـد
احب ؟ .. ومن عساه احب ؟ .. انا ؟ ! » .

واخذت الادلة تنبعث امامها ، فقفز قلبها .. والقى وهج
النار على السقف ضوءا راح يتراقص فى مرح ، وانقلبت على
ظهرها باسطة ذراعيها .. وإذ ذاك بـدا الرثـاء الأبدى :
« اواه .. ليت السماء دفعته إلى حبى .. ولم لا ؟ .. ما الذى
يحول دون ذلك ؟ ! » .

ولاحت — حين عاد « شارل » فى منتصف الليـل —
وكأنها استيقظت لتوها .. وشكت من صداع إذ اخذ يخلع
ثيابه فى جلبة ، ثم سألته عرضا عما حدث فى السهرة فقال :
« لقد غادرنا السيد ليون مبكرا واوى إلى غرفته ! » .

ولم تتمالك ان ابتسمت ، ونامت ونفسها مفعمة بلون
من الغبطة جديد عليها !

* * *

● وعند غروب شمس اليوم التالى ، زارها السيد «لوريه» تاجر الأقمشة . وكان بائعا ماهرا ، ولد فى (جسكونيا) ولكنه نشأ فى (نورمانديا) كأحد ابنائها ، فجمع بين لباقة اهل الجنوب وبين دهاء اهل (كو) . وكان وجهه السمين، المتهدل، الحليق ، يبدو وكأنه طلى بنقيع باهت من « العرقسوس » ، وقد زاد شعره الابيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء ! .. ولم يكن ثمة من يدرى ماضيه ، فهناك من يقول : إنه كان بائعا متجولا ، بينما يقول آخرون: إنه كان صرافا فى (روتو) .. على ان المحقق انه كان قديرا على ان يجرى فى ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها « بينيه » نفسه . وكان يغالى فى التادب نفاقا ، فيقف محدودب الظهر كمن ينحنى للتحية او الدعوة !

وبعد ان ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج ، ووضع على المائدة صندوقا اخضر من الورق المقوى ، شرع يشكو للسيدة – فى أدب جم – من انه لم يحظ بعد بثقتها ، قائلا : إن من الصحيح ان حانوته الفقير لم يكن اهلا لأن يجتذب « سيدة انيقة» – وضغط على هاتين الكلمتين – مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى ان تأمر وهو قمين بان يوافيها بأى شىء تبغيه من الخردوات او الثياب الداخلية او القبعات او الكماليات ، لانه يتردد على المدينة بانتظام اربع مرات فى الشهر ، ويتعامل مع خير متاجرها .. وتستطيع ان تسأل عنه فى « التروا فرير» – (الأخوة الثلاثة) – و «البارب دور» – (اللحية الذهبية)– و « الجران سوفاج » – (المتوحش الكبير) – فإن اصحاب هذه المتاجر جميعا يعرفونه معرفتهم لما فى جيوبهم ! ومن ثم

فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة – إذ مر بدارها – بضع سلع قدر له ان يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة . ثم اخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة، فحصتها مدام بوفارى ثم قالت : « لست فى حاجة إلى شىء ! » .. وإذ ذاك عرض فى رفق ثلاثة من شيلان الجزائر ، وعدة مجموعات من الإبر الإنجليزية ، وزوجا من النعال القش ، واخيرا ، اربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة ، مفرغة. ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرأب بعنقه ، وراح يرقب « ايما » – التى كانت تجول بين سلعه مترددة – وقد انحنى إلى الأمام وفغر فاه .. ومن وقت لآخر، كان يمس بأظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سعتها – وكأنه ينفض عنها غبارا – فكانت تهتز فى حفيف ضئيل ، وتبرق الخيوط المذهبة التى تتخلل نسيجها كنجوم صغيرة تومض فى ضوء الغسق الضارب إلى الخضرة .. وسألته اخيرا : « ما ثمنها ؟ » .. فأجاب : « لا شىء فى الواقع .. ثمن ضئيل لا يذكر .. ولا داعى للعجلة ، بل ادفعى حين يحلو لك .. فلسنا يهودا ! » .

وفكرت لبضع لحظات ، ثم انتهت إلى رفض ما عرض المسيو « لوريه » من جديد ، فأجاب غير آبـه لرفضهـا : « حسنا .. سيفهم كل منا الآخر شيئا فشيئا .. لقد اعتدت دائما ان اوفق إلى ارضاء السيدات ، وإن لم افلح فى إرضاء زوجتى ! » .

وابتسمت « ايما » ، بينما استطرد قائلا فى طيبة قلب، بعد النكتة : « إنما احببت ان انبئك بان النقود ليست بالشىء

الذى يقلقنى ، بل اننى على استعداد لان اقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة إليه ! » .

وبدرت منها حركة تنم عن دهشة ، فبادر قائلا بصوت خفيض : « آه ، لن اضطر إلى ان اذهب بعيدا للحصول على ما تريدين ، فاركنى إلى ! » .

وتحول يسأل عن الأب « تيلييه » ــ صاحب « المقهى الفرنسى » ــ الذى كان السيد « بوفارى » يعالجه « ما بال الأب تيلييه ؟ .. إنه ليسعل حتى يهز بيته باسره ، واخشى ان لا يمضى طويل وقت حتى يكون اكثر حاجة إلى كفن منه إلى صدار من « الفانيلا » ! .. لقد كان فى شبابه مسرفا فى العربدة ! .. هؤلاء الناس يا سيدتى لا يعرفون الاعتدال ، لقد احرق نفسه بكحول الخمر .. على انه من المحزن ــ مهما يكن الأمر ــ ان يرى المرء احد معارفه يفنى ! » .

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب ، وهو يربط صندوقه ، ثم اردف وهو يتأمل الأرض عابسا : « ان الجو ولا ريب هو سبب هذه الامراض . فانا الآخر اشعر بتوعك ، وما ارانى إلا مضطرا لان استشير الطبيب يوما ما بشأن ألم بظهرى . حسنا يا مدام « بوفارى » .. استودعك الله .. إنى خادمك الخاضع فى خدمتك ! » .. واغلق الباب فى رفق .

وطلبت « ايما » ان يحمل إليها العشاء على صفحة لتتناوله إلى جوار المدفاة فى مخدعها .. وقضت وقتا طويلا فى الاكل ، إذ كانت راضية عن كل شىء .. وقالت لنفسها وهى تفكر فى الشيلان : « ما كان احكم تصرفى ! » .

وسمعت خطى على السلم ، فادركت ان القادم «ليون»،

ونهضت فتناولت من الصوان اول صف من المنافض التى لم تثن اطرافها بعد .. فلما وصل ، بدت جد منهمكة فى العمل . ودار الحديث بينهما متراخيا ، إذ كانت مدام « بوفارى » تنصرف عنه ، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكا .. واخذ يقلب علبة « الكستبان » العاجية بين اصابعه ، وهو جالس على مقعد منخفض إلى جوار المدفاة ، وهى ماضية فى التطريز ، تطوى ــ من آن لآخر ــ طرف القماش بظفرها ، دون ان تتكلم . ومن ثم لزم هو الآخر الصمت ، وقد اسره سكوتها ، كما كان من الممكن ان يأسره حديثها ! .. وقالت تحدث نفسها : « يا للشباب المسكين ! » .

على ان « ليون » لم يلبث ان قال : إنه مضطر لان يذهب إلى (روان) يوما فى بعض مهام عمله ، واردف : « لقد انتهى اشتراكك فى الموسيقى ، فهل اجدده لك ؟ » .. فاجابت : « لا » .. وسألها : « لماذا ؟ » .. فقالت : « لأن .... » .

ثم زمت شفتيها واخذت تشد الخيط الرمادى فى غرزة طويلة .. وكان عملها هذا يضايق « ليون » ، إذ بدا انه يؤدى إلى تخشين اناملها ! .. وخطرت له عبارة رقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها .. بل قال : « إذن فسوف تستغنين عنها ؟ » .. فقالت : « ماذا ؟ » .. ثم اردفت بسرعة : « الموسيقى ؟ .. آه ! .. اجل ! .. أليس لدى بيتى ارعاه ، وزوجى اعنى به ، والف شىء .. وكثير من الواجبات التى يجب ان اؤديها اولا ؟ » .

ونظرت إلى الساعة ، فاذا «شارل» قد تأخر ، وإذ ذاك تظاهرت بالقلق .. بل لقد رددت مرتين او ثلاثا : « لكم هو

طيب ! » .. وكان الكاتب يحب السيد « بوفارى » ، ولكن حنان زوجته نحوه ادهشه وساءه . ومع ذلك فقد اخذ يمتدحه ويقول : إن كل امرىء — لا سيما الصيدلى — يثنى عليه .. فعادت « ايما » تردد : « آه .. إنه طيب ! » .. وأجاب الكاتب : « حقا ! » .. وشرع يتحدث عن مدام «هوميه» التى كان اسرافها فى اهمال مظهرها يثير ضحكهما ، فقاطعته « ايما » قائلة : « وما قيمة ذلك ؟ .. ان ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها » .. ثم اخلدت إلى الصمت !

وتكررت الحال فى الايام التالية .. حديثها ، ومسلكها ، وكل شىء فيها قد تغير . واخذت تبدى اهتماما بشئون منزلها، وتذهب إلى الكنيسة بانتظام ، وتحاسب خادمتها فى مزيد من الشدة . واستردت طفلتها « برت » من المرضعة . وكانت « فيليستيه » تحملها — إذا وفد ضيوف — فتخلع مدام « بوفارى » عنها ثيابها لتعرض اطرافها ، وتردد انها تعبد الاطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها .. وتقترن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بان تذكر اى فرد — عدا سكان (ايونفيل) — بساشيت فى رواية « نوتردام دى بارى »(١) .

واصبح « شارل » يجد خفيه — حين يعود إلى الدار — وقد وضعا إلى جوار المدفاة ليكتسبا دفئا! .. ولم يعد صداره يفتقد البطانة ، ولا اقمصته تعوزها الازرار .. وكان يسره

(١) كانت ساشيت راهبة تحدث عنها « فيكتور هيجو » فى روايته الخالدة : « احدب نوتردام » .

ان يرى الطاقيات فى الصوان وقد انتظمت فى صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد « ايما » تتذمر من المساهمة فى الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح ، وان لم تفهم الرغبات التى كانت تنصاع لها دون تململ . وكان « ليون » حين يرى الزوج إلى جوار النار بعد العشاء ، ويداه على بطنه ، وقدماه على حافة المدفـاة ، وخداه متضرجان من التغذية ، وعيناه نديتان لفرط هناءته ، والطفلة تزحف على البساط ، وهذه المراة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة .. كان « ليون » حين يرى هذا ، يقول لنفسه : « يا له من جنون ! .. وكيف السبيل إليها ؟ ! » .

كانت باعمالها هـذه تلوح له جـد فاضلة وموفورة الحصانة ، حتى لقد فقد كل أمل . ولكنه — بهذا التحول — انزلها مكانا غير عادى ، إذ أصبحت فى نظره مجردة من مفاتنها البدنية التى لم ينل منها شيئا ، ومن ثم اخذت تسمو فى قلبه ، وتبعد عن متناوله كروح الهية تحلق عاليا ! .. وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التى لا تمت إلى الحياة الدنيوية ، والتى يتعهدها المرء فى نفسه لانها نادرة : ويخلف فقدها من الحزن اكثر مما يضفيه من اللذات !

واخذت « ايمـا » تزداد نحـولا ، وخداهـا يزدادان شحوبا ، ووجهها يستطيل . الم تصبح بشعرها الاسود ، وعينيها الواسعتين ، وانفها الاقنى ، ومشيتها التى تشبه حجل الطير ، والسكون الذى اصبحت تخلد إليه .. أو لم تكن تبدو — بهذا كله — وكانها تجتاز الحياة ولا تكاد تمسها ،



وهذه المرأة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة

وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسى ؟ ! .. كانت جد حزينة وهادئة ، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة ، حتى ليشعر المرء إلى جوارها بأن فتنة جليدية استولت عليه .. كما يحدث لنا فى الكنائس حين يبعث أريج الزهور فى امتزاجه ببرودة الرخام قشعريرة فى أبداننا ! .. بل إن الآخرين لم يفلتوا من هذه الفتنة ، حتى لقد قال الصيدلى : « انها امرأة عظيمة المواهب .. ما كان ينبغى أن تعيش فى بلدة صغيرة ! »

وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها ، والمرضى يعجبون بأدبها ، والفقراء ببرها .. ولكنها كانت تحترق بالشهوات ، والغيظ ، والبغضاء ! .. كان هذا الثوب المستقيم الثنايا ، يخفى قلبا حائرا ، لا تنفرج تلكما الشفتان العفيفتان عن شىء من عذابه .. كانت تهوى « ليون » وتنشد العزلة لتسعد بطيفه فى طمأنينة ! .. وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها ! .. كانت تهتز طربا لوقع خطواته ، ثم يخمد الانفعال فى حضوره ، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهى إلى أسى طاغ !

* * *

● ولم يكن « ليون » يعلم أنها كانت — إذا غادرها تانطا — تنهض بعد انصرافه لترقبه فى الطريق .. وأنها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته ، بل إنها لفقت قصة محبوكة لتجد عذرا يبرر لها زيارة غرفته .. وبدت لها زوجة الصيدلى سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذى يأويه ! .. وأخذت أفكارها تحوم دائما حول ذلك البيت ، كحمائم فندق « الأسد الذهبى » التى كانت تأتى لتغمس أرجلها الوردية وأجنحتها البيضاء فى مياه مزاريبه ، على أن

« ايما » كانت تزداد كبتا لحبها كلما ازدادت ادراكا له ، حتى لا يتجلى واضحا ، وحتى تستطيع أن تضعفه ! .. كانت تود ان يحدسه « ليون » من تلقاء نفسه ، وتتصور ما يمكن ان ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الاتيان بالخطوة الأولى سوى الكسل ، والخوف .. وشعور بالحياء أيضا ! .. وخيل إليها انها قد تمادت فى صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شىء .. وإذ ذاك ؛ كانت تجد فى الكبرياء ، وفى البهجة التى تراودها إذ تملك ان تقول لنفسها : « انا امراة فاضلة » ، وان تتأمل نفسها فى المرآة متخذة أوضاع الإذعان والاستكانة .. كانت تجد فى كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التى اعتقدت انها كانت تقوم بها !

ثم اخذت شهوات الجسد ، وجشع المال ، واشجان العاطفة ، تختلط جميعا فى نوع واحد من العذاب ، كانت تزداد استكانة إليه — بدلا من أن تنتزع نفسها منه — مستحثة نفسها على الشعور بالالم ، باحثة فى كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تنفعل إذا اسىء تقديم صنف من الطعام ، او إذا رات بابا منفرجا ، وتندب ما لا تملكه من مخمل ، وما ينقصها من سعادة ، وما يبعد عن متناولها من احلام ، وما كان عليه بيتها من ضيق !!

واغاظها ان « شارل » لم يبد أى انتباه إلى عذابها .. وبدا لها اعتقاده بانه حقق لها كل سعادة إهانة وقحة ، واطمئنانه إلى هذا الاعتقاد جحودا .. فمن اجل من إذن كانت عفتها وفضيلتها ؟ ! .. او لم تكن من اجله هو ؟ ! .. هو الذى كان حجر العثرة فى سبيل كل سعادة ، والسبب فى كل

تعاسة .. والذى كان كالمحبس المدبب يحكم إغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذى يطبق عليها من كافة النواحى ! .. لذلك صبت عليه وحده كل تلك الأحقاد العديدة التى تجمعت من ضيقها ، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الأحقاد إنما يضاعفها ، إذ كان المجهود الضائع يضيف سببا جديدا لخيبة الأمل ، ويزيد الهوة بينهما عمقا ! .. وكان تلطفها مع نفسها يزيدها تمردا على زوجها ، وضعة حياتها المنزلية تدفعها إلى احلام ملؤها البذخ ، كما كانت الملاطفات الزوجية تسلمها إلى شهوات داعرة ! .. ولكم ودت لو ان « شارل » ضربها حتى تجد مبررا لأن تكرهه وتعمل على الانتقام لنفسها منه ! .. وكانت تذهل احيانا للخيالات الفظيعة التى كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من ان تستمر فى الابتسام ، وان تسمع الادعاء بانها سعيدة يردد على مسمعها فى كل الأوقات ، وان تتظاهر بالسعادة ، وتدع سواها يعتقد انها سعيدة !

على انها كانت تشعر باشمئزاز من هذا النفاق . وتملكها إغراء راح يزين لها الفرار إلى مكان ما ، مع « ليون » ، لتبدأ حياة جديدة .. ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام ، كانت لا تلبث ان تنشق فى أعماقها ، فتذهب تردد لنفسها : « ثم إنه — إلى جانب هذا — لم يعد يحبنى ، فماذا يصيبنى ؟ .. اى عون يرجى .. اى عزاء .. اية تسرية ؟ » .. وتخرج من هذا كله محطمة ، لاهثة ، عاجزة ، فتنتحب فى صوت خفيض ، ثم تنساب دموعها مدرارة !

وكانت الخادم تسألها إذا اقبلت عليها خلال هذه الأزمات: « لم لا تخبرين السيد بهذا ؟ » .. نتجيبها « ايما » : إنهــا الأعصاب ! .. لا تخبريه ، حتى لا تتولاه الهموم » .

وتقول « فيليسيتيه » : « آه ، حسن ! .. انك مثل « لاجيرين » ابنة الاب «جيران» صياد السمك فى (بوليه) — التى كنت اعرفها فى (دييب) قبل ان آتى اليكما .. كانت جد حزينة ، مفرطة الحزن ، حتى ليخالها المرء — حين يراهــا على عتبة دارها — كفنــا مبسوطا امام الباب ! .. وكان مرضها على ما يبدو نوعا من الضباب ينتشر فى رأسها . ولم يستطع الأطباء ، ولا القس ، أن يفعلوا شــيئا .. وكانت إذا اشتدت بها نوبــات المرض تذهب وحيدة إلى شاطىء البحر ، فكان ضابط الجمرك يراها كثيرا — اثناء طوافه — منكفئة على الحصى تبكى. ثم قيل إنها شفيت بعد الزواج » !

وتعقب « ايما » قائلة : « اما انا ، فقد بدأ مرضى بعد الزواج » !!

———— ● ————

الفصل السادس

● بينما كانت «ايما» جالسة إلى جوار النافذة المفتوحة ، فى احدى الأمسيات ، رأت « ليستيبودوا » — الشماس — يشذب اغصان حديقة القس .ولم تلبث أن سمعت الناقوس يدق معلنا صلاة المساء ..

وكان ذلك فى أوائل ابريل ، حين تتفتح البراعم ، وتهب ريح دافئة على احواض الزهور التى تم حرثها منذ عهد قريب .. والحدائق تبدو كالنساء تتزين لأعياد الصيف . ومن بين اعمدة العرائش ، وحولها من كل النواحى ، كان النهر يرى فى الحقول ، هائما بين العشب فى انحناءات مرتجلة .. وابخرة المساء تتصاعد بين اشجار الحور المجردة من اوراقها، تضفى على إطارها لونا بنفسجيا ، اشد شحوبا وشفافية من شاش رفيع يعلق بين اغصانها .. وكانت الماشية تبدو عن بعد وهى تتحرك دون أن يسمع لها خطو ولا خوار .. والناقوس ماض فى رنينه ، ناشرا فى الهواء شجاه وحزنه الوديع !

وعلى رنين دقاته المتواترة ، هام فكر السيدة الشابة فى ذكرياتها القديمة ، ايام الشباب والدراســة فى الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التى كانت تبــدو من وراء الأوانى المليئة بالأزهــار فوق المذبح ، والهيــكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة .. وتمنت لو انها ظلت كما كانت إذ ذاك ، تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذى كانت تتخلله — هنا وهناك — بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات

فوق المراكع .. ثم قداسات ايام الأحد ، حين كانت ترفع
راسها اثناء الصلاة فتلمح وجه العذراء العذب ، وسط
غلالات الدخان المائلة إلى الزرقة ، التى كانت تتصاعد من
المباخر ! .. إذ ذاك جاشت عواطفها ، فاحست بأنها
ضعيفة ، مهجورة ، كريشة فى مهب العاصفة .. وسعت —
دون وعى منها — إلى الكنيسة ، تواقة إلى أية فرائض تتاح
لها ، كى تذيب روحها فيها .. فيتلاشى الوجود !!

والتقت فى الميدان المؤدى إلى الكنيسة باليستيبودوا
عائدا .. فقد كان يؤثر أن يوقف عمله ثم يستأنفه ، بدلا من
أن يتحيف ساعات العمل اليومية .. حتى لقد كان يدق
الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه .. فضلا عن أن دقه مبكرا
عن موعده كان ينبه الصبية إلى موعد درس الدين !

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلا ، وراحوا يلعبون
« البلى » على بلاط المقابر ، ويهزون ارجلهم فيحصدون
بأحذيتهم زهور « بنات النار » التى نمت بين السور والمقابر
المتاخمة له .. هذا هو المكان الوحيد الذى تشيع فيه
الخضرة . اما ما عداه، فلم يكن سوى احجار يكسوها دواما
غبار ناعم ، رغم مكنسة الشماس ! .. وكان الصبية يعدون
فى ارجاء المكان باحذيتهم ذات الأعناق الطويلة ، وكأنه ساحة
أعدت لهم ، واصواتهم تعلو خلال رنين الناقوس الذى اخذ
يخفت رويدا تبعا لاهتزازات الحبل الطويل الذى كان يتدلى
من البرج ، فيتجرر طرفه على الأرض .. واخذت بعض
الطيور تحوم ، مرسلة صرخات رفيعة ، وتشق الهواء بحواف
اجنحتها ، ثم ترتد فى رشاقة إلى اعشاشها الصفراء ، تحت

ترميد حافة البناء البارزة .. وفى اقصى الكنيسة كان ثمة
مصباح يتقد ، او بالأحرى فتيلة فى زجاجة معلقة يلوح ضوؤها
من بعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت .. بينما امتد شعاع
طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة كله ، فزاد من ظهور
الظلام جانبيها واركانها ..

وسألت مدام « بوفارى » صبيا كان يلهو بهز مزلاج
الباب فى عروته الواسعة : « اين القس ؟ » .. فاجاب
الصبى : « هاهو ذا قادم » .

وبالفعل ، انبعث صرير من باب مسكن القس .
وما لبث الأب « بورنيزيان » أن ظهر ، فهرع الأطفال إلى
الكنيسة فى هرج .. وتمتم القس : « يا لهؤلاء الأوغاد ! ..
إنهم دائما على هذه الحال ! » .. ثم التقط نسخة مهلهلة من
كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه ، وقال : « إنهم لا يحترمون
شيئا ! » .

على انه لم يكد يلمح مدام « بوفارى » حتى هتف :
« معذرة ! .. لم اتبينك ! » .. ودس كتاب الصلوات فى
جيبه ، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول ان
يوازنه بين اصبعيه .. وفى ضياء غروب الشمس المنصب
على وجهه ، بدا مسوحه الصوفى حائل اللون ، لامعا عند
المرفقين ، باليا عند الذيل .. وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر
على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة ، ثم
تتكاثر عند فتحة العنق التى ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه
الاحمر ، المتهدل ، الذى تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت
شعر لحية خشنة وخطها المشيب .. وكان قد فرغ لتوه من

تناول العشاء ، فراح يتنفس بصوت مسموع .. وعاد يقول : « كيف حالك ؟ » .

فأجابت « ايما »: « ليست طيبة .. انني مريضة !» ..
ورد القس قائلا : « وانا كذلك .. إن ايام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة .. أليست كذلك ! .. لكنا على كل حال خلقنا لنتعذب ، كما يقول بولس الرسول . ولكن ، ما راى السيد بوفارى فى مرضك ؟ » .

فبدرت منها حركة ازدراء ، وقالت : « هو ؟ ! » ..
فقال الرجل الطيب وقد اخذته الدهشة : « ماذا ؟ .. أو لم يصف لك دواء ؟ » .

فقالت « ايما » : « آه .. ليس الذى احتاج إليه بعلاج دنيوى ! » .

ولكن القس كان ينظر من آن إلى آخر نحو الكنيسة ، حيث ركع الأطفال واخذوا يتدافعون بالمناكب ، ويتهاوون كرقع من الورق ..

ومضت « ايما » تقول : « اريد ان اعرف .. » .

وهنا صاح القس فى صوت غاضب : « حذار يا ريبوديه .. لسوف الهب اذنيك ايها الشيطان ! » .. ثم قال إذ تحول نحو « ايما » : « أنه ابن بوديه النجار .. والداه فى يسر ، ولذلك يتركانه يفعل ما بدا له .. على ان بوسعه ان يتعلم بسرعة لو انه اراد ، فهو شديد الذكاء .. وكيف حال السيد بوفارى ؟ » .

ولاح انها لم تكن تسمعه ، فاستطرد قائلا : « لا ريب

انه جم المشاغل دائما .. فهو وانا اكثر الناس عملا فى الأبرشية .. وهو طبيب الأجسام » .. ثم اردف وهو يطلق ضحكة اجشة : « وانا طبيب الأرواح ! » .

وحدجته « ايما » بعينين ضارعتين وهى تقول : « اجل .. انك تخفف الأحزان ! » .

ــ « آه يا مدام بوفارى .. لا تحدثينى عن ذلك ، فقد اضطررت فى هذا الصباح إلى الذهاب إلى (باديوفيل) من اجل بقرة كانت مريضة ، فظنوا انها كانت تحت تاثير الشيطان .. كل ابقارهم هكذا ، وإن لم ادر لهذا مبررا ! ولكن ، معذرة .. » ثم التفت نحو الصبية وصاح : « لونجمار وبوديه .. هلا كففتما عن هذا ؟ » .. وقفز مسرعا إلى داخل الكنيسة .

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الكبير ، وتسلقوا مقعد المنشد ، وفتحوا كتاب القداس ، بينما اخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كاد يبلغ جوف « مقصورة الاعتراف » .. ولكن القس انهال عليهم فجاة بوابل من الصفعات ، ممسكا بتلابيب ستراتهم ، واخذ يرفعهم عن الأرض ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة ، كما لو كان يريد ان يغرسهم فيها !

وقال حين عاد إلى « ايما » وهو ينشر منديله القطنى، ويمسك باحد اطرافه بين اسنانه : « اجل .. ما اجدر المزارعين بالرثاء ! وغيرهم ايضا ! » .

ــ بالتاكيد .. هناك عمال المدن مثلا .

ــ لست اقصدهم ...

— عفوا ! .. لقد عرفت بينهم أمهات بائسات يعلن
أسرات .. ونساء فاضلات — بل أؤكد لك أنهن قديسات
فعلا — لا يجدن الخبز !

فقالت « ايما » وقد أخذ جانبا فمها يختلجان وهى
تتكلم : « ولكن اولئك .. أولئك اللاتى يجدن الخبز يا سيدى
القس ، ولا يجدن ... » .

قال : « النار فى الشتاء » ؟ !

— اواه .. وما قيمة هذا ؟

— ماذا ؟ .. ما قيمته ؟ .. يخيل إلى أنه إذا ما وجد
المرء الدفء والغذاء .. إذ .. على كل حال ..

فتنهدت قائلة : « يا الهى ! يا الهى ! » .

— انك تعانين من عسر هضم ولا ريب .. يجب أن
تعودى إلى دارك يا مدام « بوفارى » فتشربى قليلا من
الشاى ، فانه يقويك .. أو تناولى كوبا من الماء البارد
المزوج بمحلول السكر المركز (السكر المعقود) .

وتساءلت « ايما » وقد بدت كمن يفيق من حلم :
« لماذا ؟ » فقال : « ذلك لانك كنت تضعين يدك على جبينك
فخيل إلى انك تشعرين بدوار » .. ثم استدرك قائلا :
« ولكنك كنت تسأليننى عن شىء .. فما هو ؟ .. إننى
لا اذكره » .

فرددت « ايما » : « أنا ؟ .. لاشىء ! لاشىء ! » ..
ووقع بصرها — إذ اجالته ببطء فيما حولها — على مسوح
القس .. ثم عاد كل منهما يحدق فى الآخر صامتين . وما لبث
ان قال فى النهاية : « والآن معذرة يا مدام بوفارى ، فان

الواجب قبل كل شىء ، كما تعلمين ، ولابد من ان اتولى علاج
تلاميذى هؤلاء الذين لا يصلحون لشىء ، فان حفلة « التناول »
الأولى قادمة عما قريب ، واخشى ان تدهمنا ولما نستكمل
استعدادنا .. ولذلك أستبقيهم ساعة بالاضافة إلى الفترة
المحددة للدرس فى يوم الأربعاء من كل اسبوع ، منذ عيد
الصعود ، فى مواظبة قاسية .. يا للمساكين ! .. إن المرء
لا يملك ان يرشدهم بسرعة كبيرة إلى طريق الرب ، كما
أوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس .. لك تمنياتى
يا سيدتى بالصحة الجيدة ، ولزوجك احتراماتى ! » .

ودلف إلى الكنيسة وهو يثنى ركبته احتراما عند الباب ..
ورأته « ايما » يغيب بين صفى المقاعد ، وهو يسير بخطى
ثقيلة ، ورأسه مائل على كتفه قليلا ، ويداه مبسوطتان ، وقد
اخرجهما من المسوح .. وما لبثت أن دارت على كعبيها بكل
جسمها — قطعة واحدة — كتمثال على قاعدة تدور ، ويممت
شطر بيتها . غير ان صوت القس المرتفع ، وأصوات
الأطفال الصافية ، ظلت تصل إلى اذنيها وتلاحقها ..
« هل انت مسيحى ؟ » .. « نعم ، انا مسيحى » .. « ومن
هو المسيحى؟ » .. « هو ذلك الذى عمد .. عمد .. عمد »!!

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحاجز (الدرابزين) ،
حتى إذا بلغت حجرتها القت بنفسها فى مقعد مريح .. وكان
الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط فى تموجات
خفيفة .. ولاحت قطع الأثاث فى اماكنها اكثر جمودا مما هى
عادة ، واشد تواريا فى الظلال وكأنها تغوص فى بحر من
الظلمات .. والمدفأة مطفأة ، والساعة سادرة فى دقاتها .

وساور « ايما » عجب غامض لهذا الهدوء الذى يسود كل الأشياء ، بينما يفعم جوفها باضطراب صاخب ! .. وفطنت إلى ان « برت » الصغيرة كانت هناك — بين النافذة ومنضدة الحياكة — تتارجح على حذاءيها المنسوجين باليد (تريكو) ؛ وتحاول أن تسعى إلى أمها لتمسك بأطراف اشرطة مرولتها .. فقالت وهى تنحيها بيدها : « دعينى وشأنى ! » .

على أن الصغيرة لم تلبث ان اقتربت من ركبتى أمها ، فاستندت إليهما بذراعيها ، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد انساب من بين شفتيها خيط صغير من اللعاب اخذ يتساقط على مرولتها الحريرية .. فكررت الشابة فى ضيق : « دعينى وحدى ! » .. وافزع وجهها الطفلة ، فاخذت تصرخ .. ولكزتها الأم بمرفقها قائلة : « هلا تركتنى وحيدة ؟ » .. وسقطت « برت » عند قاعدة الصوان ، فشق مقبض الدرج النحاسى خدها ، الذى شرع ينزف دما . ووثبت مدام « بوفارى » ترفعها ، وقطعت حبل الجرس ، فنادت الخادم باعلى صوتها .. وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر « شارل » ، إذ كانت ساعة العشاء قد حانت ، فعاد إلى البيت ..

وقالت «ايما» فى صوت هادىء : « انظر يا عزيزى ! .. لقد وقعت الصغيرة وهى تلعب ، فجرحت نفسها » .. فطمأنها «شارل» إلى ان الامر ليس خطيرا ، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة (البلاستر) .

ولم تهبط مدام « بوفارى » إلى قاعة الطعام ، إذ رغبت فى أن تخلو للعناية بالطفلة . وإذ اخذت ترقبها وقد

نامت ، زايلها رويدا ما احست به من قلق ، وبدا لها انها كانت غبية وساذجة إذ داخها كل ذلك الانزعاج لامر بسيط كهذا . فالواقع ان « برت » لم تعد تشهق بنهنهة البكاء ، بل ان انفاسها اخذت ترفع فى رفق الغطاء القطنى الذى اسبغته عليها امها .. وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان اجفانها المغمضة ، التى كان المرء يلمح بين اهدابها حدقتين شاحبتين ، غائرتين .. والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدها فى خط منحرف . وعبر خاطر ببال « ايما » فقالت لنفسها : « ايما » يا عجبا ! .. ما اقبح هذه الطفلة ! » .

وعندما عاد « شارل » فى الساعة الحادية عشرة من الصيدلية — حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة — وجد زوجته تقف إلى جوار المهد ، فقال وهو يقبل جبينها : « قلت لك إنها إصابة تافهة ، فلا تنزعجى يا حبيبتى المسكينة ، وإلا أسلمت نفسك للمرض » .. وكان قد مكث طويلا فى بيت الصيدلى ، إذ جهد « هوميه » فى التسرية عنه وتقوية روحه المعنوية ، رغم انه لم يبد كثيرا من القلق والتأثر .. ثم اخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التى يتعرض لها الأطفال ، وعن إهمال الخدم . وكانت مدام « هوميه » على دراية بشىء من هذا ، إذ كان صدرها لا يزال يحتفظ بآثار وعاء ملىء بالحساء الساخن ، اسقطته طاهية على صدر مرولتها فيما مضى ، فتجشم ابواها من أجلها متاعب لما تكد تنتهى ! ومن ثم اصبحت السكاكين — فى منزل الصيدلى — لا تشحذ قط ، والأرض لا تدهن بالشمع ،

وأقيمت قضبان على النوافذ ، وقضبان أخـرى متينة من الحديد أمام المدفأة .. وكذلك أصـبح أبنـاء « هوميه » لا يكادون – رغم حريتهم – يتحركون دون رقيب يرعاهم . وكان أبوهم « يحشوهم » بأدوية الصدر عند أتفه إصابة بالبرد .. كما كانوا – حتى سن الرابعة – يقسرون فى غير إشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر .. وكان هذا تطرفا من مدام « هوميه » فى الواقع ، مما كان يبعث فى نفس زوجهـا قلقا ، إذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على أجهزة الرأس ، حتى لقد كان يقول لها أحيانا : « أتريدين أن تجعلى منهم فرقة من الهنود الحمر أو من قبائل حوض البحر الكاريبى ؟ ! » .

وحاول « شارل » أن يقطع الحديث أكثـر من مرة ، فهمس فى أذن الكاتب : « أود أن أتحدث إليك فى أمر » .. فتقدمه الكاتب صاعدا السلم وهو يسائل نفسه : « أتراه قد حدس شيئا ؟ » .. وأخذ قلبـه يخفق ، وراح يرهق ذهنه بالافتراضـات .. وأخيرا ، رجاه « شـارل » – بعد أن أغلق الباب – أن يسأل بنفسه فى (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة ، إذ كان يود أن يعـد لزوجتـه مفاجأة عاطفية .. لفتة رقيقة تتمثل فى صورة له وهو يرتدى الحلة السوداء . ولكنه أراد أولا أن يعرف كم تتكلف .. وما كان السؤال ليضايق السيد « ليـون » فى شىء ، إذ كان يذهب إلى المدينة فى كل أسبوع تقريبا .

ولكن .. لماذا « ليون » بالذات ؟ ! .. حدس السيد « هوميه » أن وراء المسألة مغامرة من مغامرات الشباب .. أو مؤامرة ! .. ولكنه كان مخطئا ، إذ أن السيد « ليون »

لم يكن يسعى إلى غرام .. بل إنه كان أكثر اكتئابا منه فى أى وقت مضى ، كما لمست ذلك مدام « لوفرانسـوا » من كمية الطعام التى أصبح يتركها فى طبقه . وقد سألت محصـل الضرائب عله يزيدها علما وإيضاحا ، ولكن « بينيه » أجابها فى جفاء بأنه « لا يعمل فى البوليس ! » .

ومع ذلك ، فقد لاح له زميله فى حـال جد غريبة ، إذ كثيرا ما كان « ليون » ينطرح فى مقعده ، ويمد ذراعيه ، ويشـكو من الحياة فى أسـلوب غامض ! .. وقد قـال له المحصل : « إنما يرجع ذلك إلى أنك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية » ..

– أية تسلية ؟

– لو كنت فى مكانك لهويت العمل بالمخرطة ..

قال الكاتب : « ولكنى لا أعـرف كيف أديرها » .. فرد الآخر وهو يحك ذقنه فى مزيج من الترفع والرضا : « آه .. هذا صحيح ! » .

❋ ❋ ❋

● كان « ليون » قد برم بالحب الذى لا غاية له ، ثم بدا يشعر بذلك الضيق الذى يسببه مضى الحياة على وتيرة واحدة متكررة ، دون ما هدف يوجههـا ، أو أمل يعززها . واشتد به الملل من « ايونفيل » وأهلها ، حتى أصبحت رؤيته بعض الأشـخاص والبيـوت ، تثير إلى درجة لم يعـد يتحملها ! .. وقد كان الصيدلى رجلا طيبا ، إلا أنه أصبح لا يطيقه البتة .. ومع ذلك فان التفكير فى نـوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه ! .. وتحولت هذه

الهواجس بعد قليل إلى نفاد صبر ، وإذ ذاك اخذت باريس تناديه ــ على البعد ــ بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة ، وضحكات عاملاتها اللعوبات ! .. وإذ كان لابد له من ان يتم دراسته القانونية هناك ، فلماذا لا يرحل إليها لتوه ؟ .. وما الذى يمنعــه ؟ .. وشرع يعــد متاعه ، ودبر أعماله مقدما ، وأثث فى خياله مســكنا يعيش فيه حيــاة فنان .. فيتلقى دروسا فى العزف على « الجيتار » ، ويقتنى « روب دى شــامبر » ، وقلنســوة على غرار قلنســوات اهــل (الباسك) ، وخفين من المخمل الازرق ! .. بل إنه بــدا يتصــور فى إعجاب سيفين متقاطعين فــوق مدفاة مســكنه وفوقهما « جيتار » تعلوها جمجمة !

وكانت العقبة تنحصر فى الفوز بموافقة أمه .. على انه لم ير ما هو احكم من هذا التدبير .. بل إن رئيسه نفســه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه أن يحرز تقدمــا سريعا فى مرانه ودراسته . وإذ ذاك ، انتهج « ليــون » طريقا وسطا ، فاخــذ يبحث عن مكتب فى (روان) يقبله ككاتب ثان ، فلما لم يجــد ، كتب إلى امه فى النهاية خطابا طويلا مسهبا شرح فيه اسباب مبادرته للرحيل إلى باريس والإقامة فيها .. فوافقت ! .. على انه لم يتعجل .. وظل « هيفير » شهرا باكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيل) إلى (روان) ، ومن (روان) إلى (ايونفيل) صناديق ، وحقائب، وحزما .. حتى إذا أعد « ليون » ثيابه ، وجدد حشو مقاعده المريحة الثلاثة ، واشترى عددا من ربطات العنق ، وقام ــ بالاختصار ! ــ باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حــول

العالم ، اخذ يرجىء سفره من اسبوع إلى آخر ، حتى تلقى من أمه خطابا ثانيا تستــحثه فيه على الرحيــل ما دام قد اعتزم ان يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات .

وعندما حانت ساعة الوداع ، بكت مدام « هوميه » ، وانتحب « جوســتان » ، وأخفى « هوميه » تأثره ــ كرجل قوى الاعصــاب ! ــ ورغب فى ان يحمل بنفســه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذى كان سيقل « ليون » فى عربته إلى (روان) . ولم يتبق لليون سوى لحظــات يودع فيها السيد « بوفارى » . فلما بلغ قمة السلم ، توقف وقد تتابعت انفاسه لاهثة .. وإذ دلف إلى المكان ، نهضت مدام «بوفارى» فى عجلة ، فقال ليون : « ها أنذا مرة أخرى » .. فقالت : « كنت متاكدة من هــذا » .. وعضت شــفتيها ، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت ــ من منابت شعرها حتى طوق ثوبهــا ــ بالحمــرة . وظلت واقفة ، مستندة بكتفها إلى الخشب الذى كان يكسو الجدار .. بينما مضى متسائلا : « هل الطبيب هنا ؟ » .. فاجابت : « انه فى الخارج .. فى الخارج ! » .. ثم سادهما صمت .. واخذ كل منهما يرمق الآخر ، وقد رزحت أفكارهما تحت ألم واحد ، متعانقة كصدرين ينبضان .. ثم قال « ليون » : اود أن اقبل « برت » .. فهبطت « ايمــا » بضــع درجــات ونــادت « فيليسيتيه » .. والقى نظــرة طويلة على ما حــوله من جدران ، وزخارف ، ومدفاة ، وكأنه ينفذ خــلال كل شىء ، ويحمل معه كل شىء ! .. وعادت الخادم تحمل « برت » وهى تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة راسا على عقب ومعلقة فى

خيط . وطبع « ليـون » عدة قبـلات على عنقها وغمغم : « فى رعاية الله ايتها الطفلة المسكينة ! .. استودعك الله ايتها الصغيرة الحبيبة ! .. وداعا ! » .. ثم ردها إلى امها ، فقالت للخادم : « اخرجي بها » .. وبقيـا وحيدين ، وقد اولته مدام « بوفارى » ظهرها ، والصقت وجههـا بزجـاج النافذة .. بينما امسك « ليون » بقلنسوته يضرب بها فخذه برفق ..

وقالت « ايما » : « السمـاء ستمطر ! » .. فأجاب : « لدى معطف » .. قالت : « آه » .. ثم استدارت ، وقد خفضت ذقنها ، فبرز جبينها ، وسقط عليه الضـوء — كما يسقط على قطعة من مرمر — فانحدر حتى حاجبيها ، دون ان يملك المرء ان يحدس ما كانت « ايما » تراه عند الافق ، ولا ما كان يجول فى سريرتها .. وما لبث « ليون » ان تنهد قائلا : « والآن .. وداعا ! » .. فرفعت « ايما » راسـها بحركة سريعة وقالت : « اجل ، وداعـا .. اذهب ! » .. وتقدم كل منهما نحـو الآخر ، ومد يده ، ولكنها ترددت .. ثم قالت وهى تسلمه يدها ، وتغتصب ضحكة : « فليكن على الطريقـة الإنجليـزية إذن ! » .. وتحسـس « ليـون » راحتها بين اصابعه ، ولاح له ان روح كيانه كله قد انسابت إلى يدها الرطبـة .. ثم فتح يده ، وتلاقت اعينهما مـرة اخرى .. ثم اختفى ! .. حتى إذا بلغ السوق ، انحـرف متواريا خلف عمود ، وتزود بنظرة اخيرة من البيت الابيض ذى النوافذ الخضراء .. وخيل إليه انه راى طيفا خلف نافذة حجرة « ايما »، ولكن الستارة انسابت على مشجبها ، وكأن

شخصا اخذ يزحزحها ، فراحت تنسدل رويدا ناشرة ثنياتها الطويلة المائلة ، ثم انبسطت كلها أمام النافذة ، وظلت مسدلة فى استقامة ودون ما حراك ، كجدار من الجص !

وانطلق « ليون » يعدو .. وراى عن بعد عربة رئيسه على الطريق ، وإلى جوارها رجل فى مرولة سميكة ، يمسك بالجواد .. وكان «هوميه» والسيد «جويومان» يتحدثان .. ريثما يصل ! .. وقال له الصيدلى والدموع تترقرق فى عينيه : « قبلنى ! هاك معطفك يا صديقى العزيز .. خذ حذرك من البرد ، واحترس لنفسك .. اعتن بنفسك ! » . وقال موثق العقود : « هيا يا ليون .. اصعد ! » .. وانحنى « هوميه » على « رفرف » العربـة ، ونطق بهاتين الكلمتين الحزينتين بصوت يقطعه النشـيج : « رحلة سارة ! » .. فاجابه السيد « جويومان » : « عم مساء ! » .

وتحركت العربة .. وقفل « هوميه » عائدا .

* * *

● كانت مدام « بوفارى » قد فتحت النـافذة المطلـة على الحديقة واخذت ترقب السحب ، فاذا هى تتجمع حول الشمس الغاربة فى اتجاه (روان) ، ثم تطوى بسرعة ذيولها السوداء ، فتندفع من ورائها خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب فى درع معلقة ، بينما كانت بقيـة السماء خالية ، بيضاء كالخزف .. على ان الريح لم تلبث ان هبت فانحنت هامات شجر الحور ، ثم سقط المطر فجأة ، واخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر فى صـوت مسـموع .. ثم عادت الشمس إلى البزوغ ، فانبعث صوت الدجاج ، واخذت

الطيور تنفض اجنحتها وسط الاعشاب الكثيفة المخضلة ، وحملت المياه معها وهى تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية ..

وحدثت « ايما » نفسها قائلة : « آه ! .. ما ابعد المسافة التى يكون ولابد قد قطعها الآن ! » .

وجاء السيد « هوميه » فى منتصف السابعة ، اثناء تناول العشاء — كعادته — وقال : « لقد ودعنا صديقنا الشاب ! » .. فقال الطبيب : « علمت بذلك » .. ثم دار فى مقعده وقال : « هل من انباء عن الاسرة ؟ » .

— لاشىء يستحق الذكر ، اللهم إلا ان زوجتى كانت متاثرة بعد ظهر اليوم .. انت تعرف النساء .. يتاثرون لاتفه الأمور ولا سيما زوجتى .. ونخطىء لو اننا عارضنا ذلك ، إذ ان جهازهن العصبى أرق من جهازنا !

وقال شارل : « مسكين ليون ! .. ترى كيف سيعيش فى باريس ؟ .. وهل يألفها ؟ » .. فتنهدت مدام « بوفارى » .. وطقطق الصيدلى بلسانه قائلا : « يألفها » ! .. حفلات العشاء فى المطاعم والمراقص التنكرية والشمبانيا .. اؤكد لك ان كل هذا سيحلو له ! » .. فاعترض « بوفارى » قائلا : « ما اظنه سينزلق إلى الفساد » .. فاسرع السيد « هوميه » قائلا : « ولا انا .. وإن كان سيضطر إلى ان يجارى الآخرين خشية ان يظنوه من « الجيزويت » ! وما اراك تعرف اية حياة يمارسها اولئك « الكلاب » من شباب الحى اللاتينى مع الممثلات .. ثم ان الطلبة يحظون بنظرة طيبة فى باريس ، ويكفى أن يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم

فى خير المجتمعات .. بل إن من سيدات حى «سان جيرمان» من يتدلهن فى هواهم ، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جدا ! » .

قال الطبيب : « ولكنى اخشى عليه .. هناك .. » ، فقاطعه الصيدلى قائلا : « اصبت .. هذا هو الجانب الآخر للموضوع . فالمرء هناك مضطر إلى ان يبقى يده فوق جيبه .. انك قد تكون فى حديقة عامة — مثلا — فيتقدم إليك شخص حسن الهندام — وربما كان يحلى صدره بوسام حتى لتحسبه المرء من رجال السلك الدبلوماسى — ويستدرجك ، ويتلطف معك ، ويقدم إليك قبضة من سعوط ، او يلتقط قبعتك إذا وقعت ، ثم يزداد ودا فيصحبك إلى مقهى ، ويدعوك إلى منزله الريفى .. وبين كاسين من النبيذ يقدمك إلى كافة انواع الناس . وفى ثلاثة ارباع الحالات لا يكون ذلك إلا لينشل ساعتك ، او ليورطك فى مازق خبيث ! » .. فقال « شارل » : « هذا صحيح ! .. على اننى كنت افكر بوجه خاص فى الامراض .. حمى التيفويد مثلا ، التى تصيب الطلبة الوافدين من الريف ! » .

وارتعدت « ايما » .. بينما قال الصيدلى : « هذا راجع إلى تغيير نظام الاكل ، وما يترتب عليه من اضطراب فى الجهاز كله .. ثم ، هناك ماء باريس ، الم تسمع عنه ؟ .. وكل تلك الاطعمة التى تقدم فى المطاعم .. كل تلك الاغذية الكثيرة التوابل ، التى تنتهى إلى اشاعة الحرارة فى الدم ، وهى لا تعادل — مهما يقول الناس عنها — حساء طيبا ! .. لقد اعتقدت — شخصيا — ان افضل الطعام البسيط دائما ، فهو

اكثر فائدة من سواه . لذلك اقمت ــ حين كنت ادرس الصيدلة فى (روان) ــ فى نزل خاص (بنسيون) ، وكنت اتناول طعامى مع الاساتذة » .

وهكذا استمر يعرض آراءه ، وميوله الشخصية ، حتى اقبل « جوستان » يدعوه . . فصاح : « اما من لحظة راحة ؟ . . دائما ارانى مشدودا إلى الصيدلية والعمل ! . . او استطيع ان اخرج دقيقة ؟ . . هل اظل اكد واكدح كالحصان المشدود إلى المحراث ! . . يا لها من عبودية » ! . . حتى إذا بلغ الباب ، التفت قائلا : « بهذه المناسبة ، هل عرفتما النبا ؟ » .

ــ اى نبا ؟

اجاب « هوميه » رافعا حاجبيه ، متخذا اكثر مظاهره جدية : « من المحتمل جدا ان الاجتماع الزراعى ــ الذى كان يعقد عادة فى مقاطعة السين السفلى ــ سيعقد هذا العام فى (ابونفيل) . . هذه هى الشائعة المنتشرة . وقد اشارت إليها الصحيفة فى هذا الصباح . وسيكون هذا امرا بالغ الاهمية لمنطقتنا . على اننا سنتحدث عن هذا فيما بعد . . شكرا ؛ إنى ارى طريقى ، فان « جوستان » يحمل المصباح» .

الفصل السابع

● كان اليوم التالى حزينا بالنسبة لايما ، إذ لاح لها كل شىء ملتفا فى جو اسود يطفو فى اضطراب حائر على اسطح الاشياء ومظاهرها . . واخذ الاسى يغوص فى اعماق نفسها فى عواء واهن كالذى تبعثه رياح الشتاء فى القلاع الخربة! . . كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذى تخلعه على الاشياء التى لا رجعة لها ، او الكلل الذى يعتريك بعد الجهد المبذول ، او الالم الذى يسببه جمود حركة معتادة سادرة ، او التوقف الفجائى لاى اهتزاز طال به الامد !

وكما حدث عند العودة من (فوبيسار) ــ حين كانت الرقصات تدور فى رأسها ــ اعترتها كآبة قاتمة ، وقنوط خدر نفسها . . وعاودها طيف « ليون » اطول قامة ، واكثر ملاحة، وفتنة ، وغموضا . . فهو لم يفارقها ، وإن كان قد انفصل عنها . . كان هناك ، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه ! . . ولم تكن تملك ان تحول بصرها عن البساط الذى سار عليه ، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التى كان يجلس عليها . . ولقد ظل النهر ينساب ، ويدفع فى بطء موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة . . كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب، يرافقهما خرير الامواج؟! . . ما كان اشد تالق الشمس إذ ذاك ! . . اية اصائل هانئة شهداها وحدهما فى الظل عند نهاية الحديقة ! . . كان يقرا لها بصوت مرتفع ، وهو عارى الرأس ، وقد جلس فوق مقعد من الاغصان الجافة ، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب

وازهار الخميلة .. اواه ! .. لقد ذهب ! .. فتنة حياتها ، والأمل الوحيد فى السعادة المحتملة ! .. لم لم تقتنص تلك السعادة حين واتتها ؟ .. لم لم تتشبث بها بكلتا يديها ، وكلتا ركبتيها ، حين همت بأن تفر منها ؟ ! .. واخذت تلعن نفسها لانها لم تحب «ليون» .. لشد ما كانت ظامئة إلى شفتيه ! .. واستولت عليها الرغبة فى أن تفر وراءه وتلحق به ، فتلقى بنفسها بين ذراعيه وتقول له : « ها انذى ! .. إننى لك! » .. ولكنها ما لبثت ان تقاعست ازاء صعوبات المغامرة ، ولم تزدد شهواتها — التى ضاعفها الندم — إلا ضراوة !

* * *

● ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى « ليون » محورا لسامها .. كانت تشتعل هناك ، فى ازيز يفوق ازيز نار خلفها المسافرون فوق الجليد ، فى سهول المراعى الروسية ! .. وكانت تقفز نحوه ، وتلتصق به ، وتحرك فى عناء النار المحتضرة وتبحث فى كل ما حولها عن شئ يذكيها ! .. وجمعت ابعد الذكريات ، واقرب المناسبات ، وما خبرته ، وما تخيلته .. وشهواتها العربيدة التى لم تحظ بالاشباع ، ومشروعات السعادة التى تكسرت فى الرياح كما تتكسر الاغصان الذاوية ، وفضيلتها العقيم ، وآمالها المبددة ، والالفة المنزلية .. كل هذا جمعته — دون ان تغفل شيئا — ثم اتخذته وقودا لشجونها !!

على ان اللهب لم يلبث ان خمد ، إما لأن الوقود قد نفد ، أو لأنه تراكم اكثر مما ينبغى . وشيئا فشيئا ، اخذ الحب يخمد بسبب الفراق ، والندم يختنق بحكم الاعتياد ،

ووهج الحريق الذى اشاع فى سمائها الشاحبة لونا قرمزيا يخبو رويدا ! .. وفى غفلة ضميرها ، ظنت ان اشمئزازها من زوجها إن هو إلا تلهف لحبيبها ! .. بيد ان العاصفة ظلت هوجاء .. حتى إذا احترقت الشهوة فصارت رمادا ، دون ان تتلقى عونا ، ودون ان تشرق شمس ، اطبق الليل على المسكينة من كل جانب ، وضلت فى البرد الفظيع الذى كان يخترمها .. ثم عاودتها ذكرى أيام (توست) البغيضة .. واصبحت ترى نفسها اكثر تعاسة ، إذ كانت قد خبرت الحزن، فايقنت انه لن ينتهى !

.. وإن امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات ، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات ! .. وبالفعل ، ابتاعت « ايما » مقعدا قوطيا للصلاة ، وانفقت خلال شهر واحد اربعة عشر فرنكا فى شراء ليمون لتنظيف اظافرها ، وكتبت إلى (روان) فى طلب ثوب من الكشمير الأزرق ، واختارت شالا من ابدع شيلان « لوريه » ، واعتادت ان تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير ، ثم تغلق النوافذ ، وتستلقى فى هذا الزى على اريكة ، وفى يدها كتاب ! .. وكثيرا ما اخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها ؛ فاحيانا تصففه على الطريقة الصينية ، او ترسله فى خصلات رخوة تجدلها فى ضفائر ، أو تفرقه على جانب الراس مقصوصا من اسفل كما يفعل الرجال !

وارادت ان تتعلم الإيطالية فابتاعت معاجم وكتابا فى النحو ، وكمية من الورق الابيض .. وجربت القراءة الجدية

فى التاريخ والفلسفة .. وكان « شارل » يستيقظ مجفلا اثناء الليل احيانا ، ظانا ان احدا يناديه لإسعاف مريض ، فيغمغم : « ها انذا قادم ! » ، ثم يفطن إلى ان ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب اشعلته « ايما » لتوقد المصباح ! .. ولكن قراءاتها لم تكن أسعد حظا من تطريزها .. كلها لم تحظ باكثر من الخيوط الاولى ، ثم كانت تلقى بها فى الصوان ، وتشرع فى تطريز غيرها ، لتلقى بها بدورها .. وهكذا لم تكن تشرع فى قراءة كتاب حتى تطرحه جانبا وتتناول سواه !

وكانت تتولاها نوبات من السهل أن تنساق خلالها إلى ارتكاب اية حماقة .. فقد تحدت زوجها يوما بانها تستطيع أن تشرب كاسا كبيرة من « البراندى » . وإذ كان « شارل » من الحمق بحيث قبل هذا التحدى ، فقد ازدردت ما كان فى الكاس حتى آخر قطرة ! .. وبالرغم من تصرفاتها النزقة — كما كانت ربات البيوت فى (ايونفيل) يصفنها — فان «ايما» لم تكن قط مرحة ، بل كان يحف بجانبى فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذى ينتاب وجوه العوانس ، والرجال ذوى الطموح الخائب ! .. واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الابيض ، واصبح جلد انفها مشدودا عند الفتحتين ، وغدت عيناها ترنوان إليك بنظرات مبهمة .. وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد أن اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء فى مفرقها!

وكثيرا ما كانت تصاب بالإغماء ، حتى بصقت دما ذات يوم . وعندما اخذ « شارل » يروح ويجىء حولها فى اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : « آه ! .. وما اهمية هذا ؟ » .. فاسرع « شارل » إلى مكتبه وانخرط فى البكاء ، وقد اتكا

بمرفقيه على مكتبه وهو جالس فى مقعده تحت صورة الجهاز العصبى .. ثم كتب لأمه يسالها أن تحضر ، وراحا يعقدان معا الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الراى بشان « ايما » .. ما الذى ينبغى ان يتخذاه .. ما الذى ينبغى فعله ما دامت ترفض كل علاج طبى ؟ .. وقالت مدام « بوفارى » الأم : « أتعرف ما الذى يلزم لزوجتك .. إنها تحتاج إلى ان تنهمك فى عمل يدوى يشغلها .. ولو انها كانت مضطرة — ككثيرات غيرها — إلى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الاوهام التى تواتيها من كثير من الافكار التى تحتشد بها راسها ، ومن البطالة التى تعيش فيها » .. فقال « شارل » : « ولكنها دائما مشغولة » .

— آه ، حقا .. مشغولة بماذا ؟ .. قراءة الروايات ، والكتب الرديئة ، والمؤلفات الموضوعة ضد الدين ، والتى يسخر مؤلفوها من القسس باقوال مقتبسة عن «فولتير» ؟ .. كل هذا يشتت العقل يا بنى المسكين ! .. اى إنسان بلا دين لا بد ان ينتهى اسوا نهاية !

.. ومن ثم استقر الراى على منع « ايما » من قراءة الروايات .. ولم يكن الامر هينا ، ولكن السيدة تعهدت بالامر ، فرؤى ان تذهب بنفسها إلى متعهد الكتب — عند مرورها بروان — فتخبره بان « ايما » اوقفت اشتراكها .. ترى ، اليس لهما الحق فى ان يلجا إلى البوليس إذا اصر صاحب المكتبة — رغم ذلك — على المضى فى تجارته التى تسمم العقول ؟ !

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاترا .. لم تكونا خلال الاسابيع الثلاثة التى قضيتاها معا قد تبادلتا ست كلمات، فوق الأسئلة والعبارات التى كانتا تتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء إلى الفراش بالليل .. ثم رحلت مدام « بوفارى » الكبيرة فى أحد ايام الاربعاء ، التى تعقد فيها سوق (ابونفيل) .. وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ بصف من العربات التى امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة إلى الفندق ، وقد ارتكزت على مؤخراتها ، وارتفعت اذرعها فى الهواء .. وعلى الجانب الآخر ، كانت ثمة خيام تباع فيها الأقمشة القطنية والاغطية ، وجوارب الصوف مع سروج الخيل ، ولفائف الاشرطة الزرقاء التى تتطاير اطرافها مع الريح .. وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل اهرامات ، واقراص الجبن التى يبرز منها قش لزج .. وإلى جوار آلات درس القمح ، كان الدجاج ينقنق فى أقفصة منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان .. والجمهور متجمع فى مكان واحد ، لا يبغى عنه انتقالا ، حتى لقد كان يوشك احيانا ان يهشم واجهة الصيدلية التى كانت لا تخلو ابدا فى ايام الاربعاء من الذين كانوا يقبلون طلبا للمشورة الطبية اكثر منهم لشراء ادوية ، نظرا لما كان للسيد « هوميه » من صيت ذائع فى القرى المجاورة ، حيث فتن الريفيون بقوة اعتداده بنفسه ، فكانوا يعتبرونه اعظم الأطباء طرا !!

وكانت « ايما » تتكىء على حافة النافذة ، على نحو ما كانت تفعل فى كثير من الاحيان .. فالنافذة تحل فى الريف محل المسرح والنزهة .. وفيما هى تتسلى بمشاهدة حشد من

الاجلاف ، رأت سيدا فى « ردنجوت » من المخمل الأخضر ، وفى يديه قفازان اصفران ، وقد غطى حذاءيه بزوج من « جيتر » سميك .. وكان يسعى نحو منزل الطبيب ، يتبعه فلاح يسير مطاطىء الرأس ، بادى الاستغراق فى التفكير .. وقال الرجل يسأل « جوستان » — الذى كان يتحدث إلى « فيليسيتيه » عند درجات المدخل — وقد ظنه خادما فى المنزل : « هل أستطيع ان اقابل الطبيب ؟ .. قل له : إن السيد «رودولف بولانجيه» من (لاهوشيت) هنا » .. وما قرن اسمه بـ « لاهوشيت » من قبيل النعرة الاقليمية ، وإنما زيادة فى التعريف بنفسه .. والواقع ان (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ابونفيل)، ابتاع السيد « رودولف » قصرها ، ومزرعتين منها يستطيع أن يزرعهما بنفسه ، ولكن دون أن يجشم نفسه كثير عناء . وكان يعيش أعزب .. وقيل : إن دخله بلغ «خمسة عشر الفا من الفرنكات فى العام ، على الأقل ! » .

واقبل « شارل » على الغرفة ، فقدم إليه السيد « بولانجيه » رفيقه الذى كان يريد ان يفصد لأنه كان يحس « بتنميل يسرى فى كل جسمه » ! .. وقال الرجل يعارض كل حجة : « لسوف يطهرنى هذا » .. ومن ثم امر « بوفارى » بضمادة ووعاء سأل « جوستان » ان يمسكه له ، ثم قال للفلاح الذى شحب لونه : « لا تخف يا بنى ! » .. فقال الآخر : « لا .. لا ، يا سيدى .. هيا » .. وفى تظاهر بالجراة ، مد ذراعه الضخمة .. وبوخزة من المبضع ، انبثق الدم ملطخا المرآة ، فهتف شارل : « قرب الوعاء » .. بينما قال الفلاح :

« يا الهى ! .. ان المرء ليحسبها نافورة صغيرة .. ما اشد حمرة دمى ! .. إنها دلالة طيبة .. اليست كذلك ؟ ! » .

فقال الطبيب : « ان المرء لا يشعر بشىء فى البـداية ــ احيانا ــ ثم يوانيه الاغماء فيما بعد ، لا سيما ذوى البنية القوية كهذا الرجل ! » .. وعند هذه الكلمات ، افلت الفلاح الكيس الذى كان يعبث به بين اصابعه .. وطقطق ظهر المقعد إذ سرت فى كتفيه رعدة .. وسقطت قبعته ، فقال « بوفارى » وهو يضغط الوريد باصبعه : « لقد توقعت هذا » .. واخذ الوعاء يهتز بين يدى « جوستان » ، وارتجفت ركبتاه ، وشحب لونه ، فنادى شارل : « ايما ! .. ايما ! » .. وهبطت السلم فى وثبة واحدة ، فصاح : « بعض الخل .. يا الهى ! .. اثنان فى وقت واحد » .. وتعذر عليه ــ لفرط انفعاله ــ أن يضـع الكمادة !

وقال السيد « بولانجيه » فى هدوء وهو يمسك بذراع « جوستان » ويجلسه على المائدة وظهـره إلى الحـائط : « ما هذا بشىء ! » .. وراحت مدام « بوفارى » تخلع عنه رباط رقبته .. وانعقد الشريط الذى يضم فتحة قميصـه ، فظلت دقائق تحرك اصابعها الرقيقة حول عنق الفتى ، ثم سكبت بعض الخل على منديلها « الباتيسـته » ، وربطت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق .. وما لبث الفلاح ان افاق ، ولكن إغماء « جوستان » طال ، واختفت حدقتاه فى بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء فى اللبن .. فقال شارل : « يجب ان نخفى هذا عنه » ، فتناولت مـدام « بوفارى » الوعاء لتضعه تحت المائدة .. وإذا تحـركت

منحنية ، انتشر حولها ــ على بلاط الغرفة ــ ثوبها . وكان ثوبا صيفيا اصفر ، ذا اربعة « كرانيش » وخصر طويل وذيل واسع .. وترنحت « ايما » قليلا وهى منحنيـة فبسـطت ذراعيها ، فالتف القماش حول صدرها ، مبينا قسماته .. ثم ذهبت لتحضر ابريق ماء . وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه ، وصل الصيدلى ، وكانت الخادم قد ذهبت فى غمـرة الارتباك لاستدعائه . وما إن راى عينى تلميذه تحملقان ، حتى تنفس الصعداء ، ثم ذهب إليه فحدق فيه من راسه إلى قدمه وقال : « مغفل ! .. مغفل كبير ! .. مغفل بالثلث ! .. كانى بالحجامة عملية خطيرة ، اليس كذلك ؟ ! .. افهكذا يتحول الصنديد الذى لا يخشى شيئا إلى سنجاب من النوع الذى يتسلق الى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البنـدق ! .. اى نعم ، تكلم واطنب مزهوا فى مدح نفسك ! .. يا لها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلة فيما بعد ! .. إنك قد تستدعى فى ظروف خطيرة إلى المحاكم لتنير اذهان القضاة ، وإذ ذاك يتحتم عليك ان تحتفظ برباطة جاشك وقوة حجتك ، وان تظهر بمظهر الرجل .. وإلا كنت ابله ! » .

ولم يجب « جوستاف » ، فاستطرد الصيدلى : « من سالك ان تحضر ؟ انك لتثقل دائما على السيد والسيدة ، فضلا عن اننى لا استغنى عنك فى ايام الاربعاء ، ففى الحانوت الآن عشرون شخصا ، وقد تركت كل شىء وحضرت نظرا لاهتمامى بامرك . فهيا ، انهض .. اسرع ! .. عجل ! .. انتظرنى هناك ، وانتبه للقوارير » .. وما إن انصرف « جوستان » ــ بعد ان سوى ثيابه ــ حتى اخذوا يتحدثون بعض الوقت

عن نوبات الاغماء ، فزعمت مدام « بوفارى » انها لم تفقد قط وعيها .. فقال السيد « بولانجيه » : « هذا عجيب بالنسبة لسيدة ! .. على ان بعض الناس شديد الحساسية ، فقد رايت — فى إحدى المبارزات — شاهدا يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات ! » .

وقال الصيدلى : « ان مرأى دماء الغير لا تؤثر فى — شخصيا — على الاطلاق ، ولكن مجرد التفكير فى ان دمى يسيل كاف لان يفقدنى الوعى .. لو تماديت فى التفكير ! » .. وعندئذ سرح السيد « بولانجيه » خادمه ، موصيا إياه بان يهدىء من جاشه بعد أن تخلص من وهمه . ثم اضاف : « إنه قد اتاح لى فرصة التعرف بكم » .. ونظر نحو « ايما » إذ قال ذلك ، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة ، وانحنى فى غير اكتراث ، وانصرف . وسرعان ما كان منطلقا على الضفة الأخرى للنهر ، فى طريقه إلى (لاهاشيت) .. ورأته « ايما » يسير فى المرعى تحت اشجار الحور ، وهو يتمهل بين آن وآخر ، كما لو كان يفكر .

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر : « إنها لطيفة جدا .. لطيفة جدا .. زوجة الطبيب هذه ! .. اسنان بديعة ، وعينان سوداوان ، وقدم صغيرة ، وقوام كقوام الباريسيات .. من اين جاءت بحق الشيطان ؟ .. من اين التقطها هذا الرجل البدين ؟ » .

وكان « رودولف بولانجيه » فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ذا مزاج عنيف ، وذكاء نافذ ، وقد خالط كثيرا من

النساء حتى غدا خبيرا بهن ، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة ، فراح يفكر فيها وفى زوجها .. ويقول لنفسه : « اعتقد أنه مغفل ، وأنها قد سئمته ولا ريب ، فان اظافره قذرة ، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة ايام . وبينما ينطلق لعيادة مرضاه ، تعكف هى على رتق الجوارب ، فلا تلبث ان تسأم ! .. ولابد انها تتوق لسكنى المدينة ، ورقص « البولكا » كل مساء .. يا للمرأة المسكينة ! .. كانى بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء فوق مائدة المطبخ ! .. وان ثلاثا من كلمات الغزل لكافية لان تجعلها تعبد المرء . إننى واثق من ذلك ! .. ولسوف تكون رقيقة ، فاتنة .. اجل ، ولكن ، كيف السبيل إلى التخلص منها بعد ذلك ؟ » .

غير ان متاعب اللذة التى تراءت له جعلته ينقلب إلى التفكير فى عشيقته على سبيل المقارنة .. كانت ممثلة فى (روان) ، وقد استخلصها لنفسه واخذ يعولها . وما إن اخذ يتأمل صورتها — على صفحة ذاكرته — حتى احس بجذوة رغبته تخمد .. فقال لنفسه : « آه ! .. ان مدام بوفارى اجمل ، واكثر نضرة بوجه خاص .. فلقد بدأت فرجينيا تميل للبدانة بالتاكيد .. وهى امراة من العسير ارضاء رغباتها .. ثم إنها ذات ولع جنونى ببراغيث البحر (الجمبرى) !!» .

ولما كانت الحقول خالية من الناس ، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الاعشاب إذ تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة .. وصرخة جرادة تختفى بين الشوفان بعيدا .. وعاد يتمثل صورة « ايما » فى الحجرة ، وفى الثوب

الذى رآها فيه .. ثم شرع يخلع عنها ثيابها فى خياله ! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربــة من عصـــاه : « آه .. لسوف انالها ! » .. وشرع لفوره يدرس الأسلوب « السياسى » للمغامرة ، فساءل نفسه : « اين نلتقى » ؟ .. وباى الوسائل ؟ .. لسوف تضايقنا دائما الطفلة ، والخادم ، والجيران ، والزوج ، وكل هذه الهموم . اف ! .. ان المرء معرض لأن يضيع كثيرا من الوقت فى كل ذلك » .. ثم عـاد يقول : « إن لها فى الحق عينين تخترقان قلب المرء كالبريمة .. ويالشحوب بشرتها ! .. إننى أعبد الشاحبات ! » .

وعندما بلغ قمة تلال (ارجى) ، كان ذهنه قد استقر على أمر ، فقال : « لم يبق إلا تصيد الفرص . حسنا ، لسوف اقدم على زيارتهم بين آن وآخر .. وسارسل لهم بعض الصـيد والدواجن ، وساطلب « حجامة » لنفسى لو استدعى الأمر .. ولن نلبث ان نغدو اصدقاء ، فادعوهم إلى منزلى » .. ثم اضاف : « مرحى ! .. ان المعرض الزراعى عما قـريب ، ولسوف تزوره فاراها هناك .. ولنبدا فى جراة ، فهذه أضمن الطرق ! » .

الفصل الثــامن

● حان اخيرا موعد المعرض الزراعى الذى ذاع ذكره .. وفى صباح يوم الافتتاح ، وقف جميع اهــل (ايونفيل) على ابوابهم يتحدثون عن الاستعدادات .. كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب ، واقيم سرادق فى احد المروج للمادبة .. وامام الكنيسة — فى وسط الميدان — نصب مدفع من النوع الذى يحدث فرقعة ، لاعلان وصول مدير المقاطعة ، وتحية اسماء المزارعين الفائزين بجوائز . ووفد الحـرس الوطنى من (بوشى) — إذ لم يكن فى (ايونفيل) حرس — اينضم إلى فريق رجال الاطفاء الذين كان « بينيه » يراسهم .. وقد ارتدى فى ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية ، وشدت الأزرار سترته حول جسمه إلى درجة احالت جذعه إلى كتلة متيبسة لا تتحرك ، فبدا كما لو كان الجزء الحى من جسمه كله قد هبط إلى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان فى خطوات رتيبة على إيقاع واحد .. ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطنى ، فقد اخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله — على حدة — ليظهر مواهبه .. فكان المرء يرى الأشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب ، دون ان يكون لهذا العرض من نهاية ! .. ابدا لم ير فى قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا !

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم فى المساء السابق ، وتدلت الاعلام الثلاثية الالوان من النوافذ المنفرجة المصاريع .. وازدحمت الحانات جميعا .. وفى الجو

— الذى كان صحوا — بدت الياقات المنشاة ، والصلبان المذهبة ، والأوشحة الملونة ، انصع بياضا من الثلج فى ضياء الشمس ، فكانت تخفف بتباينهـا وتناثرها من اطراد حلكة « الردنجوت » والملابس الشعبية الزرقاء .. وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن — إذا ما ترجلن عن جيادهن — الدبابيس الكبيرة التى كانت تثبت ذيول ثيابهن حول اجسامهن ، إذ كن قد رفعنها خشية الوحل .. فى حين كان الأزواج ، من ناحيتهم ، ينشرون حول قبعاتهم — حماية لها — مناديل امسكوا اطرافها بين اسنانهم .

واخذت الجماهير تتوافد من مختلف انحاء القرية على الشارع الكبير ، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت . ومن وقت لآخر ، كان المرء يسمع ارتطام الأبواب وهى تغلق وراء النسوة اللاتى يخرجن من دورهن — وقد ارتدين قفازاتهن — يسعين إلى مشاهدة الاحتفال .. وكان اشد ما حاز الإعجاب، حاملان طويلان زخرا بالمصابيح ، وقد حفا بمنصة اعدت لجلوس ذوى النفوذ . وإلى جانب ذلك ، اقيمت حول اعمدة دار البلدية اربع قوائم تحمل كل منها علما صغيرا من قماش يميل لونه إلى الخضرة ، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية .. وقد كتب على العلم الاول : « إلى التجارة » ، وعلى الثانى : « إلى الزراعة » ، وعلى الثالث : « إلى الصناعة » ، وعلى الرابع : « إلى الفنون الجميلة » .

وكان الحبور الذى اشرقت به الوجوه جميعا قد انقلب تجهما على وجه مدام « لوفرانسوا » ، صاحبة الفندق . إذ راحت تتمتم لنفسها ، وهى واقفة على درجات مطبخها :

« يا للحماقة ! .. يا للسخف ! .. هذا السرادق من القماش السميك الخشن (المشمع) ! .. او يظنون ان مدير الاقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك ؟!.. او يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة ؟ .. إذن، ففيم كان استدعائى « المرمطون » من (نيوشاتل) ! .. ولمن ؟ .. لرعاة البقر ! .. للحفاة ! » .. ومر بها الصيدلى إذ ذاك ، وكان يرتدى سترة سوداء ، وبنطلونا من المخمل القطنى ، وحذاءين من نسيج الفراء .. ومن العجيب انه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة !

وقال «هوميه» لصاحبة الفندق : « ايذنى لى ! .. معذرة ، فانى على عجل ! » .. وإذ سالته الارملة البدينة إلى اين هو ذاهب ، اجاب : « إن الأمر يبدو لك غريبا .. اليس كذلك؟.. انا الذى اظل حبيسا فى معملى اكثر من فار الرجل فى جبنه!».. فسالته : « اى جبن ؟ » .. فتابع حديثه قائلا : « آه ، لا شىء! لا شىء ! .. إنما اردت ان انبئك يا مدام لوفرانسوا باننى اعيش فى بيتى عادة كالناسك . اما اليوم ، فمن الضرورى ، بحكم الظروف ... » ، فقاطعته فى ازدراء : « آه .. انت ذاهب إلى هناك ! » ، فاجاب الصيدلى فى دهشة : « اجل ، انا ذاهب .. او لست عضوا فى اللجنة الاستشارية ؟ » ..

وحدقت فيه الأم « لوفرانسوا » بضع لحظات ، ثم قالت فى النهاية وهى تبتسم : « هذا وضع آخر ! ولكن ، فيم تهمك الزراعة ؟ اتفهم فيها شيئا ؟ » .

— بالتأكيد .. إننى افهمها ما دمت صيدليا .. اى كيميائيا . فان غاية الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هى معرفة التفاعل

الجزئى والتأثير المتبادل بين كافة الأجسام الطبيعية ، ومن ثم فان الزراعة تدخل فى نطاقها . والواقع أن تركيب السماد ، وتخمر السوائل ، وتحليل الغازات ، وتأثير التعفن .. إننى لأسالك ما هذا كله ؟ .. اليس هو الكيمياء فى انقى وابسط مظاهرها ؟ !

ولم تجب صاحبة الفندق ، فاستطرد « هوميه » قائلا :
« هل تظنين انه لا بد للمرء من ان يحرث الارض او يربى الدواجن ويسمنها بنفسه لكى يكون من رجال الزراعة ؟ .. ان الاكثر ضرورة هو ان يعرف تركيب المواد التى تتعلق بالزراعة .. الخواص الجيولوجية ، والعوامل الجوية ، ونوع التربة ، والمعادن ، والمياه ، وكثافة الأجسام المختلفة ، وخاصية الجاذبية الشعرية — التى يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات — وما إلى هذا .. كذلك يجب ان يكون المرء على إلمام تام بمبادىء الصحة كى يتولى التوجيه ونقد العيوب فى إنشاء المبانى ، وتغذية الحيوان ، وتغذية الخدم . وفوق ذلك يا مدام « لوفرانسوا » ، يجب ان يكون المرء على دراية بعلم النبات ، وان يستطيع ان يميز بين النباتات كما تعلمين .. فيعرف ايها الصحى المفيد ، وايها الضار ! .. ايها لا ينتج ، وايها ذا القيمة الغذائية .. وهل من المفيد ان نقتلعها من هنا ونعيد زرعها هناك ، وان نستكثر بعض الأنواع ، ونقضى على البعض الآخر .. وبالايجاز ، يجب ان يظل المرء متتبعا للعلم عن طريق النشرات والصحف العامة ، وان يكون يقظا ليتعرف التحسينات .. » .

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن « المقهى الفرنسى » ،

بينما مضى الصيدلى قائلا : « انى لأدعو الله ان يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين ، او ان يولوا مجالس العلم اهتماما ، على الأقل .. فأنا مثلا قد ألفت اخيرا كتيبا لا بأس به .. مذكرة فى اكثر من اثنتين وسبعين صفحة ، بعنوان : « شراب التفاح (السيدر) ، صنعه وتأثيره .. مع بعض الأفكار الجديدة فى الموضوع » .. وارسلتها إلى الجمعية الزراعية فى (روان) ، فكانت سببا فى « ان حظيت بشرف الانضمام إلى عضويتها .. فى قسم الزراعة ، وفى الفرع الخاص بزراعة الفواكه . ولو ان مؤلفى هذا اتيح للجمهور .. » .

على أن الصيدلى امسك هنا عن الكلام ، إذ بدا ان مدام « لوفرانسوا » كانت فى شغل عنه .. ثم قالت اخيرا : « الا انظر إليهم ! .. شيء غير مفهوم ! .. هذه الحانة الحقيرة ! » .. وهزت كتفيها فى حركة ازاحت عن جسمها الصدار الصوفى (التريكو) ، واشارت بكلتا يديها إلى حانة منافسها ، التى كانت تنبعث منها اصوات تغنى .. ثم اضافت قائلة : « لن يدوم هذا امدا طويلا ، على اية حال ، وسينتهى كل شيء قبل اسبوع » .. فتراجع « هوميه » مذهولا ، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس فى اذنه : « ماذا ! او لا تعلم هذا ؟ .. هناك حجز سيوقع فى الأسبوع المقبل ، و « لوريه » هو الذى سيتسبب فى بيع الحانة ، إذ قضى عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات) .. » ، فصاح الصيدلى الذى كان يجد دائما من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها : « يا لها من نكبة مفزعة ! » .

إذ ذاك شرعت ربة الفندق تروى له القصة التى كانت

قد سمعتها من « تيودور » ــ خادم السيد « جويومان » ــ ومع انها كانت تبغض «تيلييه » ، إلا انها راحت تنحى باللوم على « لوريه » واصفة إياه بانه غشــاش ، دنىء ! .. وقالت : « ها هو ذا ! .. انظر إليه ، إنه فى الســوق ، ينحنى لمدام « بوفارى » التى ترتدى قبعة خضراء . عجبا ، انها تأخــذ بذراع السيد بولانجيه» .. فهتف هوميه : «مدام بوفارى ! .. يجب ان اذهب فورا فاقدم لها احتراماتى .. لعلها ستسر جدا بان تحصل على مقعد فى الحلبة ، تحت الرواق » .. ولم يلق الصيدلى بالا إلى الأم « لوفرانسوا » التى اخذت تناديه لكى تسهب له فى القصص ، بل ابتعد فى خطوة سريعة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وقد شد عرقوبيه ، وراح يسخو فى الانحناء يمنة ويسرة موزعا التحيات ، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه ، شاغلا فراغا كبيرا .. لكن « رودلف » لمحه من بعيد ، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه ، ولكن انفاس مدام «بوفارى» تقطعت، فاضطر إلى ان يتباطأ ، وقال فى لهجة جافة وهو يبتسم : « ما هذا إلا لكى نفر من هــذا الرجل البدين .. الصيدلى ، كما تعلمين ! » .. فضغطت مرفقه .. فسألها وهو يرمقها من طرف عينه : « ما معنى هذا ؟ » .. وكانت صفحة وجهها هادئة ، لا تنم عن شىء ، وقد برزت من إطار قلنسوتها البيضاوية الشكل ، التى كانت مزدانة باشرطة باهتة تشبه اوراق البوص، وكانت عيناها ــ باهدابهما الطويلة المقوســة ــ تنظــران إلى الامام فى خط مستقيم . ومع انهما كانتا مفتوحتين على وسعهما ، إلا انهما لاحتــا متواربتين بعض الشىء ، كمــا لو كــانت وجنتاهــا

تدفعانهما ، وقــد راح الــدم يسرى برفق تحت بشرتهمــا الرقيقة .. وعلى طول الحاجز الذى كان يتوســط فتحتى انفهــا ، امتد خط وردى . وكان راســها يميل على احدى كتفيها ، كما كانت الأطراف اللؤلؤية لأسنانها البيضــاء ترى من بين شفتيها !

وسأل « رودولف » نفسه : « أتراها تسخر منى؟ » .. غير ان الحركة التى بدرت من « ايمــا » لم تكن ترمى إلا إلى تنبيهه . فقد كان السيد « لوريه » يرافقهما ، وكان يتكلم بين آن وآخر ، وكأنه يود أن يندمج معهما فى الحديث .. وما لبث ان قــال : « يا له من يوم رائع ! .. لقــد غــادر الجميع دورهم ! .. إن الرياح تهب من الشرق ! » .. ولم ترد عليه مدام بوفارى ولا رودولف بشىء ، بينما كان هو يقترب منهما عند اية حركة تبدر منهما ويقــول : « معذرة ! » ، ويــرفع قبعته ! .. حتى إذا بلغــوا منزل البيطــار ، لم يمضوا فى الطريق العامة حتى الحاجز ، بل انحرف رودولف فجاة إلى طريق ضيقة ، ساحبا معه مدام بوفارى ، وهو يهتف : « عم مساء يا مسيو لوريه ! .. إلى اللقاء ! » .

وقالت «ايما» ضاحكة : « ما ابرع ما تخلصت منه ! » .. فعقب قائلا : « ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لان يثقل عليه الآخرون ؟ .. ولما كنت اليوم سعيدا بان اكون معك ... » .

وتضرج وجه « ايما » .. ولم يتم رودولف عبارته ، بل تحول يتحدث عن جمال الجو ، ولذة السير على العشب .. وكانت بعض زهرات « المرجريت » قد استوت على سيقانها فقال : « ها هى ذى بعض زهور المرجريت البديعة تبشر بعيد

الفصح .. وها هو ذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لكافة
العذارى العاشقات فى المنطقة ! » .. ثم اضاف : « هل
اقتطف بعضها ؟ .. ما رايك ؟ » .. فسعلت قائلة : « وهل
انت عاشق ؟ » .. فاجاب رودولف : « ا .. ا .. من
يدرى ؟ ! » . وكان المرج يمتلىء ، وربات البيوت يزاحمنك
بمظلاتهن الكبيرة ، وسلالهن ، واطفالهن .. وكثيرا ما كان
المرء يضطر إلى افساح الطريق لصف طويل من الريفيات او
الخادمات ممن يلبسن جوارب زرقاء ، واحذية مسطحة
النعال ، وخواتم من الفضة .. وتفوح منهن — إذ ما مر المرء
بالقرب منهن — رائحة اللبن ! .. وقد سرن متشابكات
الأيدى ، شاغلات عرض الميدان .. من اشجار الحور إلى
سرادق الاحتفال ! .. وكان موعد فحص المعروضات قد
حان ، فاخذ الفلاحون يدخلون — واحدا بعد آخر — إلى
ما يشبه حلبة للسباق ، يحدها حبل طويل شد إلى عصى ..

وكانت الماشية تربض هناك وانوفها موجهة نحو الحبل ،
وقد اصطفت فى مجموعات غير متساوية ولا منظمة . وخياطم
الخنازير المتثاقلة مدسوسة فى الأرض ، والعجول تخور ،
والنعاج تثغو ، والأبقار تمد بطونها على النجيل وقد ثنت
سيقانها تحتها ، وهى تجتر فى بطء ، وجفونها الثقيلة تختلج
من الذباب الذى كان يحوم حولها فى طنين . والحوذية قد
شمروا عن سواعدهم يشدون اعنة الجياد الجامحة التى
راحت تصهل — منتفخة الخياشيم — وهى تنظر نحو إناثها
التى وقفت هادئة ، تمد اعناقها ، واعرافها متدلية ، بينما
كانت صغارها مستكينة فى ظلالها، تقبل على الرضاع منها بين

آن وآخر ! .. وفوق هذا الخضم الزاخر من الاجسام
المكدسة ، كانت ترتفع فى الهواء اوراق بيضاء كانها
الموجات ، او تبرز قرون حادة ، او رؤوس رجال يجرون
حولها .. وخارج الحلبة ، وقف — على بعد نحو مائة خطوة —
ثور اسود ضخم ، مكمم فى انفه بحلقة من حديد .. وهو
لا يتحرك ، كانه صيغ من البرونز ، بينما امسكه بحبل اطفال
فى اسمال مهلهلة ..

وسار بين الصفين اعضاء اللجنة بخطى ثقيلة ، يفحصون
كل حيوان ، ثم يستشير كل منهم الآخر فى صمت خفيض ، وقد
اخذ واحد منهم — كان يبدو اهم من الآخرين مكانة — فى تدوين
بعض الملاحظات من وقت إلى آخر .. ذاك كان السيد
« ديروزيراى دى لابانفيل » ، رئيس المحكمين .. وما إن
راى رودولف حتى اسرع متقدما منه ، وابتسم فى ود قائلا :
« ما هذا يا سيد بولانجيه .. اتتخلى عنا ؟ » .. فاعتذر
رودولف بانه قد وصل لتوه ، ولكن ، ما إن انصرف الرئيس
حتى قال لايما : « لعمرى ! .. لن اذهب ، فان صحبتك خير
من صحبته ! » .. وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة —
ليمر فى يسر — وهو يسخر من المعرض .. وكان يقف احيانا
امام حيوان بديع ، لا يروق لمدام بوفارى على الاطلاق . وإذ
فطن إلى ذلك ، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات
(ايونفيل) وازيائهن ، ثم انقلب يعتذر عما فى زيه من إهمال ،
إذ كان خليطا من المبتذل والأنيق معا ، يرى فيه عامة الناس
دليلا على غرابة فى الطباع ، واضطراب فى الإحساس ، ومغالاة
فى الفن ، و — دائما — نوعا من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية

المألوفة ، مما يفتنهم او يغيظهم! . . من ذلك ان قميصه كان من « الباتيستة » ، تكثر الثنيات عند معصمي كميه . . وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذى كان يتسلل من فتحة صدار من التيل الرمادى . . وكان ساقا سرواله ذى الخطوط العريضة يكشفان عند الكعبين عن حذاءين من « الشمواه » الذى تتخلله اجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليها صور العشب . . وكان يطأ بهذين الحذاءين روث الخيل وقد دس احدى يديه فى جيب من سترته ، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانبا . .

وعاد يتابع الكلام قائلا : « ثم إن المرء حين يكون مقيما فى الريف . . » ، فقالت ايما : « انها مضيعة للوقت » ، فاجاب : « هذا حق . . تصورى ان احدا من هؤلاء الناس لا يستطيع ان يفهم، حتى طراز سترته ! » . . ثم دار الحديث عن الريف الكئيب ، وما يضيع فيه من أعمار ، وينهار من آمال . . فقال رودولف : « لهذا السبب تغمرنى الكآبة » . . فعقبت مذهولة : « أنت ! ؟ . . ظننتك شديد المرح ! » .

— آه . . اجل . هكذا ابدو ، لاننى اعرف كيف اخفى وجهى وراء قناع ساخر ، وسط المجتمع . . ومع ذلك ، فكم ساءلت نفسى حين كنت ارى مقبرة فى ضوء القمر : أليس من الخير ان اشارك اهلها فى سباتهم !

فهتفت : « اواه ! . . واصدقاؤك ؟ . . الست تفكر فيهم ؟ » . . فقال : « اصدقائى ! . . اى اصدقاء ؟ . . هل لى أصدقاء ؟ . . من يحفل بى ؟ » . . واردف بصفير خافت من بين شفتيه . . وما لبثا ان اضطرا إلى الانفصال ، كل عن

الآخر ، بسبب حمل كبير من المقاعد كان احد الرجال يرفعه خلفهما . . وكان من الكثرة بحيث لم يكن فى وسع الرجل ان يرى مقدم حذاءيه الخشبيين ، او نهاية ذراعيه المبسوطتين . وكان هذا الرجل هو « ليستيبودوا » ، حفار القبور ، وقد حمل مقاعد الكنيسة ، واخذ يجوس بين الناس ، إذ كان نشيط الذهن فى كل ما يعود عليه بالنفع ، وقد فطن إلى هذه الطريقة للافادة من المعرض ، وصادفت فكرته نجاحا ، إذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدرى أيها يجيب ، والواقع ان القرويين الذين برح بهم التعب ، اخذوا يتشاجرون من اجل هذه المقاعد التى كان عبير البخور يفوح من قشها ، ويضطجعون على مساندها السميكة — المتسخة بدهن الشموع — فى زهو وخيلاء !

وعادت مدام بوفارى فامسكت بذراع رودولف الذى كان ماضيا فى الحديث ، وكأنه يكلم نفسه : « اجل ، كم اضعت من اشياء . . فأنا وحيد على الدوام ! . . آه ، لو كان لى هدف فى الحياة ! . . لو اننى لقيت شيئا من الحب . . لو اننى التقيت بشخص يعطف على ! . . ما كان احرانى إذ ذاك ان ابذل كل ما اوتيت من طاقة ، وان اذلل كل شىء ، وان اتغلب على كل شىء ! » . . فقالت : « ومع ذلك، انك لا تبدو فى حال تدعو للرثاء ! » . . قال : « آه . . أو هذا ظنك بى؟ » . . فاستطردت قائلة : « لانك قبل كل شىء ، حر . . . » ، وترددت ، ثم اردفت : « وغنى ! » . . فاجاب : « لا تسخرى منى » . . وبينما كانت تؤكد انها لا تسخر ، دوت طلقة مدفع ، فاذا الجميع ينطلقون متدافعين فى هرج نحو القرية . .

ولكن التنبيه كان كاذبا ، فان مدير الاقليم لم يكن قد حضر ، وشعر اعضاء لجنة التحكيم بالحيرة ، إذ كانوا لا يدرون أيبدءون الحفل ، أم ينتظرون أمدا آخر ..

— وأخيرا ، ظهرت فى اقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة — من الطراز المغلق الجوانب — يجرها جوادان هزيلان ، يسوطهما بكل قوته حوذى بقبعة بيضاء .. واسرع « بينيه » صائحا : « قرقول سلاح ! » ، فحذا الضابط حذوه ، وهرول الجنود نحو السرادق ، لقد نسى بعضهم ان يرتدوا ياقاتهم .. ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدما ، فخفف الجوادان من سرعتهما ، ووصلا عن رنين اعنتهما إلى منصة البلدية ، فى اللحظة التى تم فيها تجمع الحرس الوطنى وفريق الإطفاء ، ومن ثم اخذوا يدقون الطبول ، وينظمون خطواتهم .. وصاح « بينيه » : « خطوة تنظيم ! » .. فصاح الضابط : « قف ! .. إلى اليسار در ! » .. وبعد أن ارتفعت البنادق للتحية ، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسى ينحدر على سلم ، خفضت البنادق من جديد . وإذ ذاك ، غادر العربة سيد فى حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخطوط فضية .. وكان اصلع فى مقدمة راسه ، ويضع شعرا مستعارا فى مؤخرتها ، وقد بدا كالح اللون، تلوح عليه أمارات الطيبة . وكان يعلو عينيه الجاحظتين جفنان سميكان ، نصف مطبقين عليهما ، إذ راح ينعم النظر فى الجماهير ، رافعا — فى الوقت ذاته — انفه الحاد ، راسما على فمه الفاغر ابتسامة . وعرف الرجل العمدة من وشاحه ، فاوضح له ان مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور ، وانه هو مستشار الاقليم .

ثم أردف مرددا بعض الاعذار ، فرد السيد « توفاش » — العمدة — ببعض المجاملات .. وبدا على الآخر الارتباك ! .. وظلا واقفين وجها لوجه ، تكاد جبهتاهما أن تتلامسا ، وحولهما أعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدى ، والأعيان ، والحرس الوطنى ، والجمهور . وكرر المستشار انحناءاته بالتحية ، وهو يضم إلى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب ، بينما انحنى «توفاش» كالقوس ، وابتسم هو الآخر ، وتلعثم إذ حاول أن يقول شيئا ، ثم أكد ولاءه للملكية ، واعرب عن الشرف الذى اتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض ! .

وأخذ « هيبوليت » — سائس الفندق — عنانى الجوادين من الحوذى ، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاء إلى باب « الأسد الذهبى » ، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة .. ودقت الطبول ، ودوى المدفع ، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوءوا المقاعد الحمراء التى اعارتها مدام « توفاش » للمحتفلين .. وكان هؤلاء السادة جميعا متشابهين .. فوجوههم السمينة الشقراء التى لوحتها الشمس قليلا تبدو فى لون شراب التفاح ، وشعور لحاهم تنتفش على جانبى وجوههم متهدلة على باقات كبيرة متيبسة ، تحيط بها أربطة عنق بيضاء ، لها عقدة عريضة.. وصداراتهم جميعا من القطيفة ، وكافة الساعات تحمل — فى نهاية أشرطة طويلة — ما يشبه خاتما بيضاويا من العقيق .. والأيدى مرتكزة على الأفخاذ ، تسوى فى عناية ثنيات السراويل التى كان قماشها الجديد يفوق الأحذية لمعانا .

ووقفت زوجات السادة خلفهم ، بين الاعمدة ، بينما احتشد الجمهور فى الناحية المقابلة ، بين وقوف وجلوس على المقاعد ، إذ كان « ليستيبودوا » قد نقل جميع المقاعد من المسرج إلى هناك، وراح يجرى طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها .. وسبب بنشاطه التجارى هذا ارتباكا جعل بلوغ سلم المنصة امرا عسيرا ! .. وقال « لوريه » للصيدلى إذ مر به ذاهبا إلى المكان المخصص له : « من رايى انه كان من الواجب عليهم أن يقيموا صاريين على طراز البندقية ، يحملان بعض الزينة القيمة ، حتى يصبح المنظر متعة للعين » .. فاجاب هوميه : « هذا حق .. ولكن ، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شيء .. لكم هو محدود الذوق هذا التوناش المسكين ! .. بل إنه محروم مما يسمى عبقرية الفن ! » .

* * *

● وفى تلك الأثناء ، كان رودولف قد صعد مع مدام بوفارى إلى قاعة الاجتماعات بالطابق الأول من مبنى البلدية .. وإذ كانت القاعة خالية ، فقد قال : إن فى وسعهما أن يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان . وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن أسفل التمثال النصفى للملك ، ووضعها على مقربة من إحدى النوافذ ، ثم جلسا متجاورين .. وكانت ثمة جلبة فوق المنصة ، وهمسات طويلة ، ومفاوضات .. واخيرا وقف السيد المستشار ، فعرف الجمهور إذ ذاك انه يدعى « ليفان » ، وسرى الاسم بين الجمع ، من شخص إلى آخر .. وبعد ان اخرج بضعة

اوراق ، وانحنى عليها ليراها بوضوح ، شرع يقول : « سادتى : اسمحوا لى اولا وقبل ان احدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم ان اقر بالفضل ـ وأنا واثق من أنكم تشاطروننى هذا الشعور ـ للحكومة .. للملك .. لملكنا ايها السادة .. هذا الملك المحبوب الذى لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحى الرخاء العام أو الخاص ، والذى يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة ، بين الأخطار المتلاحقة فى بحر عاصف ، وهو يعرف ـ فوق هذا ـ كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة ! » .

وهنا قال رودولف : « يجب ان ارتد قليلا إلى الوراء » .. فقالت ايما : « لماذا ؟ » .. وفى تلك اللحظة ، ارتفع صوت المستشار فوق المألوف وهو يقول : « لقد مضى ايها السادة ذلك الزمن الذى كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء ، والذى كان فيه المالك ، وصاحب الأعمال ، والعامل نفسه ، يأوون إلى مضاجعهم لينعموا بالنوم ، وهم يرتجفون خشية ان يستيقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق .. والذى كانت فيه اعنف المبادىء الهدامة تدك فى جراة كافة الأسس » ..

وعاد رودلف يتابع الكلام : « قد يلمحنى احد ، فاضطر عندئذ إلى ان أظل اسبوعين انتحل الاعذار .. فضلا عن ان سمعتى سيئة ! » .. فقالت ايما : « انك تظلم نفسك ! » .. قال : « لا .. إنها سيئة .. اؤكد لك ! » .. ومضى المستشار يقول : « على اننى حين انحى عن الذاكرة هذه



وهنا قال « رودولف » : يجب ان ارتد قليلا إلى الوراء .
فقالت « إيما » : لمــاذا ؟

الصور الحالكة — ايها السادة — انتقل ببصرى إلى الاحوال الراهنــة فى وطننا العزيز .. فمــاذا ارى ؟ .. فى كل مكان تزدهر التجــارة والفنــون ، وفى كل مكان طــرق جــديدة للمواصلات ، كأنها شرايين حديثة فى جسد الدولة ، تقيم فى ارجائها علاقات جديدة .. وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشــاطها .. والدين — الذى ازداد وحدة وتوطدا — يبتسم فى كل قلب .. وموانئنــا مليئة ، والثقة قد نبتت من جديد .. وفرنسا قد عادت تتنفس ! » .

واستأنف رودولف الحديث: «الواقع انهم ربما كانوا — من وجهة نظر المجتمع — على حق ! » .. فقالت ايما : « كيف ذلك ؟ » .. قال : « الامر بسيط .. او لا تعلمين أن هناك نفوسا مضناة تعيش فى عذاب دائم ، وأن لا بد لهــا من أن تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل .. بين العواطف السامية النبل ، وبين الشــهوات المتطرفــة العنف ! ومن ثم تلقى بانفسها فى كافة الوان الاهواء والحماقات ؟ ! » .. فنظرت إليه كما ينظر المرء إلى رحالة ارتاد بلادا غريبة ، وقالت : « نحن النساء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية ! » .. فقال : « وإنهــا لتسلية محزنة ، إذ أن المــرء لا يجد فيهــا السعادة ! » .. فتساءلت : «وهل من سبيل إلى العثور على السعادة يوما ؟ » .. فأجاب : « اجل .. انهــا لا تلبث أن تجىء يوما ! » .. هذا بينما كان المستشار ماض فى خطابه : « .. وهــذا هــو ما فهمتموه انتم ، معشر الزراع وعمال الريف .. ايهــا الرواد المســالمون ، فى ميدان الحضــارة الفسيح ! .. انتم يا رجال التقــدم والأخلاق قد فهمتم أن

العواصف السياسية أشد خطرا — فى الحقيقة — من
اضطرابات الطبيعة .. » :

وتابع رودولف حديثه : « ان المرء لا يلبث ان يلقى
السعادة فجأة .. يوما ما ، بعد أن يكون قد يئس منها ..
فإذ ذاك ، ينفرج الأفق .. وكان صوتا يصيح : « ها هى
ذى ! » .. وتحسين بالحاجة إلى ان تفضى بكل أسرار
حياتك ، وبأن تهبى كل شىء ، وتضحى بكل شىء ، من أجل
ذلك الكائن! .. ولا داعى عندئذ للكلام، فإن كلا يفهم الآخر ،
إذ يكون كل قد رأى الآخر فى أحلامه ! » .. ورمقها بنظرة
وهو يستطرد : « وبالاجمال ، ترين أمامك أخيرا الكنز الذى
طالما بحثت عنه .. إنه يتلألأ ، ويبرق .. ومع ذلك فإن
المرء يظل فى ريب ، فلا يصدق .. يظل مبهورا ، وكأنه خرج
من الظلمة إلى النور ! » .. وما إن انتهى الشاب من هذا
القول ، حتى قرنه بالاشارة ، فمسح وجه بيده كرجل أحس
بدوار ، ثم تركها تسقط على يد ايما .. فسحبت هذه يدها !

هذا والمستشار ماض فى خطابه : « .. اى وجه للعجب فى
ذلك ! لا ينكر روح اهل الزراعة إلا من أصيب بالعمى ،
وغرق — ولا أخشى من أن أقولها بهذه الصراحة — فى
أوهام عصر مضى وانقضى ! .. وفى الحق ، أين نجد وطنية
تفوق ما نجد فى الريف ، وإخلاصا للصالح العام فوق إخلاصهم؟
.. وفى كلمة واحدة ، أين نجد ذكاء أعظم مما نجد فى الريف ..
ولست أعنى ، أيها السادة ، هذا الذكاء السطحى الذى
تتحلى به النفوس المتسكعة ، وإنما أعنى ذلك الذكاء المتزن ،
الذى ينصب على السعى إلى الأهداف النافعة قبل كل شىء ،

وبذلك يساهم فى رخاء كل فرد ، والارتفاع بالمستوى العام ،
وتدعيم الدول ، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض
بالواجبات ! » .

وعقب رودولف قائلا : « آه .. هل عدنا ثانية ..
الواجبات ، دائما ! .. لقد سئمت هذه الكلمة .. إن هؤلاء
الذين يطنون فى آذننا باستمرار قائلين : « الواجب !
الواجب ! » ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامدة الملتفين
فى صدارى من « الفانيلا » ، ومن العجائز المتعبدات ! ..
آه لعمرى ! .. ما الواجب إلا ان نحس بما هو عظيم ، وان
نحب ما هو جميل ، لا ان نتقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه
علينا من ربقة وإذلال ! » .. فاعترضت مدام بوفارى قائلة :
« ومع ذلك .. مع ذلك .. » .

— لا، لا! .. لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية ؟..
أليست هى الشىء الجميل الوحيد على الأرض ؟ .. أليست
منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون ..
أو بإيجاز : كل شىء ؟

فقالت ايما : « ولكن على المرء أن ينحنى إلى حد
ما لرأى المجتمع ، وأن يتقبل قانون الأخلاق » .. فأجاب :
« أجل ، ولكن هناك قانونين : قانون صغير ، ويمثل ما تعارف
عليه الناس ووضعوه ، وهو يتغير باستمرار ، ويصرخ فى
صخب ، ويثير مثل هذه الجلبة التى نراها تحتنا .. إنه أرضى
من تراب ، كهذا الحشد من الأغبياء الذين ترينهم هناك ،
تحتنا ! .. أما القانون الآخر ، فهو الخالد ، وهو يشملنا

ويعلونا ، كالطبيعة التى تحيط بنا ، والسماء الزرقاء التى تمنحنا النور ! » .

وكان السيد « ليفان » قد مسح فمه بمنديل ، واستطرد فى خطابه : « وماذا على أن افعل ايها السادة ، لاظهركم على فائدة الزراعة ؟ .. من الذى يمدنا بحاجاتنا ؟ .. من الذى يقدم لنا أقواتنا ؟ .. اليس هو الزارع ؟ .. الزارع ايها السادة هو الذى يبرز بيده النشيطة فى خطوط الحقل الخصيبة ، فينبت القمح الذى يجرش ويطحن بأجهزة معقدة يخرج منها تحت اسم الدقيق .. ثم ينقل إلى المدن ، فينتهى إلى الخباز الذى يصنع منه غذاء للفقير والغنى على السواء ! .. اليس هو الفلاح الذى يربى هذه القطعان الوفيرة ليوفر لنا الكساء ؟ .. انى لنا الكساء والغذاء بدون الفلاح ؟ .. بل ، هل انا بحاجة ايها السادة إلى ان اذهب بعيدا لأبحث عن امثلة ؟ .. منذا الذى لم يفكر كثيرا فى تلك الأشياء العظيمة التى نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل ، زينة حظائر الدواجن عندنا ، والذى يوفر لنا وسائد لينة لمضاجعنا ، ولحما طريا لموائدنا ، وبيضا ؟ .. على اننى لن انتهى إذا مضيت فى تعداد المنتجات المختلفة التى تجود بها الأرض — إذا نحن احسنا زراعتها — كالأم السخية على ابنائها ! .. فها هنا شجر الكروم للنبيذ ، وفى مكان آخر شجر التفاح لشراب « السيدر » .. وهناك اللفت ، وبعده انواع الجبن ، والتيل الذى تقدم إنتاجه بخطى واسعة جدا فى السنوات الأخيرة ، والذى اود أن الفت إليه انتباهكم بوجه خاص » .

ولم تكن ثمة حاجة به إلى ان يلفت انتباههم ؛ إذ كانت افواه الحشد كله فاغرة ، وكأنهم يعبون من كلامه .. وكان « توفاش » إلى جواره ، ينصت وهو يحملق فيه .. والسيد « ديروزيراى » يغمض عينيه فى رفق بين آن وآخر .. وعلى مسافة منه ، وضع الصيدلى يده خلف اذنه حتى لا يفوته مقطع من كلمة ، وابنه « نابوليون » على ركبتيه .. وكانت ذقون اعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز فى بطء على صداراتهم ، دليل الاستحسان .. اما رجال الإطفاء ، فاستندوا — اسفل المنصة — على حرابهم ، ووقف « بينيه » جامدا فى مكانه ، وقد ثنى ذراعيه ، وذؤابة سيفه فى الهواء .. ولعله كان يسمع ، ولكنه بلا شك لم يكن يرى شيئا ، بسبب حافة قلنسوته التى كانت تهبط فوق انفه ! .. وكان مساعده — الابن الأصغر للسيد « توفاش » — يلبس قلنسوة اكبر من تلك ، إذ كانت واسعة ، تترجرج فوق رأسه ، وقد برز منها طرف منديله القطنى .. وكان يبتسم تحتها فى وداعة الطفل ، وقطرات العرق تتساقط من وجهه الصغير الشاحب ، وقد لاحت عليه امارات الانشراح والنوم !

* * *

● وكان الميدان مزدحما بالناس حتى مواقع المنازل ، فكان المرء يرى قوما متكئين بمرافقهم على جميع النوافذ ، وآخرين يقفون امام الأبواب ، وبدا «جوستان» امام الصيدلية وقد سمر فى مكانه لفرط ما استهواه المنظر .. وكان صوت السيد « ليفان » يضيع فى الهواء رغم الصمت الشامل ، فلا تصل إلى مسمعيك سوى نتف من العبارات ، يقطعها

صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك .. ثم لا تلبث أن تسمع خوار ثور ، أو ثغاء الحملان ، يجاوب بعضه بعضا عند أركان الشارع .. إذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك ، فكانت تخور من آن إلى آخر وهى تنتزع بألسنتها نتفا من أوراق الشجر المتدلية أمام أفواهها .

وكان رودولف قد ازداد من إيما اقترابا ، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة : « أو لا يثيرك تآمر المجتمع على هذا النحو ؟ .. وهل هناك احساس واحد لا يستنكره ؟ .. إن أنبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها .. وإذا حدث أن التقت روحان بائستان ، فإن كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما .. ومع ذلك فإنهما ستحاولان ، وترفرفان بأجنحتهما ، وتسعى كل منهما إلى الأخرى .. أواه ! .. لا بأس ، فإنهما لن تلبثا أن تجتمعا وتتحابا ، طال الزمن أو قصر .. فى ستة أشهر أو فى عشر سنوات .. فإن القدر قد كتب هذا لهما ، إذ خلقت كل منهما للأخرى » .

وكان جالسا وقد تقاطعت ذراعاه فوق ركبتيه .. وتطلع إلى إيما وهو جد قريب منها ، وثبت بصره عليها ، فلمحت فى عينيه خطوطا ذهبية صغيرة تومض من أعماق حدقتيه السوداوين .. بل إنها راحت تشم عطر الدهان الذى ضمخ به شعره .. وما لبثت أن غشيتها نوبة من شرود ، فذكرت الفيكونت الذى رقصت « الفالس » معه فى (فوبيسار) ، إذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التى تفوح من هذا الشعر .. واسبلت جفنيها — بحركة آلية — فى نصف إغماضة ، وهى تنتشق فى شعره هذا العطر . ولكنها حين

اضطجعت فى المقعد لمحت على البعد — عند حافة الأفق — عربة الركاب القديمة ، « العصفورة » تنحدر فى بطء هابطة تل (ليو) ، وهى تجر ذيلا طويلا من الغبار ! .. هذه العربة الصفراء التى كثيرا ما عاد إليها فيها «ليون» ، وفى ذلك الطريق رحل عنها إلى غير رجعة .. وخيل إليها أنها تراه واقفا عند نافذته .. ثم اختلطت الرؤى ، واكفهرت السحب ، وخيل إليها أنها عادت تدور فى رقصة «الفالس» — تحت أضواء الثريات — بين ذراعى «الفيكونت» ، وأن «ليون» ليس بعيدا عنها ، وأنه قادم .. ومع ذلك . كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس رودولف إلى جانبها . وتغلغل هذا الاحساس العذب فى رغباتها القديمة ، التى أخذت تتحرك جيئة وذهابا ، فى نفحات هذا العطر الذى ران على روحها ، كما تتحرك ذرات الرمل فى مهب الريح .. ففتحت طاقتى أنفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة . ونزعت قفازيها ، فمسحت يديها ، ثم حركت منديلها أمام وجهها كالمروحة ، بينما كان صوت المستشار يصل إليها — خلال نبض صدغيها — مرددا عباراته ، وكأنه يترنم بها : « واصلوا ، وثابروا ، ولا تنصتوا إلى ما يوصى به الروتين ، أو ما تدعو إليه النصائح المرتجلة المبنية على تجارب طائشة ! .. واتجهوا بجهودكم — بنوع خاص — إلى تحسين التربة ، والسماد الجيد ، والاكثار من سلالات الخيل والبقر والخنازير والأغنام الجيدة .. ولتكن هذه المعارض — بالنسبة لكم — أشبه بالساحات السلمية ، يمد المنتصر فيها يده — إذ يغادرها — إلى المنهزم ، ويؤاخيه ، أملا فى فوز أفضل .. وأنتم أيها

العمال الشيوخ ، والخدم المتواضعون ، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار .. تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة ، وثقوا من ان الدولة ترمقكم ، وتشجعكم، وتحميكم .. وستستجيب لمطالبكم العادلة ، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم ! » .

وجلس السيد « ليفان » إذ ذاك فنهض السيد « ديروزيراى » ، وشرع يلقى خطابا آخر .. ولعله لم يكن خطابا منمقا كخطاب المستشار ، ولكنه امتاز عنه باسلوب اكثر إيجابية ، او بالأحرى ، بمعلومات ادق ، واعتبارات اسمى .. فلم يشغل مدح الحكومة — مثلا — سوى حيز صغير منه . أما الدين والزراعة ، ففازا بقسط اوفر ، إذ القى الضوء على العلاقة بينهما ، وعلى دورهما المشترك فى لخدمة الحضارة .. وبينما كان رودولف يحدث مدام بوفارى عن الاحلام ، والتكهنات ، والجاذبية المغناطيسية ، كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع ، متدرجا من العصور الأولى التى كان الإنسان يتغذى فيها بثمار البلوط فى اعماق الغاب ، إلى تلك العهود التى تحول فيها الناس عن جلود الحيوان إلى الاقمشة المنسوجة ، وراحوا يحرثون الأرض ويزرعون الكروم .. افكان هذا التحول خيرا ؟ .. او لم يكن فى هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع ؟ .. وتولى السيد « ديروزيراى » علاج السؤال .. بينما كان رودولف قد تطرق متنقلا من المغناطيسية إلى الميول والعلاقات .. واخذ رئيس اللجنة يذكر « سنسناتوس » ومحراثه ، و « ديوكلسيان »

إذ زرع الكرنب ، واباطرة الصين حين كانوا يفتتحون ببذر البذور .. فى حين كان الشاب — رودولف — ماضيا يشرح للشابة ان الميول والانجذابات ترجع فى سببها إلى نوع سابق من الوجود .. او حياة سابقة !

ومضى يقول : « ومن ثم ، لماذا قدر لكل منا ان يعرف الآخر ؟ .. اية إرادة شاءت هذا ؟ .. لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا إلى الآخر — كجدولين يجريان لكى يلتقيا ويتحدا — وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصة بكل منا إلى صاحبه ! » .

وامسك بيدها ، فلم تسحبها منه .. وفى تلك اللحظة ، كان الخطيب يصيح : « جائزة الزراعة الجيدة .. » .. ورودلف ماض فى حديثه : « فمثلا عندما اتيت إلى بيتكم.. ».

وهكذا اخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع فى تناوب واختلاط :

كان الخطيب يقول : « إلى السيد بيريه من كونكانبوا » .

ورودولف يقول: هل كنت اعلم ان قد قدر لى ان اصحبك؟

الخطيب : سبعون فرنكا ..

رودولف : بل لقد حاولت مائة مرة ان ارحل .. ولكننى تبعتك .. وبقيت !

الخطيب : جائزة الاسمدة ..

رودولف : سوف ابقى الليلة ، وغدا ، وكل الأيام المقبلة، وحياتى كلها !

الخطيب : إلى السيد « كارون » من (ارجيى) .. ميدالية ذهبية .

رودولف : فانى لم التق بمثل هـذه الفتنة الشـاملة فى صحبة أى شخص آخر .

الخطيب : السيد « بان » من جيفرى سان مارتان ..

رودولف : وسوف احمل معى ذكراك ...

الخطيب : جائزة عن كبش أسبانى من نوع «مارينو» ..

رودولف: ولكنك سوف تنسيننى .. ساتلاشى كالطيف!

الخطيب : إلى السيد « بيلو » من نوتردام ...

رودولف : آه ، لا ! .. بـل سـابقى فى فـكرك ، وحياتك .. اليس كذلك ؟

الخطيب : سلالة الخنازير .. الجائزة مناصـفة بين السيدين « لهيريسيه » و «كيلمبور» .. وقدرها ستون فرنكا.

وضغط رودولف يد ايما ، فأحس بها دافئة ، تنتفض ، كاليمامة الحبيسة التى تبغى انطلاقا .. وسواء كانت تحاول أن تنتزع يدهـا ، أو كانت تسـتجيب لضغطه ، فانها حركت اصابعها ، فهتف : « آه ، شكرا لك .. فانت لا تصديننى!.. ما أطيبك ! .. انك تدركين اننى ملك يديك ! .. الا دعينى انظر إليك ! .. دعينى أتاملك ! » .

وهبت من النافذة ريح ثنت أطراف غطـاء المـائدة ، وأطاحت بقبعات الفلاحـات الكبيرة — فى الميدان — فطارت كأجنحة فراشـات بيضـاء ترفرف ! .. وكان رئيس لجنة التحكيم ماضيا فى قوله : « جائزة استخدام كسـب البذور الزيتية .. السماد الفلمنكى .. زراعة التيل .. الصرف .. الايجارات الطويلة .. الخدمات الأهلية » ... أما رودولف فلم يعـد يتكلم ، إذ راح يرمق « ايمـا » .. وهى ترمقه ،

وشفاههما ترتجف بتأثير رغبة جامحة ! .. وفى استرخاء ، ودون ما جهد ، تعانقت أصابعهما .. ورئيس لجنة التحكيم ماض فى سرد الجوائز !

ـ كاترين نيكيز اليزابيث ليرو من (ساستولاجيريير) .. من أجل بقائها خمسة وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة .. ميدالية فضية ومكافأة قدرها خمسة وعشرون فرنكا !

وردد المستشار النداء قائلا : « اين هى كاترين ليرو ؟ » .. لكنهـا لم تتقـدم .. وسمعت أصـوات تتهـامس : « استمر ! » .. « لا » .. « إلى اليسار » .. « لا تخافى ! » .. « آه ، يالها من غبية ! » .. وصاح «توفاش» : « وبعد ؛ أموجودة هى ؟ » .. « نعم .. ها هى ذى ! » .. « فلتتقدم إذن ! » ورؤيت إذ ذاك امرأة عجوز ، ضـئيلة الجسـم ، تتقدم واجفة نحو المنصة ، وهى تكـاد تتوارى فى ثيابهـا التعسة ، وفى قدميها حذاءان ضخمان من الخشب ، بينمـا انسدلت على ردفيها مرولة كبيرة زرقـاء .. وكان وجههـا الضامر ، المحاط بطاقية لا حافة لها ، أكثر تجعيدا من تفاحة صغيرة ذابلة .. ومن كمى سترتها الحمـراء ، برزت يدان بدت مفاصلها كالعقد ، وقد غطتها البقع والبثور والبشرة الخشنة من أثر غبـار الأجران ، و « البوتـاس » الذى نستخدمه فى إزالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية ، حتى انهما كانتا تبدوان قذرتين رغم غسلهما بالماء الصاف .. وقد مكثتا منفرجتين لطول ما خدمتا ، وكأنهما تقـدمان دليـلا متواضعا على ما تكبدتا من مشـاق مضنية ! .. واكتـسب وجهها جلالا شىء من جمود الرهبنة . ولم يكن يخفف من حدة

نظراتها شيء من الحزن او من الحنان .. وكانت لكثرة
معاشرتها للحيوانات قد اخذت عنها الصمت والسكوت ..
وكانت هذه هى اول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هذا
الجمع الغفير ، فداخلها ذعر من الاعلام والابواق ، واولئك
السادة الذين كانوا فى ثياب سوداء ، وذلك الوسام الذى
كان يزين صدر المستشار .. فظلت مسمرة فى مكانها ،
لا تدرى اتتقدم ، ام تلوذ بالفرار .. ولا تفهم لماذا راحوا
يدفعونها إلى الامام ، ولا لماذا كان الحكام يبتسمون
لها ؟ ! .. وهكذا وقفت امام المواطنين السعداء ، تمثالا حيا
لنصف قرن من العبودية ! .. وكان المستشار قد اخذ قائمة
الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام ، فقال لها : « اقتربى
ايتها المبجلة كاترين نيكيز اليزابيث ليرو » .. واخذ ينقل
بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز ، مكررا فى لهجة
ابوية : « اقتربى ! اقتربى ! » .

وقال « توفاش » وهو يتململ فى مقعده : « اصماء
انت ؟ » .. ثم راح يصيح فى اذنها : « اربع وخمسون سنة
فى الخدمة ! .. ميدالية فضية ! .. وخمسة وعشرون
فرنكا .. لك ! » .. وتاملت « الميدالية » إذ تناولتها ،
وما لبث وجهها ان اشرق بابتسامة راضية ، ثم تمتمت وهى
تنصرف : « ساعطيها لقس قريتنا كى يقيم لى قداسا ! » ..
فمال الصيدلى نحو موثق العقود قائلا : « يا للتعصب ! » .

* * *

● وانتهى الحفل ، فاخذ الجمهور يتفرق .. وعاد كل
امرىء إلى مكانه ، وكل شىء إلى مجراه .. واخذ السادة

ينهرون الخدم ، وهؤلاء يضربون الماشية .. تلك الماشية
الفائزة ، التى علق بقرونها تاج اخضر ، وهى تعود إلى
حظائرها ! .. هذا بينما صعد جنود الحرس الوطنى إلى
الطابق الاول من مبنى البلدية ، وقد رشقوا الفطائر الجافة
فى حرابهم ، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات ..
واخذت مدام بوفارى بذراع رودولف الذى رافقها حتى دارها ،
ثم افترقا لدى الباب ، وسار هو يتنزه وحيدا فى المرج ، فى
انتظار موعد الوليمة .

وكانت المادبة طويلة ، صاخبة ، سيئة النظام ، ازدحمت
إلى درجة لم يكن معها فى وسع المرء ان يحرك مرفقه ، وحتى
اوشكت الالواح الضيقة — التى استخدمت كمقاعد — ان
تتحطم تحت ثقل الجالسين .. واكل القوم فى إسراف ، إذ عنى
كل واحد بان يملأ بطنه ، حتى تفصد العرق على كل جبهة ،
وانبعث بخار يميل إلى البياض — كذلك الذى يتصاعد من
جدول فى صباح يوم من ايام الخريف — واخذ يخيم فوق المائدة
بين المصابيح المدلاة .. واستند رودولف إلى قماش السرادق ،
وقد استغرقه التفكير فى ايما ، حتى انه لم يسمع شيئا مما كان
يدور حوله . وكان الخدم من ورائه يجمعون الاوانى المتسخة ،
وجيرانه يوجهون إليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب .. ومن
ثم ملئوا له كاسه ! .. وران على فكره سكون رغم الضجيج
المحيط به .. كان يحلم بما قالت ، وبشكل شفتيها .. وكان
وجهها يتمثل له منعكسا على خوذات الجنود ، وكانه يراه فى
مرآة سحرية .. وثنايا ثوبها تنتشر على الجدران .. واخذت
ايام الهوى تتتابع امام عينيه فى افق المستقبل ، وهى لا تكاد
تنتهى !

ورآها ثانية فى المســـاء ، أثناء الاحتفـــال بإطـــلاق الصواريخ . بيد انها كانت مع زوجها ومدام « هوميه » ، والصيدلى الذى كان شديد القلق بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة ، حتى انه كان يترك الجماعة فى كل لحظة ، ليذهب إلى « بينيه » ويقدم له النصائح . . وكانت الصواريخ ــ التى وردت باسم السيد « توفاش » ــ قد اختزنت فى قبو منزله ، زيادة فى الحيطة، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل . . وفسدت تماما القطعة الرئيسية ، وكانت صاروخا يمثل تنينا يعض ذيله ! . . ومن وقت لآخر ، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة ، فتنبعث من الجمهور الفاغر الأفواه ضجة تختلط بهـــا صيحات النســاء اللواتى كان الرجال يدغدغون خصورهن فى الظلام ، وقد التصقت ايما ــ فى رفق ــ بكتف شارل ، وراحت تتتبع انبثاق الضوء من الصواريخ فى السماء المعتمة ، وهى رافعة الذقن ، ورودولف يتأملها فى ضوء المصابيح المشتعلة !

وخمدت الصواريخ شيئا فشيئا ، وأضاءت النجوم ، وسقطت بعض قطرات من المطر ، فعقدت ايما حرملتها فوق راسها العارية . . وفى هذه اللحظة ، اقبلت عربة المستشار من الفندق ، وقد اخذت الحوذى المخمور غفوة طارئة ، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحى العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة . . فقال الصيدلى : « الحق ان من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط فى تناول الخمر . . وبودى لو سجلت اسبوعيا على لوحة خاصة ــ على باب البلدية ــ اسماء الذين يثملون خلال الاسبوع من المشروبات الكحولية ! . . فضلا عن أننا سنحصل بذلك ــ من الناحية

الاحصائية ــ على قوائم سنوية رسمية ، نطلع عليها عند الحاجة ، ولكن . . اسمحوا لى ! » . . وعدا ثانية نحـــو القائد ! . . وكان هـــذا الاخير عائـــدا إلى منـــزله ليتفقد مخرطته . . فقال له هوميه : « انك لن ترتكب خطأ لو انك اوفدت احد رجالك . . او تذهب بنفسك . . » ، فاجـــاب محصل الضرائب : « دعنى وشأنى ! . . اطمئن ! » .

وبعد ان عاد الصيدلى إلى اصدقائه قال: « اطمئنوا ! . . لقد أكد لى السيد بينيه ان التدابير اتخذت ، ولم تسقط اية شرارة ، كما ان المضخات مليئة . . فهيا بنا نستريح ! » . . فقالت مدام « هوميه » وهى تتثاءب بقوة . « الواقع اننى بحاجة إلى النوم ، ولكن . . لا بأس ، فقد قضينا يوما جميلا كأنه العيد!» . . فردد رودولف بصوت خفيض، ونظرة ناعمة: « آه ، اجل ! . . كان جميلا جدا » . . وانحنى كل منهم لسواه، ثم انصرفوا .

وبعد ذلك بيومين ، نشرت صحيفة « فنال دى روان » مقالا طويلا عن المعرض ، كان هوميه قـــد كتبه بأســـلوبه المتحمس فى اليوم التالى للاحتفال ، وقال فيه : « لم هـــذه الولائم ، وهذه الأزهار ، وهذه الباقات ؟ . . وإلى أين يعدو هذا الجمهور وكأنه أمواج بحر ثائر ، تحت سيل من اشـــعة الشمس الحامية التى تنشر حرارتها فوق حقولنا ؟ ! » . . وتكلم عن حال الفلاحين ، فقال : إن الحكومة قد فعلت الكثير ولا شك من اجلهم ، ولكن هذا لم يكن كافيا ، ومن ثم أهاب بها: « إلى الامام ، فهناك الف مشروع لازمة ، وعلينا أن ننجزها » . ثم تحدث عن وصول المستشار ، فلم ينس « المظهر العسكرى

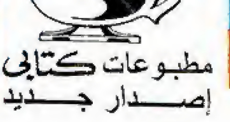
الرائع لجنودنا » ولا « فلاحاتنا الموفــورات النشــاط » ،
ولا « الشيوخ ذوى الرؤوس الصلعاء كأنهم البطارقة .. وقد
احس من بقى منهم من رجال كتائبنا القدامى ، بقلوبهم لا تزال
تخفق على دق الطبول القوى » .. وذكر نفسه بين اوائل
الأعضاء المكونين لهيئة التحكيم ، مشيرا — بطريقة تستلفت
الانتباه — إلى ان الســيد هوميه ، الصيدلى ، قد ارسل مذكرة
عن شجر التفاح إلى الجمعية الزراعية ! .. وإذ تطرق إلى
الحديث عن توزيع الجوائز ، صور فرح الفائزين بأســلوب
خيالى مبالغ فيه : « فالأب يقبل ابنه ، والأخ اخاه ، والزوج
زوجته . وكم من واحد منهم كان يزهو بإظهار « ميداليته »
المتواضعة ، التى لن يلبث – إذا ما عاد إلى زوجتهالصالحة –
ان يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه .. وحوالى
الساعة السادسة ، اقيمت مادبة فى بستان السيد « ليجار »
ضمت الشخصيات الرئيسية التى حضرت الاحتفال، وسادتها
روح المودة الخالصة .. وشربت عدة أنخاب ، فشرب السيد
« ليفان » نخب الملك ، والســيد « توفاش » نخب المدير ،
والسيد « ديروزيراى » نخب الزراعة ، والسيد « هوميه »
نخب الصناعة والفنون الجميلة — التــوامين — والســيد
« ليبليشيه » نخب الاصلاحات . وفى المســاء ، انطلقت فى
السماء صواريخ لامعةاضاءتها فجاة، حتى لقد كان يخيل للمرء
انها منظار سحرى ، او منظر مسرحى حقيقى . وكأنما بالقرية
الصغيرة قد انتقلت — للحظة من الزمن — إلى حلم من احلام
الف ليلة وليلة ! » .

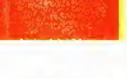
ثم اضاف قائلا : « ولنسجل أنه لم يكدر صــفو هــذا

الاجتماع العائلى اى حادث يدعو للأسف .. وكانت الملاحظة
الوحيدة هى تخلف رجال الدين ، ولعل الكهنوت يفهم التقدم
على نحو آخر ! .. كما تشاءون يا رسل ليولا ! » .

تم الجزء الأول
ويليه الجزء الثانى والأخير

———— • ————





عزيزى القارئ ..

فى الفصل السادس من كتاب (وجوه الحب السبعة) ، أول كتاب من الاصدار الجديد لسلاسل (كتابى) ، حدثنا الكاتب العالمى « أندريه موروا » عن رواية (مدام بوفارى) باعتبارها تمثل الوجه السادس من وجوه الحب السبعة ، وهو الحب الذى يوحى به « الغجر » والرغبة فى الفرار من الواقع .. واليوم أقدم لك الجزء الأول من الترجمة « الكاملة » الأمينة لهذه الرواية الخالدة ، التى كتبت لمؤلفها « چوستاف فلوبير » الخلود فى عالم الأدب ، ودفعت به إلى قمة المجد ، تقديرا لبراعته الفائقة فى تحليل خلجات نفس الزوجة الخائنة « إيما بوفارى » زوجة الطبيب الريفى الطيب « شارل بوفارى » ، التى تمردت على زوجها لترتمى فى أحضان عشيقها ، حالمة بأن يحملها إلى عوالم خيالية طالما سمعت وقرأت عنها .. ولكن ..

وفى نهاية الجزء الثانى والأخير من الرواية ـ الذى تقرأه فى الكتاب القادم بإذن الله ـ أقدم لك تفاصيل المحاكمة التاريخية التى تعرض لها المؤلف على إثر نشر الرواية ، فى عصر لم يكن مهيأ لتقبل هذا النموذج الفذ من نماذج الأدب « الواقعى » !

حلمى مراد

